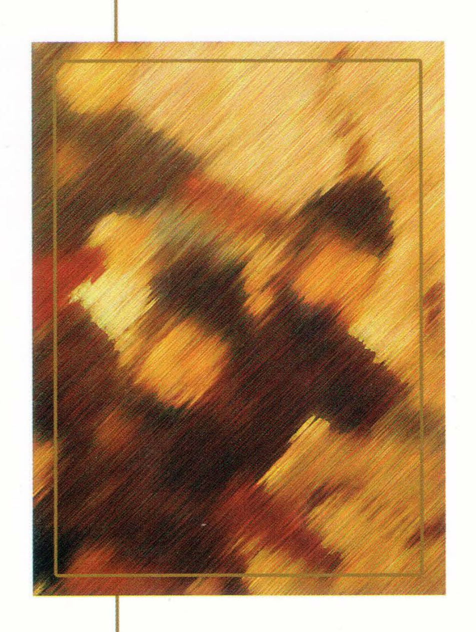


الطبعة الثالثة

ابن تيمية والمغول

تاريخ لم يقرأ



محمد براء ياسين


ابن تيمية والمغول
تاريخ لم يقرأ

ابن تيمية والمغول

تاريخ لم يقرأ

محمد براء ياسين

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ياسين، محمد براء

ابن تيمية والمغول.. تاريخ لم يقرأ - محمد براء ياسين - الدمام، ١٤٤١هـ.

٣٥٦ص؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ١-٢٨٣٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ - التاريخ الإسلامي

٢ - العالم الإسلامي - تاريخ - عصر المغول

٣ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨هـ - ٦٧٧ت

أ. العنوان

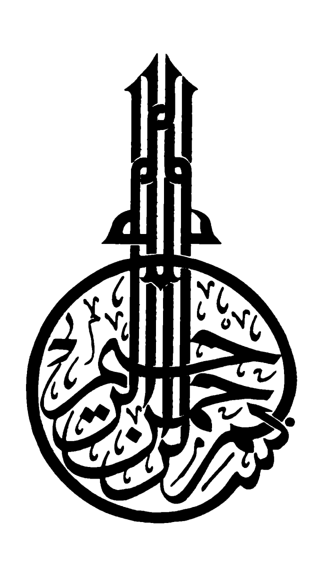
ديوي ٩٥٣,٠٧٨ ٣٥٦٨/ ١٤٤١

رقم الإيداع: ٣٥٦٨/ ١٤٤١

ردمك: ١-٢٨٣٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م



فهرس المحتويات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم علىٰ نبينا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن معاني القرآن العظيم لما دارت علىٰ ثلاثة أنواع: التوحيد، والأحكام، والقصص؛ صحَّ أن يقال: القصص ثلث القرآن، ثم إن الله تعالىٰ أرشدنا إلىٰ النظر في تلك القصص بقصد الاعتبار والاقتداء والاهتداء، كما دلَّ علىٰ ذلك كتاب الله تعالىٰ في مواضع عديدة، منها قوله تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ بعد أن ذكر عددًا من أنبيائه عليهم وعلىٰ نبينا صلوات الله وسلامه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولذا كان علم التاريخ علمًا شريفًا جليلًا، لكونه مُوصِلًا إلىٰ ذلكم المقصد، وفي هذا يقول ابن خلدون: (اعلم أنَّ فنَّ التّاريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا علىٰ أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتَّىٰ تتمَّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدِّين والدُّنيا)[١].

وقال الصلاح الصفدي: (وأنا أرىٰ التأريخ والترجمة معادًا ثانيًا في المعنىٰ لا في الوجود، ونشرًا أوَّلَ قبل نشر الرفات، إلا أنها لم يفض عنها ختم اللحود)[٢].

---

(١) «مقدمة ابن خلدون» (ص٩).

(٢) «أعيان العصر وأعوان النصر» (١/ ٣٧).

وقال شمس الدين الباعوني في مقدمة منظومته (تحفة الظرفاء في تاريخ الملوك والخلفاء):

وَبَعْدُ، فَالتَّارِيخُ عِلْمٌ شَرَفُهْ
عَالِيَةٌ بَيْنَ الأَنَامِ غُرَفُهْ
صَاحِبُهُ يُخْبِرُ عَمَّا قَدْ مَضَىٰ
وَلِمَجَالِسِ المُلُوْكِ يُرْتَضَىٰ
وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنَ المَنَافِعِ
حَتَّىٰ لَقَدْ قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيْ
فِي خَبَرٍ قَدْ صَحَّ عَنْهُ نَقْلُهُ:
(مَنْ حَفِظَ التَّارِيخَ زَادَ عَقْلُهُ)
وَهْوَ كَلَامٌ ظَاهِرٌ لَا شَكَّ فِيْ
صِحَّتِهِ، وَسِرُّهِ غَيْرُ خَفِيْ

وقال محمد رشيد رضا: (ومعرفة التاريخ وتقويم البلدان هي التي تودع حب الأمة في القلب، وتبعث فيه روح الغيرة)[١].

وقال محمد كرد علي: (والتاريخ ربيب الحرية، لا يتصرف علىٰ هوىٰ من يكتبه ويقرؤه، ولا علىٰ أذواق أهل العصر وأهوائهم، وما دام موضوعُه: الاعتبار بالخالي لمعرفة الحالي والآتي؛ فهو جدير بأن يُتحرَّىٰ فيه الحق، ولا يدون سواه)[٢].

---

(١) «مجلة المنار» المجلد الثامن.

(٢) «خطط الشام» (١/ ٤).

وهذه دراسة سمَّيتها: (**ابن تيمية والمغول .. تاريخ لم يقرأ**)، وهي لا تخرج في غاياتها العامَّة عن تلك المقاصد والغايات التي دلَّت عليها النُّقُول آنفة الذكر.

قد اشتملت هذه الدراسة -بعد هذه المقدمة- علىٰ قسمين، وملحق:

القسم الأول: قسم العرض والتحليل:

ويشتمل علىٰ بابين:

الباب الأول بعنوان: ابن تيمية ومغول إيران في عهد قازان، ويشتمل علىٰ ستة فصول:

- الفصل الأول: مُقدِّمَات تجدُّد الصراع مع مملكة إيران.
- الفصل الثاني: قازان يغزو الشام (احتلال دمشق سنة ٦٩٩هـ).
- الفصل الثالث: ما بعد الاحتلال.. (٦٩٩هـ-٧٠٠هـ).
- الفصل الرابع: معركة الأحزاب في الشام (حملة قازان علىٰ بلاد الشام سنة ٧٠٠هـ).
- الفصل الخامس: ما بين حملتي قازان الثانية والثالثة.. (٧٠٠هـ-٧٠٢هـ).
- الفصل السادس: الهزيمة النهائية لقازان (وقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ).

والباب الثاني بعنوان: ابن تيمية ومغول إيران في عهد خربندا، ويشتمل علىٰ خمسة فصول:

- الفصل الأول: واقعة ابن تيمية المشهورة في جبل كِسْروان (فتح جبل كِسْروان سنة ٧٠٥هـ).

- الفصل الثاني: حملة مغول إيران علىٰ گيلان ٧٠٧هـ.
- الفصل الثالث: خربندا علىٰ خطىٰ أخيه قازان.. (حملة التتار علىٰ بلاد الشام سنة ٧١٢هـ).
- الفصل الرابع: حملة المماليك علىٰ مَلَطْيَة سنة ٧١٥هـ.
- الفصل الخامس: الرافضة في مملكة إيران.

وكان **المصدر الأول في الأهمية** لهذا القسم من الكتاب هو ما دوَّنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ بنفسه، إما في المذكرات الخاصة التي كتبها بشأن بعض الأحداث، كما كتبه بشأن حملة التتار سنة ٧٠٠هـ، وإما في مراسلاته، كرسالتيه للسلطان الناصر، بشأن التصدي للتتار سنة ٦٩٩هـ، وبشأن فتح كسروان سنة ٧٠٥هـ، وإما في فتاويه، كفتواه الطويلة في شأن التتار، وإما فيما يذكره عن نفسه أو عن الأحداث المحيطة به استطرادًا في بعض كُتبه، ككلامه الذي جاء في شأن معركة وادي الخزندار، ومعركة شقحب في كتابه (الرد علىٰ البكري).

ثم **المصدر الثاني في الأهمية** ما دوَّنه مؤرخ الشام الإمام علم الدين البِرزالي رحمه الله تعالىٰ، ونقف علىٰ ما دوَّنه الآن إما في تاريخه المطبوع (المُقتفي علىٰ الروضتين)، وإما فيما ينقله مؤرخو العصر المملوكي عنه[1]، وإن لم يكن مُضمَّنًا في المطبوع.

---

(١) كاليونيني وابن الجزري والذهبي والنويري، ولابن كثير رحمه الله تعالى -في الجزء المتعلق بالأحداث المسطورة في هذا الكتاب- في «البداية والنهاية» اعتمادٌ رئيس على كتاب البرزالي، وهو لا يحافظ على عبارة البرزالي -كابن عبد الهادي في «العقود الدرية»-، بل يعيد صياغة كلامه في العديد من المواضع، وقد يقع له وهم في تأدية المعنى، يظهر بالمقارنة بين كلاميهما في الموضع المُعيَّن، غير أن فيه إضافاتٍ لفظية أو معنوية يُبرز فيها دور ابن تيمية.

وأهم الكتب المفردة في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية هو كتاب (العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) للإمام شمس الدين ابن عبد الهادي رحمه الله تعالىٰ، وتأتي أهميَّتُه من جهة اعتماده اعتمادًا كبيرًا فيما جمَعَه علىٰ المَصدرين آنفَي الذكر، وإن لم يشمل ما جاء فيهما، وإن كان فيه زيادات علىٰ ما يرد فيهما.

أما كلام ابن القيم المتعلق بأي موقف أو حدث مما تناوله هذا الكتاب؛ فهو مما حرصت علىٰ إيراده، وإن كان قليلًا[1].

وقد رجعت بعد ذلك إلىٰ كتب متعددة من كتب التاريخ أو التراجم، بحسب ما يلائم كُلَّ موضع مما دونه العلماء أو الكُتَّاب أو الأمراء في العصر المملوكي، من الشاميين كاليونيني، وابن الجزري[2]، والذهبي[3]، وابن كثير، وابن فضل الله، والصفدي، وابن الوردي، وملك حماة الملك المؤيد[4]، أو المصريين كالنويري، والأمير بيبرس الداوادار، واليوسفي[5]، وابن أيبك

---

(١) كانت صحبة ابن القيم لابن تيمية متأخرة، بعد رجوعه من مصر سنة ٧١٢هـ، ولهذا فإنه لما تحدث عن فراسة شيخه في بعض الوقائع في «مدارج السالكين» (٢/ ٤٩٠) قال: (وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف أضعاف ما شاهدته).

(٢) وكان النقل عنه قليلاً، لكون أكثر السنوات التي تناول هذا الكتاب أحداثها لا يغطيها الجزء المطبوع منه.

(٣) سواء في تاريخه «تاريخ الإسلام» -الذي ينتهي بسنة ٧٠٠هـ أي في أول السنوات التي تناول هذا الكتاب أحداثها-، أو «دول الإسلام»، أو «العبر» أو «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية».

(٤) له ميزة في التأريخ للأحداث التي كانت تجري في شمال الدولة المملوكية، لوجوده هناك، ومما امتاز به تأريخه لمشاركته في عدد من الأحداث بنفسه، كغزوات المماليك على بلاد الأرمن.

(٥) لتاريخ اليوسفي المسمى «نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر» ميزة خاصة، حيث كنت أجد لديه من التفاصيل مما ينقله عنه البدر العيني في نقول مطولة تارة أو مختصرة تارة في تاريخه المسمى «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» ما لا أجد عند أحد غيره، والكتاب أحد مراجع المقريزي في «خططه»، والمطبوع منه جزء يسير. قال ابن حجر في وصفه في «الدرر الكامنة» في الترجمة (٢٣٨٤): (وأفاد فيه كثيرًا من الوقائع والتراجم التي يحكيها عن مشاهدة، وهو كثير التحري في النقل، ما يتحققه ينقله، وما لا؛ يضيفه إلى قائله، وربما تبرأ من عهدته).

الداوداري[1]، أو من الإيرانيين كرشيد الدولة الهمذاني[2].

أما القسم الثاني من الكتاب فهو في المناقشات، وقد تضمن بندين:

الأول: ناقشت فيه كلام بعض مؤرخي التتار والمستشرقين والشيعة في خمسة موضوعات متفرقة من الموضوعات التي بُحثت في القسم الأول، فناقشت كلام عطا ملك الجويني مؤرخ التتار في الثناء علىٰ الياسا، وناقشت المستشرقة الألمانية دوروتيا كرافولسكي في نسبتها الثناء علىٰ الياسا للمؤرخ القاضي ابن فضل الله العمري، وناقشت قولًا لعدد من المستشرقين منهم الفرنسي شبولر والألماني بروكلمان بأن قازان عمل بالشريعة الإسلامية، وناقشت رشيد الدولة وابن الفوطي من مؤرخي التتار في إهمالهم دور نوروز الشهيد في تحطيم الأصنام، ثم ناقشت بعض الرافضة المعاصرين -وهو الشهاب المرعشي النجفي- في ذمه أهل السنة لتسميتهم ملك التتار خربندا بهذا الاسم.

وأما **البند الثاني** فهو بعنوان (نقض دعوىٰ تقلب ابن تيمية في موقفه من الرافضة)، وقد تضمن مناقشة مطولة لكتاب (حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوىٰ ابن تيمية) لمحمد جمال باروت.

أما الملحق فيتضمن تحقيقًا لإحدىٰ فتاوىٰ ابن تيمية في التتار، وستجدها مُقدَّمًا لها بما يُقدَّم له عادةً في التحقيقات، من التعريف بالنسخ الخطية، وتاريخ النسخة، وطبعاتها، ومنهج التحقيق.

هذا، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه، فإنه -تعالىٰ- أكرم من سئل، وأوسع من أعطىٰ.

---

(١) هو أحد أبناء أمراء المماليك، ويعتمد أحيانًا على تاريخ اليونيني.

(٢) اعتمدت على النسخة المترجمة عن الفارسية، وتاريخه مفيد في معرفة تصوير الجانب المغولي للأحداث، وقد ناقشت موضعًا منه في القسم الثاني من هذا الكتاب.

القسم الأول

العرض والتحليل

الباب الأول

ابن تيمية ومغول إيران في عهد قازان

يُعدُّ هولاگو أو هلاوون بن تولوي بن جنكيز خان من أبرز قادة التتار الدمويين، وكان أخوه قاءان المغول الأعظم[1] الثالث مُنكو قد عيَّنَه نائبًا له علىٰ خراسان وأذربيجان، فبدأ هولاگو في التوسع غربًا، فقام باحتلال العراق سنة ٦٥٦هـ، وسقطت بيده بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ثم اتجه إلىٰ دمشق، وفي طريقه إليها احتل ديار بكر، وماردين، ونصيبين، وحران، والرها، والبيرة، ثم حماة وحمص، واحتل دمشق، ثم أراد احتلال مصر إلا أن هزيمة جيشه أمام جيش المماليك الإسلامي في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، التي وضعت حدًّا لتوسعاته، ووقوع الخلافات في الأسرة التترية الحاكمة في الصين بعد موت مُنكو، كانا سببين لتوقُّفِه عند إقامة نواة دولة في العراق وإيران، واكتمل قيام تلك الدولة (مملكة إيران) في ذريته.

بعد موت مُنكو تولىٰ المنصب شقيقه قبلاي، وبقيت إيران تابعةً له، وامتدَّ عهد قبلاي، وطالت مُدَّة حكمه، وزادت علىٰ الثلاثين عامًا، وعاصرها من عاصرها من ملوك إيران من ذرية هولاگو، وهم: آباقا بن هولاگو (٦٦٣-٦٨١هـ)، وبعد آباقا: أخوه أحمد تكودار بن هولاگو (٦٨١-٦٨٣هـ)، وبعد أحمد: ابنُ أخيه أرغون بن آباقا (٦٨٣-٦٩٠هـ)، وبعد أرغون: أخوه گيخاتو بن آباقا (٦٩٠-٦٩٤هـ)، وبعد گيخاتو: ابنُ عمه بيدوا بن ترغاي بن هولاگو (أشهر فقط من سنة ٦٩٤هـ)، وفي

(١) هو اسم لمن يخلف جنكيز خان على حكومة التتار المركزية في الصين. ومعناه في ما قيل: الخليفة. «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٧٦٢).

آخر دولة قبلاي اعتلىٰ عرش إيران الملك الشابُّ قازان[1] بن أرغون، فهو الملك السابع بين ملوك مملكة إيران.

حصل تغير مُهمٌّ في عهد قازان، وهو تغير علاقة مغول إيران بالقاءانات العظام في الصين.

يقول شمس الدين الأصفهاني واصفًا علاقة ملوك إيران بالقاءانات العِظَام في الصين، والتغير الذي حصل في زمن قازان: (ومات هولاگو ولم يَملِكْ مُلكًا مُستقلًا، وإنما كان نائبًا عن أخيه منكو قان، ولا ضرب باسمه سكة درهم ولا دينار، وإنما كان يضرب باسم أخيه منكو قان، ثم كان هكذا أبغا ومن بعده، إلىٰ أن استقلَّ أرغون بن أبغا بالملك، وأضافَ اسمَه في السكة إلىٰ اسم صاحب التخت، وكان يكون لصاحب التخت أميرٌ لا يزال مقيمًا في مملكة إيران مع هولاگو وبنيه؛ له عندهم حُرمَةٌ كبيرة، ومكانةٌ محفوظة، حتىٰ ملك محمود غازان بن أرغون فكتب اسمه بمفرده علىٰ السكة، وأسقط اسم القان صاحب التخت، وأهان أمرَ أميره، حتىٰ لم يبقَ له وضع ولا حرمة، وامتهن ذلك الجانب، واستقلَّ بالمُلك والسلطنَة في بلاده، وقال: أنا ما أخذتُ البلادَ إلا بالسيف! وقام الأمر علىٰ هذا مُدَّةَ محمود غازان ومن بعدَه)[2].

ومع ذلك؛ لم يُشكِّل هذا الخروج علىٰ الحكومة المركزية في الصين انفصالًا تامًّا، فقد ذكر بعض المؤرخين استمرار العلاقة الحسنة مع بِكِّين حتىٰ

---

(١) قال الصفدي في «أعيان العصر» (٣/ ٣٦٧): (وقازان إنما هو: غازان، بالغين المعجمة، وإنما قال ذلك المتهكم به، كما قالوا في بولاي: بوليه، وفي خداي بندا: خربندا).

(٢) نقله ابن فضل الله في «مسالك الأبصار» (المخطوطة، ص٤٠)، ونحو ما ذكره ابن فضل الله ذكره في ترجمة قازان: الصفدي في «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ١١-١٢)، وابن حجر في «الدرر الكامنة» (٤/ ٢٩٤-٢٥٠).

في عهد قازان، حيث أرسل قازان رسولين مع هدايا ثمينة إلىٰ بلاط القاءان المغولي سنة ٦٩٩هـ، وأن القاءان استقبل الرسولين برحابة صدر[١]. يقول ابن تيمية: (أعظمُ أولئك الكفار يبذلون له الطاعة والانقياد، ويحمِلُون إليه الأموال، ويُقرُّون له بالنيابة، ولا يخالفون ما يأمرهم به إلا كما يخالف الخارج عن طاعة الإمام للإمام)[٢]. والمقصود بقول ابن تيمية: (أعظمُ أولئك الكفار): أعظم التتار المشركين، وهو قاءان المغول الأعظم في الصين، والله أعلم.

استمر مُلُوك إيران من ذرية هولاكو في تبني مشروعه التوسعي، والذي اقتضىٰ عدم الرضا بهزيمة عين جالوت، واستمرار العلاقة العدائية مع دولة المماليك الإسلامية في مصر والشام، والتي تمثلت في سلسلة من الصدامات بين الطرفين، ففي عهد آباقا وقعت معركة الرستن سنة ٦٥٩هـ، ومعركة البيرة (الفرات) سنة ٦٧١هـ، ومعركة البستان (الروم) سنة ٦٧٥هـ، ومعركة حمص الأولىٰ سنة ٦٨٠هـ. وفي عهد آباقا كان -أيضًا- خرابُ حرَّان، مسقط رأس ابن تيمية، وقدوم والده به وبالأسرة إلىٰ دمشق. قال ابن الجزري: (وفي سنة سبع وستين وستمائة (٦٦٧هـ) أُخليت حَرَّان، وقدم معظم أهلها إلىٰ دمشق، ومن جملتهم الشيخ شهاب الدين، وجميع أهله وبني عمِّه، والصدر أمين الدين عبد الله بن شقير وأهله، وأولاده، وأولاد بشر، وابن علوان، وجماعة لا يمكن حصرهم، وبقي بها ضعفاء الناس، فجاء التتر بعد رحيل عسكر المسلمين، فساقوا جميع من بحرَّان إلىٰ ماردين)[٣]،

---

(١) «المغول: التركيبة الدينية والسياسية» (ص٣٣٠-٣٣٢)، و«تاريخ المغول» (ص٢٨٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٢). وهُنَا يصفُ ابنُ تيمية العلاقة بين إيران والصين في عهد خربندا شقيق قازان، وخربندا كان في علاقته بالصين امتدادًا لأخيه قازان، كما يشير إليه نصُّ شمس الدين الأصفهاني آنف الذكر حيث قال: (وقام الأمر على هذا مُدَّةَ محمود غازان ومن بعدَه).

(٣) «تاريخ ابن الجزري» (٢/ ٢١٦) في ترجمة الشيخ شرف الدين عبد الله ابن تيمية.

وقال الذهبي في ترجمة الشيخ: (وهاجر والده به وبإخوته إلىٰ الشام عند جور التتار، فسار بالليل بهم وبالكتب علىٰ عجلة لعدم الدواب، وكاد العدو أن يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهل إلىٰ الله واستغاث به؛ فنجوا وسلموا)[1].

وقد اعتنق الإسلامَ شقيقُ آباقا -الذي ولي الحكم من بعده- أحمد تكودار بن هولاكو، وسعىٰ للتقارب مع السلطان المملوكي -إذ ذاك- المنصور قلاوون، وحصلت بينهما مراسلات، إلا أن ذلك التقارب لم ينجح لانقلاب القوىٰ البوذية في الدولة علىٰ تكودار، وقتلِهِ بعد ذلك.

وستعود مملكة إيران إلىٰ الصدام مع الدولة الإسلامية المملوكية في عهد قازان -رغم انتسابه للإسلام-، لتشهد حقبة حكمه ثلاث حملات عسكرية علىٰ بلاد الشام.

---

(١) «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» ضمن «تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص٣٨)، ونقله عنه ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٥).

الفصل الأول

مُقدِّمَات تجدُّد الصراع مع مملكة إيران

أولًا

قصة الأمير نوروز الشهيد

(المشروع الإصلاحي الموؤود في مملكة إيران)

يعدُّ الأمير نوروز بن أرغون آغا، أحد أمراء التتار المسلمين، من أهم الشخصيات في هذه المرحلة من العصر المغولي. يصفُه الذهبي بأنه كان (ديِّنًا، مُسلمًا، عاليَ الهمَّة)[1].

كان الأمير نوروز أميرًا قويًّا نافذًا في الدولة، وهو ابن لرجل من أمراء البلاط في عهد هولاگو وابنه آباقا، كما أنه زوج لابنة آباقا، وبدا أن نوروز يحمل مشروعًا لإقامة الإسلام في مملكة إيران.

بدأ نوروز ذلك المشروع بالاستفادة من نزاع داخلي جرىٰ بين أميرين من البيت التتري المنحدر من سلالة هولاگو، هما قازان وابن عمِّه بيدوا، فقام بدعم قازان مُشترطًا عليه الدخولَ في الإسلام لنُصرته في قتاله لبيدوا، واستجاب قازان لشرط نوروز، وحصل النصر، وأُعدم بيدوا، ووصل قازان إلىٰ عرش مملكة إيران، وذلك سنة ٦٩٤هـ[2].

استعان الأمير نوروز بالشيخ صدر الدين ابن حمويه في إدخال قازان في الإسلام، وصدرُ الدين ينتمي لمدرسة صوفية لها نفوذ في إيران في ذلك العصر[3].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٨٤٧). وترجمته أيضًا في «أعيان العصر» (٥/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٢) «المغول: التركيبة الدينية والسياسية» (ص٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٨).

(٣) يُنظَر في حال هذه المدرسة الصوفية رسالة شيخ الإسلام في الرد على بعض أتباع سعد الدين=

يقول الذهبي في ترجمة الصدر ابن حمويه: (قدم علينا -إلىٰ دمشق- بعدما أسلم علىٰ يده غازان ملك التتار بواسطة نائبه نوروز، فسمع معنا من أبي حفص بن القواس وطائفة، ... وكان تامَّ الشكل، مليحًا، مَهيبًا، خيِّرًا، مَليح الكتابة، حسنَ الفهم، مُعظَّمًا بين الصوفية إلىٰ الغاية لمكان والده الشيخ سعد الدين بن حمويه)[1].

وعندما قدِم الصدر ابن حَمَويه إلىٰ دمشق -وكان ذلك بعد رجوعه من الحَجِّ- حدَّثَ بخبر إسلام قازان علىٰ يديه، وبأوصاف الأمير نوروز، وأوصاف قازان أيضًا، ووثَّقَ ذلك عنهُ مُؤرِّخُ الشام الإمامُ علمُ الدين البرزالي، ونقل هذا التوثيق عنه بالتفصيل المؤرِّخ شمس الدين ابن الجزري في (تاريخه)[2].

يقول الشيخ صدر الدين ابن حَمَويه: (كان قد أسلم قبل قازان جماعةٌ من أمراء المغل، وكان وزيره النوروز مُسلمًا يحفظ كثيرًا من التَّواريخ، والزُّهديات، والأذكار، والحكايات، وغيره، وهو رجلٌ تركيٌّ يعرِف بالفارسية، وهو زوج عمَّة قازان، وكانوا حريصين علىٰ إسلام الملك، وقد تكلموا بذلك في الجيش.

وكان الخُلفُ واقعًا بين قازان وبيدوا، واتفق خروجي للحج من بلدنا، ولم يكن لي عزم علىٰ الاجتماع بأحد منهما، فألجأتِ الضرورة إلىٰ المسير مع جيش

=ابن حمويه في «جامع المسائل» (٤/ ٣٨٧-٤٢٥)، والصدر ابن حمويه مُعظَّم لدى شيوخ التتار، ومُعظِّم لهم، أما تعظيمهم له فقد ذكر رشيد الدين الهمذاني في «تاريخه» (ص١٢٣) إسلام قازان على يد الصدر ابن حمويه، وعظَّم الصدر ووالده، وأما تعظيمه لهم فقد تلقى الصدر عن النصير الطوسي، وروى عنه ثلاث روايات في كتابه «فرائد السمطين»، قال في سند الرواية (٣٩٦): (أنبأني الحكيم العلامة نصير الدين الطوسي تغمَّدَه الله برحمته...)، وانظر «الطوسي حياته وآثاره» (ص٢٠٦-٢٠٨).

(١) «معجم الشيوخ» (ص١٢٥).

(٢) أما في تاريخ البرزالي المطبوع فذُكرت الحادثة مختصرة فيه. انظر «المُقتفي على الروضتين» (٢/ ٤١٥).

قازان خوفًا من تخبُّط الوقت، وكان ذلك في رجب، فاجتمعت بالنوروز، فتحدَّث معي، وقال: أريد الحجَّ معك سواء أذن المَلِك أم لا، وجعل يُثبِّطني عن السفر، ويقول: اصبر قليلًا.

ثم تحدَّث معي في إسلام الملك، وقال: قد تحدَّثَ بهذا، ولستُ علىٰ يقين منه، ولعل الله يسَّرَه بحضورك، فتمهَّلْ في السفر.

وكانت قلوب الناس وجلةً خوفًا من أنه يرجع عن هذا الخاطر، فيكون ترك التحدث بهذا أولىٰ من ذكره، ثم لا يقع.

فلما كان يوم الجمعة الثاني من شهر شعبان المكرم، وكان ذلك بمرعىٰ يسمىٰ لارمن من عمل الريِّ، طلبني النوروز، وقال: قد وعد اليوم فاجلس عندي، فجلستُ إلىٰ وقت الجمعة، فلم يحضُرِ الملك، فنزلنا من القصر الذي كُنَّا فيه، وصَلَّينا الظهر في الصحراء، ورأيتُ جماعةً كبيرةً من المغُل بأيديهم السُّبَح، وهم يصلون، ويكثرون التنفل، ثم رجعنا من الصلاة، ومضينا للغداء، فنحن نأكل، وقيل: قد حضر الملك، ومضىٰ إلىٰ الحمام، فأرسلت إليه قميصًا، فلبسه، ولبس الصوف، وخرج إلىٰ القصر، فدخلنا عليه وهو قائم، واجتمع الناس من كل جهة، والجيش، والخواتين، وكان أمرًا عظيمًا، فوقفت إلىٰ جانبه، والنوروز أيضًا، وكان معي هيكل فيه من أذكار الشيخ[1]، وكلامِه، وجمعِه، فنظر إليه، وسأل عنه، فذكر له النوروز ما هو، وأخبره بوالدي، وحكىٰ له من كراماته وأخباره، وأخرجت أنا الهيكل ودفعتُه إليه، فنظر فيه، ثم أعطانيه، فجعلته في غِمده، ودفعته إليه، فأخذه وتقلد به من جهة اليمين، فأشرت إليه أن يجعله علىٰ العادة من جهة اليسار؛ ففعل،

---

(١) يعني والِدَه الشيخ سعد الدين ابن حمويه، والصدر ولد في آخر حياته، ومات أبوه وهو طفل.

وظهر عليه حياءٌ وخجَل، وهو شابٌّ لم يبلغ الثلاثين، وفي لونه شقرة، وخرج من الحمام، وحصل له الخجل، فاشتدَّت حمرة وجهه.

ثم إن النوروز تحدَّث معه في الإسلام، وقال: الملك أوعد بذلك، وهذا وقته، فقد حضر فلان ولد الشيخ، فنظر إلي، وقال: كيف أقول؟ فقلتُ -ورفعت إصبعين-: أشهد أن لا إله إلا الله، فتلَفَّظ بها، ثم قلتُ: أشهد أن محمدًا رسول الله، فتكلم مع النوروز بالتركية، وقال: أشهد مرة أخرىٰ؟ فقال: نعم. فتلفَّظ بها.

فلما فرغ تقرَّب العالم والخلايق من مجلسه، ولم يمكن منع أحد، ونثر عليه الذهب والفضة واللؤلؤ، وجعل الناس يلتقطونه، ويُقبِّلُون يدَ الملك ورجلَيه، ويتبرَّكُون به، ويُزعجون بالأصوات، واشتدَّ الفرح، ولا يمكن منع أحد، ولم يتحاشَ أحد من قربه من الملك، فارتفع هو علىٰ كرسي، وبقي الناس بجنبه، يفعلون ما يفعلون، وهو يضحك كثيرًا، وكان يومًا ما أعلم له نظيرًا.

وسافرت أنا من هناك يوم الثلاثاء سادس شعبان، ودخلت بغداد في عاشر شوال، وفي الطريق إلىٰ بغداد اجتمعت أيضًا ببيدوا الملك، وكان أمرُه مُتماسِكًا، وعسكره وافرًا، وأقمت ببغداد عشرة أيام، وخرجت منها في العشرين من شوال، وحصل الحج بحمد الله.

وبلغني بعد ذلك ممَّن صدَّقتُه: أنَّه يتعلَّمُ شرائع الإسلام والصلوات، وأنَّه صامَ، وأن النوروز يُبكر إليه كلَّ يوم ليُعلِّمَه، وكان فيه استعدادٌ لهذا الأمر، فإنه كان كثيرَ الحِلْمِ والصَّفحِ، له طباعٌ جيِّدة، كانت مدينة نيسابور قد عصىٰ أهلها عليه مدة أربع سنين، ثم إنه ظفر بهم، فأمر ألَّا يُقتل أحدٌ، ولا يُسبىٰ، فدخل الناس، وعاث بعضهم، فوصل إليه الخبر، فركب من ساعته منفردًا وحده، ودخل البلد إلىٰ باب الجامع فرأىٰ أميرًا كبيرًا، ومعه امرأة تبكي، فقال له: ما هذا؟ فكأنه قال:

هذه من نصيبي من الكسب، فأخرج السيف وضرب عنقه، وأمر المرأة بالدخول إلىٰ الجامع، فخاف الناس ورجعوا)[1].

وهنا أمران:

الأمر الأول: بعيدًا عن التحليلات التي تبحث في الدافع السياسي لقازان للدخول في الإسلام[2]؛ فإن هذه الرواية المهمَّة تدل علىٰ أنَّ قبول قازان للدخول في الإسلام جرىٰ بعفوية منه، وبترتيب وحرص الأمير نوروز، وتلطُّفه، وحسن تأتِّيه، وانتظارِه اللحظةَ المناسبة لهذا الأمر، مع خشيته أن يعدل قازان عن وعده بالإسلام.

الأمر الثاني: نُظِر إلىٰ أثر هذا التحوُّل في الوسط المملوكي -بعد حملات قازان العسكرية علىٰ بلاد الشام- من أكثر من جهة؛ فبينما نجد إسلامه قد أثار إشكالًا فقهيًّا يحتاج إلىٰ حلٍّ، لكونه قد يكون سببًا في الإمساك عن دفع التتار، ووجه هذا الإشكال: كيف يُقاتَل قازان وجنوده مع دخولهم في الإسلام؟ نجد أيضًا من ينظر إلىٰ أثر إيجابي لإسلام قازان، ويُمثِّل ذلك قول الذهبي بعد أن أورد حكاية إسلامه: (ولولا هذا القدر الذي حصل لقازان من الإسلام، وإلا كان قد استباح الشام لمَّا غَلَب عليه، فلله الحمدُ والمنَّة)[3].

---

(١) «تاريخ ابن الجزري» (١/ ٢٥٤-٢٥٦).

(٢) كما في التحليل الذي قدمته المستشرقة الألمانية دوروتيا كرافولسكي في مقالها «السلطة والشرعية: دراسة في المأزق المغولي» منشور ضمن كتاب «العرب وإيران» (ص١٩١-١٩٨)، وخلاصته أن قازان إنما دخل في الإسلام لينقذ الدولة من انهيار وشيك، وليحظى بتأييد داخلي ومشروعية لدى رعاياه من المسلمين، وقدمت شيرين بياني في كتابها «المغول: التركيبة الدينية والسياسية» (ص٣١٢) تحليلًا آخر يرجع إلى الصراع السلطوي في الداخل المغولي، تقول: (وهكذا يتضح لنا بأن غازان اعتنق الإسلام بدافع كسب الحرب ضد بايدو واعتلاء العرش الإيلخاني).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٦٩١).

ذكر المؤرخون أرقامًا كبيرة لأعداد المغول الذين اعتنقوا الإسلام علىٰ إثر إسلام قازان، بلغت مائة ألف[1]. يقول وزير قازان رشيد الدولة الهمذاني: (وقد بشر الله تعالىٰ نبيَّه محمدًا ﷺ بتكثير أمته، ونشره دعوته، وإظهار ملته، فقال في كتابه الكريم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١ - ٢]، ورأينا بحمد الله تعالىٰ آثار ذلك في زماننا هذا أنه لما نوَّر الله تعالىٰ قلبَ سلطان الإسلام بالإيمان، وشرح صدره للإسلام، أسلم من الترك الذين كانوا كفارًا في يوم واحد مرافقةً له خلق كثير، يزيد عددهم علىٰ بني إسرائيل أضعافًا كثيرة...)[2].

ويصفُ ابن تيمية حال التتار في تلك الحقبة بأنهم: كانوا (شارعين في الدخول في الإسلام، مبتدئين في الإيمان والأمان)[3].

وبعد أن نجح الأمير نوروز في إدخال قازان في الإسلام، بدأ في السعي إلىٰ نشرِ الإسلام، وإقامةِ شرائِعِه في مملكة إيران، فقام بتخريب الكنائس، ومعابِد البُوذيين، وكان الشيخ زين الدين عبد الرحمن ابن تيمية -شقيقُ شيخ الإسلام- أحدَ الشهود علىٰ ذلك، إذ كان يعمل بالتجارة، وكان إذ ذاك مُسافرًا من دمشق إلىٰ إيران بهذا القصد، فقُدِّر له أن يشهد ما قام به نوروز ويشارك فيه، وبعد أن رجع إلىٰ دمشق حدَّث بما شاهده، ودوَّن البرزالي تلك الشهادة. يقول البرزالي: (ولما حضر زين الدين عبد الرحمن أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية سألتُ عن إسلامه، فذكر أنه رآه بتبريز في ذي القعدة، ورأىٰ النوروز أيضًا، وشاهد تخريب الكنايس، وخرَّب بيده في بعضها)[4].

---

(١) «تاريخ المغول» (ص٢٦٤).
(٢) «كتاب التوضيحات» ضمن «المجموعة الرشيدية» (مخطوطة، ص١١١ - أ).
(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣١-٤٣٢).
(٤) «تاريخ ابن الجزري» (١/ ٢٥٦).

ويذكر شيخ الإسلام ما قام به نوروز من تخريب الكنائس، وإقامة الدين، بالإشادة والترحيب، فيقول: (الأمير نوروز، المجاهد في سبيل الله، الشهيد، الذي دعا ملك المغل غازان إلىٰ الإسلام، والتزم له أن ينصره إذا أسلم، وقتل المشركين الذين لم يسلموا من البخشية السحرة وغيرهم، وهدم البذخانات، وكَسَر الأصنام، ومزَّق سدنتها كل ممزق، وألزم اليهود والنصارىٰ الجزيةَ والصغار، وبسببه ظهر الإسلام في المغل وأتباعهم)[١]. ويقول: (وإنما كان المُلتَزِمُ لشرائع الإسلام الشهيد نيروز، وهو الذي أظهر من شرائع الإسلام ما استفاض عند الناس)[٢]. ويقول: (وكان نوروز -رحمه الله- قد شرط علىٰ أهل الذمة الشروط، ووضع الجزية، وكان ذلك أعظم المصائب عليهم، ومع هذا لم يدخل علىٰ المسلمين بذلك إلا كل خير)[٣].

هدف مشروع الأمير نوروز، الذي حظي بثناء وإعجاب الشيخ، وبمُساهمة شقيقه عبد الرحمن العمليَّة فيه، إلىٰ غايتين رئيستين من شأنهما أن تُحدثا إصلاحًا عظيمًا في مملكة إيران:

الأولىٰ: إقامة شرائع الإسلام في مغول إيران، وبدأ ذلك بما تقدَّم بيانه من نجاحه في إدخال ملك التتار قازان في الإسلام، ثم بقيامه بتخريب كنائس البوذيين ومعابدهم، وإلزام أهل الذمة الشروطَ العمرية.

أما الغاية الثانية: فهي تحسين العلاقة مع الدولة الإسلامية المملوكية القائمة في مصر والشام.

---

(١) «منهاج السنة» (٣/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٢) انظر الملحق.

(٣) «مسألة في الكنائس» (ص١٢٥).

تقدَّم وصفُ ابن تيمية للتتار بأنهم كانوا: (شارعين في الدخول في الإسلام، مبتدئين في الإيمان والأمان)[1]، وكأن هذه العبارة تصف غايتَي مشروع نوروز الإصلاحي: الغاية الأولىٰ: الإيمان (وهو الإصلاح الداخلي)، والثانية: الأمان (وهو الصلح مع الدولة الإسلامية المملوكية).

إلا أن هذا المشروع لم يُكتَبْ لهُ الاستمرارُ، والوصولُ به إلىٰ نهاياته، إذ كانت تهمة اتصالات الأميرِ نوروز رحمه الله مع سلطان المماليك حسام الدين لاجين سببًا في تصفيته، ولما شعر نوروز بالخطر لجأ إلىٰ ملك هراة، فأرسل قازان القائدَ المغوليَّ الكافرَ قطلوشاه بجيش ضخم للقبض علىٰ نوروز، وما لبث ملك هراة أن استسلم وسلَّم نوروز لقطلوشاه، الذي احتزَّ رأسه، وأرسله إلىٰ قازان سنة ٦٩٦هـ، وطال القتل أيضًا إخوة نوروز وأبناءه[2].

شَكَّلَت تلك النهاية المفجعة لنوروز -حامل راية الإصلاح في مملكة إيران- وأدًا لمشروع الإصلاح الداخلي الذي تطلعت له الأنظار، وإيذانًا ببدء فصل جديدٍ من فصول الصراع مع الدولة المملوكية في الشام ومصر.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢٧/ ٤١٠)، و«زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» (ص٣١٨-٣١٩)، و«المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٣٧).

ثانيًا

مغول إيران: الخارجون عن شرائع الإسلام

بعد إعدام نوروز استبَدَّ بقيادة الدولة ثلة من أهل الضلال، والطمع، وعداوة المسلمين، وسنعرِّفُ بخمسةٍ منهم، هم: قطلوشاه، وبولاي، ورشيد الدولة الهمذاني، والأصيل الطوسي، وسعد الدين الساوجي.

أما القائد العسكري الكافر قطلوشاه -الذي قتل نوروز، ثم خلَفَه في منصبه- فهو ينحدرُ من ذُرية جنكيز خان، وقد ذُكِر من اعتقاده أنَّه مُؤمنٌ بأنَّ الله عز وجل ختمَ الرسالة بمحمد ﷺ، إلا أنَّ من اعتقادِه أنَّ جدَّه جنكيز خان كان مُسلمًا، وأن كلَّ من خرج من ذريته كانوا مُسلمين، ومن خرج من طاعته وطاعة ذريته فهو خارجي[1]، وهذا يلتقي مع قول الشيخ: (وهم يقاتلون علىٰ ملك جنكسخان، فمن دخل في طاعتهم جعلوه وليًّا لهم وإن كان كافرًا، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوًّا لهم، وإن كان من خيار المسلمين، ولا يقاتلون علىٰ الإسلام)[2].

كان التعظيم لجنكيز خان اعتقادًا راسخًا في قادة إيران، لم تغيِّره دعوىٰ الانتساب إلىٰ الإسلام، وإنما سعوا إلىٰ الجمع بين دين الإسلام وبينه، وواقع الحال أن (المسلك الذي هم عليه، ودين الإسلام لا يجتمعان أبدًا)، كما يقول الشيخ[3]، وقد دل كلام قطلوشاه علىٰ مبلغِ السَّفَه والقِحَة لدىٰ التتار في محاولة

---

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٣٠٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠-٥٢١).

(٣) انظر الملحق، وقد كرر الشيخ هذه العبارة في فتاويه بشأن التتار. انظر «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥٢)، و«جامع المسائل» (٧/ ٤٣٧).

الجمع بين دين الإسلام، وتعظيم جدِّهم المشرك جنكيز خان، وفوقه في السَّفَه والقِحَة قول قازان لمَّا قدم الشام: (هذان آيتان عظيمتان جاءا من عند الله: محمد، وجنكسخان)[1]، وقد امتلأت الفرمانات التي أصدرها قازان بتعظيم جنكيز خان[2].

وأما القائد العسكري بولاي[3] فقد كان مُتأثِّرًا بالدعاية الرافضية، وإن كان قد ذكر أنَّ أصلَه مُسلمٌ من خراسان[4].

وأما رشيد الدولة الهمذاني الذي برز في الساحة السياسية بعد مقتل نوروز، وتقلَّد منصب الوزارة في مملكة إيران، فقد كان من أخطر الشخصيات في تلك الحقبة، إذ كان يهوديًّا، ثم انتسب إلىٰ الإسلام، إلا أنَّ علماء المسلمين يصفونه بالإلحاد والنفاق، قال ابن تيمية في وصفه: (كان يهوديًّا مُتفلسفًا، ثم انتسب إلىٰ الإسلام مع ما فيه من اليهودية والتفلسف، وضمَّ إلىٰ ذلك الرفض)[5]، ويقول في وصفه: (الخبيث، الملحد، المنافق، صنَّف مُصنَّفًا مضمُونُه أنَّ النبي ﷺ رضي بدين اليهود والنصارىٰ، وأنَّه لا يُنكَر عليهم، ولا يُذمُّون، ولا يُنهَون عن دينهم، ولا يُؤمَرون بالانتقال إلىٰ الإسلام)[6]، وقال -وهو يقصده-: (وكذلك الأكابر

---

(١) ذكر ابن تيمية في إحدى فتاويه في التتار -«مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢١)- أن هذه الكلمة قالها أكبر مقدمي التتار لما قدم دمشق، والمقصود بذلك قازان، والله أعلم.

(٢) انظر الفرمانات التي أصدرها في دولته، وأثبتها وزيره رشيد الدولة في «جامع التواريخ» (ص٣٤٠-٣٤١)، والفرمان الذي قُرِئ في الشَّام وأثبته بيبرس الداودار في «زبدة الفكرة» (ص٣٣٧-٣٣٨).

(٣) ترجم الصفدي لبولاي في «أعيان العصر» (٢/ ٧٠-٧١).

(٤) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٣٠٠)، وسيأتي نصُّ محاورته مع ابن تيمية التي تدلُّ على تأثره بالدعاية الرافضية.

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٤).

(٦) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٦).

من وزرائهم وغيرهم يجعلون دين الإسلام كدين اليهود والنصارىٰ، وأن هذه كلها طرق إلىٰ الله بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين)[1]، وقال: (وزيرُهم السفيه، المُلقَّب بالرشيد، يُقدِّم شرار المسلمين كالرافضة والملاحدة علىٰ خيار المسلمين أهل العلم والإيمان)[2]، وقال البرزالي: (وكان الرشيد عدوًّا للإسلام، تَستَّر بالإسلام، وكان مُلحدًا، ولمَّا قدم علينا تاج الدين الأفضلي التبريزي حاجًّا إلىٰ دمشق في رمضان من هذه السنة (٧١٨هـ) زرناه فذكر قتلَ الرشيد، والنداءَ عليه، وقال: قتلُه أعظم من قتل مائة ألف من النصارىٰ؛ فإنه كان يكيد للإسلام)[3].

من مُرَافِقي رشيد الدولة: الأصيلُ، نجلُ النصير الطوسي[4]، الذي كان مُستشارًا مُؤتمنًا لرشيد الدولة في الحقبة التي صحِبَه فيها، وكان مُقرَّبًا من قازان، يقول ابن تيمية في إشارة إلىٰ تقريب التتار للأصيل الطوسي مع ما هو عليه من ضلال في الاعتقاد: (التتار يجعلون القرامطة الملاحدة الباطنية الزنادقة المنافقين؛ كالطوسي وأمثاله، هم الحكام علىٰ جميع من انتسب إلىٰ علمٍ أو دين من المسلمين واليهود والنصارىٰ)[5].

وأما الوزير محمد بن علي العجمي، المعروف بسعد الدين الساوجي، فقد كان داعمًا للرَّفض، وهو من أسباب تبنِّي خربندا شقيق قازان الذي خلفه في المُلك

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٣).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٥).
(٣) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٣١٨). ومقتل رشيد الدولة كان في عهد أبي سعيد كما سيأتي.
(٤) انظر ترجمة الأصيل الطوسي في «المقتفي على الروضتين» (٤/ ١٨٤)، و«النصير الطوسي حياته وآثاره» (ص٥٧-٦٠).
(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٥).

للمذهب الرافضي[1]، وهو موصوفٌ أيضًا بأنه كان جَبَّارًا ظالمًا[2].

كان استشهاد نوروز، وإحاطة هذه الثلة من أهل الضلال والطمع والعداوة للمسلمين بقازان، سببًا في إضاعة فرصة الإصلاح الداخلي في مملكة إيران، وكان أيضًا مُقدِّمةً شَرطيَّةً للصدام مع الدولة الإسلامية المملوكية، حيث لم يكن قازان ليُقدِم علىٰ تلك الخطوة لولا وجود هذا الصنف من الوزراء والمُعاونين في مُحيطه، ولذا نجدُ أنَّ جميع هؤلاء كانوا في مقدمة الحملات العسكرية التي قادها قازان علىٰ بلاد الشام.

لم تكن تلك الحملات لتحصل -أيضًا- لولا فساد قازان في نفسه، فقد أشارت بعض المصادر التاريخية إلىٰ أن إسلام قازان كان ضعيفًا يتزعزع إذا عارضَهُ ما يهواه؛ قال العز الإربلي الطبيب ما معناه: (إن غازان لما ملك استضاف نساء أبيه إلىٰ نسائه علىٰ (ياسا) المغول في ذلك، وكان مغرًىٰ بحب بلغان خاتون دون نسائه، وهي أكبر نساء أبيه، فلما أسلم قيل له: إن الإسلام يفرق بينك وبينها، لأنه لا يجوز في دين الإسلام أن ينكح الرجل ما نكح آباؤه من النساء، فهمَّ بالردة، إلىٰ أن أفتاه بعضُ العلماء بأن أرغون أباه كان كافرًا، وكانت بلغان خاتون معه سفاحًا والحرامُ غير محرم، فيجوز لك أن تنكِحها، فسُرَّ بذلك، وعقدَ نكاحَهُ عليها، وثبت علىٰ الإسلام، ولولا ذلك لارتدَّ)[3].

وبعد استشهاد نوروز رحمه الله، لم يلتزم قازان وشقيقُه خربندا من بعده بإقامة شعائر الإسلام وشرائعه في مملكة إيران.

---

(١) «المغول: التركيبة الدينية والسياسية» (ص٣٤٥).

(٢) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ٦٠٤).

(٣) نقله الصفدي في «أعيان العصر» (٤/ ٩).

ومن أوجه خروج مغول إيران عن شرائع الإسلام:

١- عدم التزامهم تحريمَ دماء المسلمين وأموالهم، إلا أن ينهاهم ملكهم عن تركها، يقول الشيخ: (عامتهم لا يحرمون دماء المسلمين وأموالهم، إلا أن ينهاهم عنها سلطانهم، أي لا يلتزمون تركها، وإذا نهاهم عنها أو عن غيرها أطاعوه لكونه سلطانًا لا لمجرد الدين)[(١)].

٢- عدم التزامهم تحريمَ المحرمات التي لا عذر لأحدٍ في جحود تحريمها، كالخمر، أو الزنا، أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم[(٢)].

وقد ذكر رشيد الدولة أن قازان قام بمنع السُّكر في الأماكن العامة، وجعل عقوبة من قُبض عليه وهو يشرب الخمر في الأماكن العامة أن يُعرَّىٰ، ويربط بشجرة، فيمر عليه الناس، ولم يمنع الخمر مطلقًا، بحجة عدم إمكانية ذلك[(٣)].

أما نكاح ذوات المحارم فقد تقدَّم خبر نكاح قازان لزوجة أبيه، وأيضًا: ذكر الشيخ أن خربندا شقيق قازان تزوج بابنة أخيه، وقال: (ومثل هذا يوجِبُ قتلَ مُستحِلِّهِ باتفاق الأئمة)[(٤)].

٣- عدم التزامهم إقامة الفرائض التي لا يعذر أحدٌ بجحد وجوبها:

* فهم لا يلتزمون حج بيت الله، والغالب عليهم عدم التزام إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفي ذلك يقول الشيخ: (هم في بلادهم مع تمكُّنِهم لا يحجُّون البيت

---

(١) انظر الملحق.

(٢) انظر الملحق، و«الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٠).

(٣) انظر فرمان قازان بشأن الخمر في «جامع التواريخ» (ص٣٦٣).

(٤) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

العتيق، وإن كان فيهم من يُصلِّي ويصُوم فليس الغالب عليهم إقام الصلاة، ولا إيتاء الزكاة)[1].

* وهم يقاتلون علىٰ ملكهم وطاعتهم، ولا يلتزمون قتال الكفار، ولا يوجبون الجزية، وفي ذلك يقول الشيخ: (فإنهم لا يُوجبون الإسلام، ولا يُقاتلون من تركه، بل كل من قاتل علىٰ دولة المغول عَظَّمُوه، وأقرُّوه، وإن كان كافرًا عدوًّا لله ورسوله، وكل من خرج عن دولة المغول أو عليها استحلوا قتاله، وإن كان من خيار المسلمين، فلا يجاهدون الكفار، ولا يُلزِمون أهل الكتاب الجزيةَ والصغار، ولا يَنهون أحدًا من عسكرهم أن يعبد ما شاء من شمسٍ أو قمرٍ أو غير ذلك)[2]. وقد تقدم قول قطلوشاه: إن كل من خرج عن طاعة جنكيز خان وذريته فهو خارجي.

* وهم يحكمون بالياسا وبحكم الجاهلية، ولا يلتزمون الحكم بما أنزل الله، وفي ذلك يقول الشيخ: (الحُكمَ فيما شجر بين أكابرهم بحكم الجاهلية، لا بحكم الله ورسوله ﷺ)[3]، ويقول: (لا يلتزمُون الحكم بينهم بحكم الكتاب والسنة؛ بل يحكمون بأوضاعٍ لهم تُوافق الإسلام تارةً، وتُخالفه أخرىٰ)[4]، ويقول في موجبات قتالهم: (إن امتنعوا عن الحكم في الدماء، والأموال، والأعراض، والأبضاع، ونحوها بحُكم الكتاب والسنة)[5]، ويقول في موجبات قتالهم -أيضًا-: (ولو

(١) « الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠)، وانظر في نفس المعنى «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

(٢) انظر الملحق، وانظر في المعنى نفسه «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٠-٥١١، ٥٢٠-٥٢١)، و«جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩)، و«الفروع» لابن مفلح (١٠/ ٣١٦-٣١٧).

(٣) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٣).

(٤) انظر الملحق.

(٥) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٠).

قالوا: يُحْكَم بيننا بـ(الياساق)، ولا يحكم بيننا الله ورسوله ﷺ، قوتِلُوا علىٰ ذلك)[١]، ويقول: (وقد أجمع المسلمون علىٰ وجوب قتال الخوارج والروافض ونحوهم إذا فارقُوا جماعة المسلمين كما قاتلهم علي رضي الله عنه، فكيف إذا ضموا إلىٰ ذلك من أحكام المشركين [كياسا جنكسخان][٢] مَلِك المشركين: ما هو من أعظم المضادة لدين الإسلام؟)[٣].

والياسا أو الياسق: (هو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسه ملك التتار جنكيز خان عن شرائع شتىٰ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا مُتَّبعًا، يقدمونها علىٰ الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ) كما يقول ابن كثير، ثم يقول: (ومن فعل ذلك منهم فهو كافر، يجبُ قتالُه، حتىٰ يرجع إلىٰ حكم الله ورسوله ﷺ، فلا يحكم سواه في قليلٍ ولا كثير)[٤].

وذكر مؤرخو المماليك والتتار عمل قازان بالياسا بعد انتسابه للإسلام، حيث يقول الصفدي في ترجمة قازان: (ويَفهمُ -أي قازان- أكثر ما يقال قُدَّامَه بالعربي، ولا يُظهِر أنَّه يفهمه تعاظُمًا، لأجل (ياسا) جنكزخان الخالصة، ولما مَلَك أخذَ نفسه بطريق جنكزخان، وأقام (الياسا) المغولية)[٥]، ولما ذكر رشيد الدولة في

---

(١) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

(٢) في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٠)، و«الفتاوى الكبرى» (٣/ ٥٤٨): (كنائسًا وجنكسخان)، وهي على هذا الوجه غير مفهومة، وقد قرأها على الوجه المثبت أعلاه يحيى ميشوت. انظر مقال دونيز ايجل (الاجتياحات المغولية لبلاد الشام بقيادة غازان خان وفتاوى ابن تيمية الثلاثة المناهضة) في مجلة الدراسات المملوكية الصادرة عن جامعة شيكاغو باللغة الإنجليزية، العدد (١١/ ٢) (ص٩٥).

(٣) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٠).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٣١).

(٥) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ٩).

«جامع التواريخ»[1] المحاكمات التي أجراها قازان لأمراء المغول المنهزمين بعد واقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ؛ ذكر أنها تمت وفقًا للياسا، ونفذت بناء عليها أحكام الإعدام في عدد من الأمراء.

٤- إظهارهم مذهب الرافضة، وحصل ذلك في عهد خربندا، وسيأتي كلام الشيخ في ذلك في موضعه.

---

(١) (ص١٨٦).

ثالثًا

الأرمن: أخبث عدوٍّ للإسلام

أدىٰ بروز المغول علىٰ مسرح الأحداث كقوة عسكرية وسياسية إلىٰ تحولات جذرية في تاريخ شعوب وسكان آسيا الصغرىٰ والمشرق الإسلامي، وقد وضع الأرمن أنفسهم في خدمة المغول، ووجدوا فيهم القوة الوحيدة التي بإمكانها الوقوف ضد المسلمين، غير أن المغول استغلوا ملوك أرمينيا الصغرىٰ ليجعلوا من أولئك النصارىٰ أتباعًا لهم دون خوض حرب معهم، وليكونوا عيونًا ومساعدين لهم في المناطق التي خضعت لهم.

تقع مملكة أرمينيا الصغرىٰ والتي عرفت في كتب التاريخ باسم (بلاد سيس) شمال غرب حلب، يقول البرزالي في وصفها: (وبلاد الأرمن الكبار خمسة: آياس، وسيس، والمصيصة، وأذنة، وطرسوس، ومملكة الأرمن صغيرة مسيرة أربعة أيام طولًا، في أربعة عرضًا بالتقريب، وهي قلاع كثيرة، أكثر من مائتي قلعة)[1]، وقد شارك الأرمن مغولَ إيران في حملاتهم علىٰ ديار الإسلام، فكان هيثوم الأول مع هولاكو في احتلال بغداد ودمشق، وبينما اشتهر مغول إيران بوحشيتهم فيما احتلوه من ديار الإسلام، كما جرىٰ في بغداد ودمشق وغيرها، فإن الأرمن اشتهروا بالتصرفات الدالة علىٰ الحقد الديني علىٰ المسلمين، والتي تمثلت في تحريق مساجدهم، ورش الخمور علىٰ أبوابها، وإجبار المسلمين علىٰ القيام للصليب، وقد واصل الأرمن سياسة التعلق بأهداب مملكة إيران، رغم انكسار التتار في عين جالوت، أملًا في أن يستعيد المغول قوتهم، ويسمحوا لهم ببعث مملكة بيت

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٤٣٢).

المقدس، ولذلك كانوا من أسباب حث قازان علىٰ حملاته العسكرية علىٰ بلاد الشام، وانتقموا من المسلمين في صالحية دمشق في حقبة الاحتلال بما استطاعوا -كما سيأتي ذكره-.

يقول ابن فضل الله: (ولملوك البيت الهولاگوهي علىٰ الأرمن حكمٌ قاهر، وفيهم أمرٌ نافذ،... **وهم أخبث عدو للإسلام**، وأثرهم بالصالحية باقٍ، ولو مُكِّنُوا من دمشق لمحوا آثارها، وأنسوا أخبارها)[1].

قام المماليك في عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، بعدَّة حملات عسكرية ضد الأرمن، وكانت حربهم لهم أكثر صعوبة وأطول مدة من الحرب التي خاضوها ضد الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين، ورغم هزيمة مملكة أرمينيا الصغرىٰ عسكريًّا أمام تلك الحملات، فإنها لم تُهزم تجاريًّا؛ ما أعطاها نفسًا طويلًا، في صراعها مع المماليك.

وفي عهد السلطان حسام الدين لاجين استؤنفت الحملات ضد الأرمن، بدءًا من منتصف سنة ٦٩٧هـ، ويذكر البرزالي في (تاريخه) خبرَ تحريض الشيخ علىٰ دعم تلك الحملات، وذلك في ميعاد تفسيرٍ عقَدَهُ في الجامع الأموي يوم الجمعة ١٧/ ١٠/ ٦٩٧ هـ، (وذكر فيه فصلًا في الجهاد، وحرَّض علىٰ إمداد المُحاصِرين بسيس)[2]، وقد فُتح في تلك الحملات عددٌ من قلاع الأرمن الكثيرة[3]، غير أن ملك حماة الملك المؤيد -الذي كان مشاركًا في تلك الحملة- انتقد قيام حسام الدين لاجين بإعمار بلادهم بعد سيطرته عليها: (وَأَمرَ حسام الدين لاجين الملقب

---

(١) «التعريف بالمصطلح الشريف» (ص٥٦).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٢/ ٥٥٤).

(٣) انظر في خبر الحملة المملوكية على بلاد سيس «نهاية الأرب» (٣١/ ٣٣٧-٣٤٤).

بالملك المنصور باستمرار عمارة هذه البلاد، وكان ذاك رأيًا فاسدًا، علىٰ ما سيظهر من عود هذه البلاد إلىٰ الأرمن، عند دخول قازان البلاد)[1].

في المرحلة الثانية من تولي هيثوم الثاني بن ليفون المُلكَ، استهل العاهل الأرميني نشاطه بإلقاء القبض علىٰ ثائر مغولي يدعىٰ سلامش، ذلك أن سلامش انشق عن سيده قازان، وكان ببلاد الروم، وبلغه أن قازان يريد قتله فهرب، وقدم علىٰ السلطان حسام الدين لاجين، فأكرمه فطلب سلامش نجدة من السلطان ليعود إلىٰ الروم طمعًا في اجتماع أهل الروم عليه، فجرد معه من حلب عسكرًا، وساروا مع سلامش حتىٰ تجاوزوا بلد سيس، ولكنه وقع في قبضة الملك هيثوم الثاني، وقضىٰ علىٰ من كان معه من جيش المماليك، ثم سلمه إلىٰ قازان، الذي قام بتصفيته في ميدان تبريز بصورة بشعة ثم أحرقت جثته، وذروا رمادها في الهواء.

تعدُّ هذه المبادرة من ملك أرمينيا الصغرىٰ، عربونًا قدمه لقازان، ودليلًا أثبت من خلاله أنه ما زال في خدمة المغول ومخلصًا لهم، وقد انتهت هذه الحادثة بنتيجتين:

الأولىٰ: رغبة غازان في الانتقام من المماليك، لأنهم ساعدوا أحد أعدائه، إضافة لكونهم قبيل ذلك قد غزَوْا بلاد الأرمن، التي يعدها قازان من ممتلكاته.

الثانية: رغبة المماليك في الانتقام من الأرمن، لأنهم قضوا علىٰ عسكر حلب الذي كان برفقة سلامش.

وهكذا، ظهرت إرهاصات حرب جديدة بين المغول والمماليك، كان الأرمن أحد أسباب إثارتها، ثم قاموا بالمشاركة فيها عمليًّا بخمسة آلاف مقاتل،

---

(١) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٣٧).

فلن تكون الحملة العسكرية القادمة مكونةً من مغول إيران وحدهم، بل فيها كرج وأرمن وعرب أيضًا، ولا من الخارجين عن شرائع الإسلام وحدهم، بل فيها كفار أصليون من النصارىٰ، وفيها مكونات أخرىٰ أيضًا، يقول الشيخ في وصف مكونات الجيش الذي قام بالحملة العسكرية علىٰ دمشق: (عسكرُهم مُشتمل علىٰ أربعِ طوائفِ: كافرة باقية علىٰ كفرها من الكرج والأرمن والمغول، وطائفة كانت مسلمة فارتدت عن الإسلام وانقلبت علىٰ عقبيها من العرب والفرس والروم وغيرهم، وفيهم أيضًا من كان كافرًا فانتسب إلىٰ الإسلام ولم يلتزم شرائعه، وفيهم صنف رابع شرٌّ من هؤلاء؛ وهم قوم ارتدوا عن شرائع الإسلام، وبقوا مستمسكين بالانتساب إليه)[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤١٣-٤١٦).

رابعًا

اعتداءات ماردين

(ذريعة الغزاة لاحتلال الشام)

شهدت سنة ٦٩٨هـ واقعةً كانت الذريعة التي تذرَّع بها التتار للتنفيذ الفعلي لرغباتهم في غزو الشام، إذ قامت مجموعةٌ من العسكر المملوكي بنهب ماردين، وهو بلدٌ دخل ملوكه المعروفون بالأراتِقَة في تبعية التتار منذ زمن هولاكو، وملكهم في ذلك الحين هو غازي الثاني بن قرا أرسلان، إلا أن أهلها كانوا مسلمين.

لم تكن واقعة النهب محلَّ ترحيب حتىٰ لدىٰ الجانب المملوكي؛ فنجد أبا الفداء في (تاريخه) يستشنعها حيث يقول في وقائع سنة ٦٩٨هـ: (في هذه السنة أرسل سيف الدين بلبان الطباخي عسكرًا إلىٰ ماردين، فنهبوا ربض ماردين، حتىٰ نهبُوا الجامع، وعملُوا الأفعال الشنيعة)[1]، ويقول اليوسفي في تاريخه: (أخبرني من حضرها أنهم كانوا يأخذون الولد من حِجْرِ أُمِّه، والولد من كف أبيه، وكم من حرة كشفوا ستْرَهَا، وكم من بكر أخرجوها من خدرها، وسفكوا دماء كثيرة)[2]، كما أنَّ لابن تيمية إشارةً إلىٰ حصول بغيٍ من العسكر المملوكي في تلك الحقبة في حق مسلمي الجزيرة وأرض الروم، ولعلَّ ما فعله عسكر المماليك في ماردين يدخل في ذلك[3]. ويقول ابن تيمية في كلام عامٍّ مُبيِّنًا حُرْمة أهل ماردين من المسلمين: (ولا يحلُّ سبُّهم عمومًا ورميهم بالنفاق، بل السب والرمي بالنفاق يقع علىٰ الصفات

(١) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٤٢).

(٢) نقله العيني عن تاريخ اليوسفي «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٤/ ٤٦١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣١).

المذكورة في الكتاب والسنة، فيدخل فيها بعض أهل ماردين وغيرهم)[١].

كانت هذه الأفعال التي قام بها العسكر الحلبي هي الحُجَّة المباشرة التي احتجَّ بها قازان لغزو بلاد الشام، وبالعودة إلىٰ سياق اليوسفي للأحداث، وما جرىٰ بعد الغارة فإنه قال: (ولما انفصل أمر الغارة ركب صاحب ماردين إلىٰ قازان، واستصحب معه ما يليق لملك مثله، وكان رجلًا مُعظَّمًا عند المغول وسائر ملوكها، فلما وصل إليه قرَّبَه وأكرمه، وعرَّفَهُ صاحب ماردين ما اتفق من سلطان مصر وعسكر حلب، وما صنعوه في بلاده، وبكىٰ بين يديه، فتوجع له قازان وسائر الخواتين وأكابر المغول، وصار قازان يكرر ويقول: هذا فعلوه في شهر رمضان؟ وأين الإسلام مع هؤلاء القوم؟ وأخذ يتعجب من فعلهم؛ فإنه كان قريب العهد بالإسلام.

فعند ذلك طلب قازان من القضاة والعلماء بتبريز وعرَّفهم بما صنعوا من الفسق وشرب الخمر في شهر رمضان، وسألهم أن يفتوه في أمر قتالهم أو الغارة علىٰ بلاد الشام، فأجابوا بأن مثل هذا لا يثبُت بكلام فرد شخص، وخصوصًا في مثل ذلك، وربما يكون لهم جواب في ذلك، فشرعوا في البحث في هذا الأمر، إلىٰ أن اتفق رأيهم أن يُسيِّرُوا رسلًا إلىٰ صاحب مصر، ويذكرون له ما وقع من هذا الأمر في مثل هذا الشهر الشريف، وما ارتكبوه من المعاصي[٢]، وطيبوا خاطر صاحب ماردين، ووعدوا له بنصرته، والقيام في حقه، وردوه إلىٰ بلده مكرمًا)[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) خلافًا لرشيد الدولة في «جامع التواريخ» (ص٢٣٨) حيث قال بعد أن ذكر اعتداءات ماردين: (فلما بلغت هذه الأخبار السمع المبارك لسلطان الإسلام تميز غيظًا لشدة غيرته على الدين وحمية الإسلام، ورأى لزامًا عليه المبادرة بالقضاء على شر أولئك الطغاة، وبعد أن استفتى أئمة الدين وعلماء الإسلام أفتوه جميعًا أن دفع شرهم عن ممالك المسلمين الذين هم في ذمة همة السلطنة؛ فأمر بحشد الجيوش، وسيَّر حسب ما تقتضيه المصلحة الأمراءَ من اليمين واليسار).

(٣) نقله العيني عن تاريخ اليوسفي «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٣/ ٤٦١-٤٦٢).

خامسًا

النزاعات السلطوية بين المماليك

لدىٰ النظر في الأسباب القَدَرِيَّة لعودة الصراع بين المماليك ومغول إيران؛ فإن مما لا يُغفَلُ عنه تلك النزاعات السلطوية داخل دولة المماليك، إذ أثارَتِ الطريقة القمعية في التعامل مع بعض أمراء المماليك الكبار التي اتبعها منكوتمر -نائب السلطان حسام الدين لاجين، والذي كان لاجين محبًّا له- أثارت حذر أمراء المماليك وخوفهم، وكانت سببًا للجوء الأمراء: قبجق، وبكتمر، وألبكي، ومن معهم، إلىٰ التتار سنة ٦٩٨هـ[١]، وأدَّت هذه السياسة في النهاية إلىٰ مقتل السلطان ونائبه علىٰ يد بعض الأمراء في السنة نفسها.

وقد حفظت لنا رسالة كان الشيخ قد وجهها إلىٰ السلطان لاجين في السنة نفسها التي قتل فيها، يحثه علىٰ إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان مما قاله في الثناء عليه والدعاء له: (وقد استجاب الله دعاء الأمة في السلطان، فجعل فيه من الخير الذي شهدت به قلوب الأمة ما فضَّله به علىٰ غيره، والله المسؤول أن يعينه، فإنه أفقر خلق الله إلىٰ معونة الله وتأييده، حتىٰ يدفع عنه كل ضر، ويجلب إليه كلَّ خير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[٢].

ويذكر اليوسفي عن القاضي حسام الدين الحنفي أن لاجين لما بلغه تجهيز قازان لغزو بلاد الإسلام شاهده مرارًا يصلي، ويقف علىٰ قدميه، ويكشف رأسه،

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٢/ ٥٧٣-٥٧٤).

(٢) «جامع المسائل» (٧/ ٤٤٤).

ويسأل الله أن يُطِيلَ عُمُرَه حتىٰ يلتقي مع قازان وجيشه، قال: فقلت له ليلةً: يا خوند! كيف يكون عزمك إذا صح أمر قازان؟ قال: يا قاضي حسام الدين! كنت أختار من عسكر مصر ألفي فارس ممن أعرف فيه النجابة والفروسية، وأصدم قازان حيث كان، ولو كان في عشرين ألف فارس، ويُعطِي الله النصر من يشاء، ولكن أنا خائفٌ أن يُدرِكَنِي الأجلُ قبل لقائه. قال: قلت له: يا خوند! الأعمال بالنيات[(١)].

ويقول النويري: (وكان رحمه الله تعالىٰ ملكًا عادلًا، يحبُّ العدلَ ويعتمده،... ولم يكن في دولته وأيامه ما يُعاب ويُنكر، إلا انقياده إلىٰ مملوكِه نائبِه منكوتمر، والرجوع إلىٰ رأيه، وموافقته علىٰ مقاصده، حتىٰ كان عاقبة ذلك قتلهما.

وأثَّرت موافقتُه له من الفساد علىٰ العباد والبلاد، وسفك دماء المسلمين، ما لم يُستدرَك، وذلك أنَّ الأمراء الذين فارقوا الشام، وتوجهوا إلىٰ التتار خوفًا منه، أوجب توجُّهُهم إلىٰ قازان وصولَه إلىٰ الشام وخراب البلاد وسفك الدماء)[(٢)].

يتفاوتُ المُؤرِّخُون في تحليل أثر هذا اللجوء في التسبُّبِ بالحملة التي قادها قازان علىٰ بلاد الشام، فيرىٰ بعضهم أن قبجق كان أحد أسباب تلك الحملة، وأنه ومن معه من الأمراء (لما اجتمعوا بقازان حرضوه علىٰ العبور إلىٰ بلاد الشام، وكان عنده عزم من ذلك، فقوي عزمه علىٰ ذلك) كما يقول اليوسفي[(٣)]، وبعض المؤرخين يرىٰ أن قبجق إنما اضطر إلىٰ دخول بلاد التتار، فكان في عداد التتار، وهو مع أهل الإسلام، وأنه سار معهم، ثمَّ داراهم إلىٰ أن عادوا[(٤)]. يقول الذهبي

---

(١) نقله العيني عن تاريخ اليوسفي «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٣/ ٤٣٢).
(٢) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٢٢٨).
(٣) نقله العيني في «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٣/ ٤٦٢).
(٤) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ٦٢).

في سرده أحداثَ احتلال دمشق: (وتعبَ قبجق بالتتار كل التعب، ولكنه كان شاطرًا ذا دهاء ورأي وخبرة، قد عرَف سياستهم)[١]، أما مؤرخو التتار فيذكرون أن قبجق ومن معه من أمراء المماليك كانوا السبب في إنهاء وجود التتار من الشام بعد الاحتلال، إذ إنهم (نسوا حق نعمة سلطان الإسلام، ورعايته لهم، وكانوا يشيعون الإشاعات المختلفة)[٢]، وهذا قد يؤيد قول من قال: إن قبجق كان مُدَارِيًا للتتار، لا مُدَاهنًا لهم.

ومهما تكن نية قبجق، ومن معه من أمراء المماليك، فالثابتُ أن حملة قازان تلَتْ لجوءهم إليه بقليل، وأن قبجق تولىٰ نيابة التتار بدمشق، إلىٰ أن انشقَّ عنهم بعد رجوعهم، وعاد إلىٰ الدولة المملوكية -كما سيأتي ذكره-[٣].

هذا وقد ولي سلطنة الدولة المملوكية بعد مقتل السلطان حسام الدين لاجين السلطانُ الناصرُ محمد بن قلاوون، وهي السلطنة الثانية له، التي خضعت الدولة له فيها شكليًّا، وكانت تُدار من جهة الأميرين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار، اللذين سيقودان الدولة في التصدي لحملات قازان.

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٨).

(٢) «جامع التواريخ»، وانظر «كنز الدرر» (٩/ ٢٦٩)، و«الحوادث الجامعة» (ص٣٣٨-٣٣٩).

(٣) أشير هنا -استطرادًا- إلى أن ذكرًا لقبجق -بعد عودته للدولة المملوكية- جاء في موضعين من أخبار ابن تيمية: **الأول: خبر الكتاب المزور**: وذلك أن قبجق عُيِّنَ نائبًا للسلطنة بحماة بعد أن كان نائبًا للسلطنة بدمشق قبل الاحتلال، وقد زور في سنة ٧٠١هـ كتابٌ ونسب لابن تيمية أنه يعمل على إزاحة الأفرم وإرجاع قبجق مكانه، أي في نيابة السلطنة بدمشق، إلا أن الأفرم تبين له بطلانه وعاقب مزوري ذلك الكتاب. «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١١). **الثاني: خبر مناظرة الرفاعية**: وذلك أن ابن تيمية في توثيقه لخبر مناظرته للفرقة الأحمدية الرفاعية سنة ٧٠٥هـ بين يدي الأفرم ذكر قبجق في تضاعيف ذكره لتلبيس الفرقة الأحمدية على طوائف من الأمراء، وفيه تسميته بقفجق. «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٥٨-٤٥٩).

الفصل الثاني

قازان يغزو الشام

(احتلال دمشق سنة ٦٩٩هـ)

أولًا

معركة وادي الخزندار وانتصار الغزاة

بدأت حملة التتار ومن والاهم علىٰ بلاد الشام بتحرك قازان بجيشه، والتقىٰ مع جيش المماليك الذي لا يزيد عدده علىٰ ثُلُثِ جيش التتار إلا بقليل، إذ كان قوامه ثلاثة وعشرين ألفًا في وادي الخزندار، قرب حمص في ٢٧/ ٣/ ٦٩٩هـ[١]، ودارتْ معركةٌ أسفرت عن هَزيمة جيش المسلمين، وانسحبَ عساكر المماليك وأمراؤهم من الشام إلىٰ مصر، مما سهَّل للتتار طريقهم نحو دمشق.

قال ابن فضل الله: (وكانت ملحمةً عظيمة قُتِل فيها فوق عشرة آلاف من التتار، ولاحت أمارات النصر، وثبت السلطان بمماليكه ثباتًا كُليًّا، ثم انكسرت ميمنة المسلمين، وكان العدو ثلاثة أضعافهم، فتحيَّز السلطان بمن ثبت معه، وساروا علىٰ ناحية البقاع، واستولىٰ قازان، وقُضِي الأمر)[٢].

ويسجلُ الشيخُ نتيجةَ هذه المعركة، وأثرَ إعلانِ التتار إسلامَهُم في معنويات الجيش الإسلامي المملوكي في مواجهتهم فيقول: (وفي هذه المدة لما شاع عند العامَّة أن التتار مسلمون أمسك أكثر العسكر عن قتالهم، ولم يقاتلهم إلا طائفة قليلة، فقَتَلَتْ منهم بضعةَ عشر ألفًا، ولم يُقتَل من جميع المسلمين مائتان)[٣].

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٣-٢٤)، و«تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٣).

(٢) «مسالك الأبصار» (٢٧/ ٤٨٤).

(٣) «الرسالة القبرصية» (ص٥٨-٥٩). والعدد الذي ذكره ابن تيمية هو عدد قتلى كل من الطرفين. انظر «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٤).

موقف ابن تيمية من المشاركة في معركة وادي الخزندار:

لا نجد في كتب المؤرخين المُعتنين بذكر تفاصيل أخبار الشيخ ذكرًا لأي دور لابن تيمية في هذه المعركة، لا بالمشاركة العملية، ولا بالتحريض، ولا بالكتابة، أو الإفتاء. مع أن الجيش الإسلامي كان قد خرج للقاء التتار من دمشق، التي كان الشيخُ مُقيمًا فيها.

وفي الكتاب الذي صنفه الشيخ بمصر بعد هذه الهزيمة بسنوات في الرد علىٰ البكري في مسألة الاستغاثة نصٌّ يفيدنا في تحديد موقف الشيخ من المشاركة في هذه المعركة إذ يقول: (إن العدوَّ الخارجَ عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق خرجوا يستغيثون بالموتىٰ عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم، وقال بعض الشعراء:

يـــا خـــائـــفـــين مـــن الـــتـــتر
لـــــوذوا بـــقـــبر أبي عـــمـــر

أو قال:

عـــــوذوا بـــقـــبر أبي عـــمـــر
يـــنـــجـــيـــكـــم مـــن الـــضرر

فقلتُ لهم: هؤلاء الذين تستغيثُون بِهم لو كانوا معكم في القتال لانهزَموا، كما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد!

فإنه كان قد قضىٰ أن العسكر ينكسر لأسباب اقتضت ذلك، ولحكمة كانت لله -عز وجل- في ذلك.

ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتِلُوا في تلك المرة لعدم القتال الشرعي الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، ولما يحصُل في ذلك من الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال، فلا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة؛ لمن عرف هذا وهذا، وإن كان كثير من المقاتلين الذين اعتقدوا هذا قتالًا شرعيًّا أُجِروا علىٰ نيَّاتهم)[1].

وفي هذا النصِّ أمور:

الأول: أن الشيخ كان يرىٰ الهزيمة أمرًا محقَّقًا، حتىٰ لو شارك فيها أولئك الصالحون.

وفي تحقق الشيخ من الهزيمة في هذه السنة يقول ابن القيم: (أخبر أصحابَه بدخُول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، وأنَّ جيوشَ المُسلمين تُكسَر، وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سبيٌ عام، وأنَّ كلَبَ الجيش وحدَّته في الأموال، وهذا قبل أن يَهِمَّ التتار بالحركة)[2]. وقد عَدَّ هذا ابن القيم من شواهد فراسة الشيخ، وقال: (وكانت فراسته الجزئية في هذه الواقعة مثل المطر).

الثاني: أن الشيخ يرىٰ لتلك الهزيمة أسبابًا وحكمًا، وهذه الأسباب والحكم فصلها الشيخ في مواضع أخرىٰ، وسيأتي ذكر كلامه.

الثالث: أن الشيخ يذكر عن أهل المعرفة بالدين والمكاشفة عدم مشاركتهم في المعركة، وعلل ذلك بسببين:

الأول: أنه لم يكن قتالًا شرعيًّا.

---

(١) «الاستغاثة في الردِّ على البكري» (ص٤١٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٩).

الثاني: ولِمَا يحصُل بسبب المشاركة من الشر، والفساد، وانتفاء النصرة المطلوبة في القتال.

والأمر الرابع في هذا النصِّ: أن كثيرًا من المقاتلين الذين اعتقدوه قتالًا شرعيًّا أُجِروا علىٰ نيَّاتهم.

ثانيًا

دمشق تحت الاحتلال

قال اليونيني في سياق ذكره أحداثَ ما بعد المعركة: (وشرع الناس بدمشق يذكرون خيرًا عن ملك التتار، وأنه مسلم، وأن غالب جيشه علىٰ ملَّة الإسلام، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحدًا، ومن وجدوه إنما يأخذونَ سلاحَه ومركوبَه ويُطلقونه، وكثرت الحكايا من هذا النوع، وأن من جملة رِفْقهم أنهم لم يتبعوا الناس إلىٰ دمشق)[1]. وقال الذهبي: (وكثرت الحكايات من هذا النمط، حتىٰ قال إنسان كبير: اسكت! هؤلاء خير من عسكرنا. وانخدع الناس)[2].

مع أن الدمشقيين تأملوا صلاحَ حالِ التتار الغُزَاة، ومع أن قازان أرسل فرمانًا بالأمان لهم قُرِئ عليهم في ٨/ ٤/ ٦٩٩ هـ[3]، إلا أنَّ الواقع كان قاسيًا مؤلمًا، أكثرَ مِمَّا مالتْ إليه النُّفوس، إذ عاث الجيش التتري فسادًا في دمشق وما حولها بعد دخولها؛ فنهبوا[4]، وقتلوا، وسبَوا، وأسروا[5]، ويُحدِّثُنا الشيخ عن جرائم التتار في

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٥٢). والذهبي في «تاريخه» يعتمد على هذا الكتاب، كما ذكره في مقدمته، ويظهر اعتماده عليه في هذه الحادثة على جهة الخصوص، حتى إنه أخذ كلام اليونيني المنقول أعلاه كما هو، وصدَّره بقوله: (وأما نحن...)، إذ كان الذهبي إذ ذاك بدمشق.

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٤).

(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٩). ونصُّ الفرمان أثبته اليونيني في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٦٢-٢٦٥)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٦-٧٠٧).

(٤) انظر مثلاً ما أخذه رؤوسهم من أموال من الوجيه ابن المنجا في «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٥-٤٦)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٩٤).

(٥) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٢-٣٣).

حقبة احتلالهم دمشق فيقول: (فقد عُلِم أنَّ هؤلاءِ القوم جازُوا علىٰ الشام في المرة الأولىٰ، عام تسعةٍ وتسعين، وأعطَوا الناس الأمان، وقرؤوه علىٰ المِنبَر بدمشق، ومع هذا فقد سَبوا من ذراري المسلمين ما يُقال إنه مائة ألف أو يزيد عليه، وفعلوا ببيت المقدس، وبجبل الصالحية، ونابلس، وحمص، وداريًّا وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمُه إلا الله، حتىٰ يُقال: إنهم سبوا من المسلمين قريبًا من مائة ألف، وجعلُوا يفجُرون بخيار نساء المُسلمين في المساجد وغيرها، كالمسجد الأقصىٰ، والأموي، وغيره، وجعلوا الجامع الذي بالعقيبة دكًّا)[١].

قال ابن فضل الله: (ثم إن الله لطف، وألقىٰ في قلب غازان أنْ أمرَ الأُمَراء بالكف عن دمشق، وصَمَّمَ علىٰ ذلك)[٢].

وبعد أن استغنىٰ التتار من السبي، وما نهبوه من أموال، وفي ١٢/ ٥/ ٦٩٩هـ، عاد قازان إلىٰ إيران، وأبقىٰ نائِبَه قطلوشاه مع قوة عسكرية كبيرة[٣]، وأعلن قازان أنه سيرجع مرة أخرىٰ في فصل الخريف القادم لإزالة حكم المماليك في مصر[٤]، وولَّىٰ نيابة الشام للأمير المملوكي المُنشق، الذي جاء معه من إيران، سيف الدين قبجق[٥]، وولىٰ شدَّ الشام لأحد أمراء التتار واسمه الأمير يحيىٰ. لم يطُل

---

(١) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٩-٥٢٠).
(٢) «مسالك الأبصار» (٢٧/ ٤٨٦).
(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٣)، و«مسالك الأبصار» (٢٧/ ٤٨٦)، وترى شيرين بياني في تحليل سبب رجوع قازان أنه خشي على الحدود الشرقية لدولته من غزو ممالك المغول المتاخمة لها، وخشي من نشوب قلاقل داخلية من جهة منافسيه في الدولة، إضافة إلى اشتداد حرِّ الصيف. «المغول التركيبة الدينية والسياسية» (ص٤٨٦-٤٨٧).
(٤) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٤).
(٥) قُرِئَ مرسومٌ بتوليته نيابة الشام مرتين: الأولى في ١٤/ ٤/ ٦٩٩هـ، والثانية بعد مغادرة قازان في ١٩/ ٥/ ٦٩٩هـ. «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٣١، ٤٤).

بقاء قطلوشاه بعد قازان؛ فغادر دمشق في ٢٣/ ٥/ ٦٩٩هـ بعد أن ودَّعه قبجق[١].

قال الذهبي: (وخفَّ التتار من البلد جدًّا، وقُلِعت ستائرُهم من أماكنها، وتنسَّم الناس الخير)[٢]. وقام قبجق في شهر جمادىٰ الآخرة (٦/ ٦٩٩هـ) بوظيفة نيابة السلطنة[٣].

وفي ٢٠/ ٦/ ٦٩٩هـ عاد القائد العسكري بولاي من جهة الأغوار بعد أن كان قد سار ومعه عشرة آلاف مقاتل ليلحق الجيش المصري بعد هزيمته في الوقعة، ووصل إلىٰ غزة، وخرب وسبىٰ ونهب[٤]، فقدم بمن معه إلىٰ ظاهر دمشق[٥]، ومكث فيها ما يقرب من أسبوعين، ثم قفل عائدًا إلىٰ إيران[٦].

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٥).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧١٣).

(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٥).

(٤) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٨). وسبق بولاي في العودة إلى دمشق مجموعة من التتار في ١٢/ ٥/ ٦٩٩هـ. «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٣).

(٥) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٦٢).

(٦) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٦٨).

ثالثًا

ابن تيمية يخاطب الغزاة

(لقاء ابن تيمية بقازان: التفاصيل والروايات)

قال البِرْزالي: (وفي يوم الأحد ثاني ربيع الآخر (٢/ ٤/ ٦٩٩هـ) اجتمع جماعة من الأعيان من العلماء والأكابر بمشهد عليٍّ رضي الله عنه بجامع دمشق، واتَّفقوا علىٰ التوجُّه للقاء ملك التتار، وطلب الأمان منه.

وتوجَّهوا يوم الاثنين، ثالث شهر ربيع الآخر (٣/ ٤/ ٦٩٩هـ)، وبقي البلد ليس فيه أحد من أرباب الولايات، فلقوا الملك بالنبك، وغابوا عن البلد أربعة أيام)[1].

وذكر الذهبي أسماءَ بعضِ أولئك الأعيان الذين خَرَجوا للقاء قازان، قال: (فحضر ابنُ جماعة، والفارقي، وابن تيمية، والوجيه ابن مُنجَّا، والقاضي نجم الدين ابن صَصْرىٰ، وعز الدين ابن القلانسي، والصاحب ابن الشيرجي، وشرف الدين ابن القلانسي، وأمين الدين ابن شقير، وعز الدين ابن الزكي، ونجم الدين ابن أبي الطيب، وشهاب الدين الحنفي، وغيرهم، وطلعوا ظهر يوم الاثنين بهدايا للأكل، في نحو مائتي نفس)[2].

إذًا، شارك الشيخ في هذا الوفد الذي كانت مهمته طلب الأمان لأهل دمشق من ملك التتار، وكان جَرِيئًا في مُخاطبته الملك الفاسد الخارج عن شريعة الإسلام، قويًّا في الحقِّ.

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٨).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٥). وذكر اليونيني أسماء أخرى في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٥٤-٢٥٧).

وجاء خبر ما جرىٰ بين ابن تيمية وقازان في ذلك المجلس، من طريقين:

الأول: ما نقله القاضي محيي الدين ابن فضل في «تاريخه»، عن قاضي قضاة دمشق الشيخ أبي العباس ابن صصرىٰ، وكان ممن حضر المجلس.

الثاني: ما نقله الشيخ عماد الدين ابن كثير في «تاريخه» عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن قوام، وكان ممن حضر المجلس أيضًا.

قال ابن فضل الله: (أخبرنا قاضي القضاة أبو العبَّاس ابن صَصْرىٰ: أنَّهم لما حضروا مجلس غازان، قُدِّم لهم طعام فأكلوا منه، إلا ابن تيمية، فقيل له: لم لا تأكل؟

فقال: كيف آكلُ من طعامكم، وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختُموه مما قطعتُم من أشجار الناس؟!

ثم إن غازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كُنتَ تعلمُ أنه إنما قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا، وجهادًا في سبيلك فأن تؤيِّدَه وتنصُرَه، وإن كان للمُلك والدُّنيا والتَّكاثُر، فأن تفعَلَ به وتصنَعَ، يدعو عليه، وغازان يؤمِّنُ علىٰ دعائه، ونحن نجمع ثيابنا خوفًا أن يُقتل فيطرطش بدمه.

ثم لما خرجنا قلنا له: كِدتَ تهلكنا معك، ونحن ما نصحبُك من هنا!

فقال: ولا أنا أصحبكم.

فانطلقنا عصبة، وتأخر في خاصة من معه، فتسامعت الحراس والأمراء، فأتوه من كل فجٍّ عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبرَّكُوا برؤيته، فأما هو فما وصل إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة، فشلحونا!)[1].

---

(١) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٦٦٩).

وذكره ابن كثير عن ابن قوام بنحوه، وقال: (وقد سمعت هذه الحكاية من جماعة غيره)[1]، وفيه أن ابن قوام كان مع الذين تأَخَّرُوا مع ابن تيمية، ورجَعُوا معه.

ونقل ابن كثير عن ابن قوام كلامًا آخر قاله الشيخ لقازان، قال: (قال الشيخ لترجمان قازان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذنون، وقاضٍ، وإمام، وشيخ -علىٰ ما بلغنا- فغزوتنا، ودخلت بلادنا علىٰ ماذا؟ وأبوك وجدك هولاگو كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدا فوفيَا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت)[2].

وجاء خبرُ لقاء ابن تيمية بقازان بسياقٍ مختلف، وذلك في مصدرين متأخرين بالنسبة للمصدرين آنِفَي الذكر، وهما: كتاب (الأعلام العليَّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية) للشيخ أبي حفص عمر بن علي البزار، وكتاب (مرآة العجائب) لمحمد بن قاسم النويري.

والسياق الوارد فيهما فيما يظهر لي هو خبر عن لقاء آخر التقىٰ فيه ابن تيمية بقازان، غير اللقاء الذي ذكره ابن صصرىٰ وابن القوام، حيث ذكر الذهبي أن ابن تيمية اجتمع بقازان مرتين[3]، فلعل اللقاء الآخر هو هذا، والله أعلم.

قال البزار: (ولما ظهر السلطان غازان علىٰ دمشق المحروسة جاءه ملك الكُرج، وبذل له أموالًا كثيرةً جزيلةً علىٰ أن يُمكِّنَه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلىٰ الشيخ، فقام من فورِه وشَجَّع المسلمين، ورغَّبَهم في

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٨٣).

(٢) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٨٢).

(٣) «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» ضمن «تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص٤٣-٤٤).

الشهادة، ووعدهم علىٰ قيامهم النصر والظفر والأمن وزوال الخوف، فانتدب منهم رجال من وجوههم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم فخرجوا معه إلىٰ حضرة السلطان غازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم، فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أولًا، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة رضي الله عنه، حتىٰ أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولًا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج علىٰ المسلمين، وضمن له أموالًا، وأخبره بحرمه دماء المسلمين، وذكره، ووعظه، فأجابه إلىٰ ذلك طائعًا، وحقنت بسببه دماء المسلمين، وحميت ذراريهم، وصين حريمهم.

وحدثني من أثق به عن الشيخ كمال الدين ابن المُنجَّا -قدس الله روحه- قال: كنت حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ، فجعل -يعني الشيخ- يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته علىٰ السلطان في أثناء حديثه، حتىٰ جثا علىٰ ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتىٰ لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبلٌ عليه بكليته، مُصْغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه، لا يُعرض عنه، وأن السلطان من شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته: من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أرَ مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه، فأخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل.

وسأله: إن أحببت أن أعمُر لك بلد آبائك حران، وتنتقل إليه، ويكون برسمك، فقال: لا، والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ، وأستبدل به غيره، فخرج من بين يديه مُكرَّمًا مُعزَّزًا، قد صنع له الله بما طوىٰ عليه نيَّتَه الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، فبلغه ما أراده، وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب

أسارىٰ المسلمين من أيديهم، وردهم علىٰ أهلهم، وحفظ حريمهم، وهذا من أعظم الشجاعة والثبات وقوة الجأش)[1].

ومن الشواهد لبعض المقاطع التي جاءت في هذه الرواية في مصادر أعلىٰ رتبة من البزار:

١- ما ورد من إطلاق قازان للأسرىٰ في إِثر مخاطبة الشيخ له: يشهد له ما ذكره الشيخ نفسه، حيث قال: (وقد عرف النصارىٰ كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرىٰ، **وأطلقهم غازان**، وقطلوشاه...)[2].

٢- ما ورد من تأثير إسلام قازان في عدم استباحته الشام: يشهد له قول الذهبي بعد أن ذكر خبر إسلامه: (ولولا هذا القدر الذي حصل لقازان من الإسلام؛ وإلا كان قد استباح الشام لمَّا غَلَب عليه، فلله الحمدُ والمنَّة)[3].

أما رواية محمد بن قاسم النويري فقد جاء فيها: (وكان قازان لما قدم بجيوشه إلىٰ الشام سنة تسع وتسعين وستمائة، ونزل بظاهر دمشق، أتاه التكفور ملك الأرمن، قال له: أيها الملك، خذ مني ثلاثين حملًا ذهبًا، ودعني أدخل دمشق بعسكري من أحد أبوابها، وأخرج من الباب الآخر، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية الفقيه الحنبلي جالسًا بمجلس قازان حينئذٍ، فلما سمع التكفور تلك قال لقازان: أمسلم أنت؟ قال: نعم. قال: إن دماءنا وأموالنا عليك حرام، ونحن نعطيك ستين حملًا ذهبًا، ولا تمكن هذا النصراني من المسلمين، فرضي قازان بذلك، ومنع التكفور من العبور)[4].

---

(١) «الأعلام العليَّة» (ص٦٤-٦٥).

(٢) «الرسالة القبرصية» (ص٥٦).

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٦٩١).

(٤) «مرآة العجائب» (٤/ ١٢٠).

وما ذكره هذا النويري هو الموافق لما ذكره المقريزي من أن ملك الأرمن هيثوم الثاني بن ليفون هو من أراد خراب دمشق[1]، لا ملك الكرج كما في رواية البزار، وهو الموافق لما جاء في بعض الوثائق الأرمنية التي كتبها سمباد شقيق هيثوم الثاني، حيث يذكر سمباد أن هيثوم الثاني طلب من قازان إحراق دمشق، فامتنع بقوله: (ستكون جريمة لا مثيل لها، إن أنا سلَّمتُ لألسِنة اللَّهب مدينة كهذه، لقد وهبتها لابني، وستحفَظ له)[2]، وهذا الطلب من العاهل الأرميني منبعه الحقدُ الدينيُّ، والرغبة بالانتقام مما حل في مملكة أرمينيا الصغرىٰ في عهد السلطان حسام الدين لاجين.

(١) «السلوك لمعرفة دول الملوك» (٢/ ٣٢٣).

(٢) نقله عن المصدر الأرمني المذكور في بحث «مملكة أرمينيا الصغرى بين المغول والمماليك (٦٢٣-٧٧٦هـ)».

رابعًا

شهداء المقادسة.. ومجازر الغزاة بصالحية دمشق

قال البرزالي: (وفي يوم السبت منتصف ربيع الآخر (١٥/ ٤/ ٦٩٩هـ) شُرِع في نهب الصالحية، والعيث والفساد فيه، وكَسَّرُوا الأبواب، وقلَّعُوا الشبابيك، وأخذوا بُسُطَ الجامع، وحصل لهم في الصالحية شيءٌ كثير من القمح، والذخائر، والمطعومات، والكتب.

والتجأ الناس إلىٰ دَيْر الحنابلة من جوانب الصالحية، فاحتاط التتار به، يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر (١٨/ ٤/ ٦٩٩هـ)، ودخلوا إليه، ونهبوا منه)(١).

ويذكر الشيخ قطب الدين اليونيني أنَّ ابن تيمية سعىٰ لإيقاف التخريب، والنهب، والأسر، والسبي الذي قام به التتار في الصالحية، ودير الحنابلة، فخرج إلىٰ كبيرهم محمود بن علي الشيباني، الملقب بشيخ الشيوخ، وشكىٰ إليه الحال. يقول: (كان الناس بالبلد بلَغَهم ما حلَّ بإخوانهم، فشقَّ علىٰ النَّاس، وتوجَّه الشيخُ تقيُّ الدين ابن تيمية وجماعةٌ إلىٰ شيخ المشايخ الذي نزل بالعادليَّة، وشكوا إليه الحال، فاتَّفَق خروجُه إليهم يوم الثلاثاء وسط النهار، فأدركهم بين الظهر والعصر، فرد عنهم، وسمع التتار بقدومه وقدوم من سار معه، فهربوا)(٢).

إلا أن التتار انتقلوا إلىٰ مناطق أخرىٰ حول دمشق، واستمروا في جرائمهم. قال البرزالي: (وتوجَّهُوا إلىٰ قرية المِزَّة، فنهبوا، وأسروا، وتوجهوا إلىٰ داريًّا،

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٣١).

(٢) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٧٢).

فدخل أهلها إلىٰ الجامع فاحتاطوا به، ودخلوه، ونهبوا، وأسروا، وقتلوا أيضًا)[1].

قال الذهبي: (وقتلوا أكثر رجال داريًّا، أو كثيرًا منهم، لكونهم امتنعُوا بالجامع)[2].

ثم إن ابن تيمية سعىٰ للوصول إلىٰ ملك التتار قازان ليشكو إليه ما فعله عساكِرُه، إلا أنه لم يُمكَّن من ذلك.

قال البِرْزالي: (وفي يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر (٢٠/ ٤/ ٦٩٩هـ) خرج جماعة منهم الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلىٰ ملك التتار، وكان نازلًا بتلٍّ راهط بالمرج، فدخل عليه، وأراد أن يشكو إليه مَا وَقَع، فلم يُمكَّن من ذلك[3]، وأشار الوزير سعد الدين، ومُشير الدولة الرشيد بألَّا يُخاطبَ الملك بشيء من ذلك، وأنه يحصل فتنة[4]، ونحن نتولَّىٰ إصلاح الأمر، ولكن لا بُدَّ من إرضاء المغل، فإن منهم جماعة لم يحصل لهم شيء إلىٰ الآن[5].

وعاد الشيخ تقي الدين ومن معه إلىٰ البلد، ليلةَ السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر (٢٢/ ٤/ ٦٩٩هـ))[6].

كان الشيخ في تلك المرحلة العصيبة (يمشي إلىٰ من يُرجَىٰ نفعُه، أو شفاعتُه)[7]، ولم يتحقق ما يرجوه، إذ لم يفِ الوزيران بوعدهما بإصلاح الأمر،

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٣١).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٨٩٣). وممن قتل خطيب داريا وترجمته في «المقتفي» (٣/ ٣٧).

(٣) في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٧٤): (بل أُذِن له في الدعاء لهُ، والإسراع). ونقلها عنه الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٩).

(٤) في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٧٤) بيان وجه حدوث الفتنة، وهي (أن قازان موجوع من رجله، ومشغول الدماغ، وإنه إن علم بذلك لا بد له من قتل جماعة من المغل، ويحصل بذلك فتنة وتفرق كلمة، وتكون الدائرة على أهل البلد، وما شاكل ذلك).

(٥) أي لا بد أن يُفسَح لهم مجال ليحصِّلُوا شيئًا يرضيهم من النهب والسلب!

(٦) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٣١-٣٢).

(٧) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٧٣).

واستمرَّ التتار في جرائمهم من النهب والسبي والقتل، وكان للصالحية ودَيْر الحنابلة النصيب الأوفىٰ من ذلك، ففي ٢/ ٥/ ٦٩٩هـ نُهب الدَّيْر مرَّةً ثانية، وسُبِي من كان فيه، وقيل: إنَّه أسر من الصالحية نحو الأربعة آلاف، وقتل نحو الأربعمائة بحسب البرزالي[1]، ويذكر الذهبي أن من القتلىٰ سبعين نسمة من ذريَّة الشيخ أبي عمر المقدسي[2].

قال الذهبي: (وفي ثاني جمادىٰ الأولىٰ كان قد تبقَّىٰ بدير المقادسة بعضُ الشيء، وبعض الحريم والرجال، والقاضي (تقي الدين المقدسي) الحنبلي، فجاءته فرقةٌ من التَّتَار وحرَّرُوه نهبًا وسبيًا، وأسروا القاضي وأخذوه عريانًا، مكشوفَ الرأس، وعملوا في رقبته حبلًا.

ثم هرب أهل الدَيْر ودخلوا البلد مَضرُوبين مسلوبين، من يراهم يبكي أكثر من بكائهم، ثمَّ أُدخل القاضي تقيُّ الدين البلدَ، وقد أُسِرت بناتُه، وخلقٌ من أقاربه، ورأىٰ الأهوال، ولعلَّ الله قد رحِمَه بذلك)[3].

مما يُذكَرُ هنا: أن القاضي الحنبلي -وهو الإمام تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن الشيخ أبي عمر المقدسي[4]- هو القاضي الوحيد الذي بقي في الشام من بين قضاة المذاهب الأربعة في مرحلة احتلال التتار، فالقاضي الحنفي عُدِم في وقعة وادي الخزندار، والقاضِي الشَّافعي إمام الدين القزويني، والقاضي المالكي جمال الدين الزواوي غادرا إلىٰ مصر عقيب الوقعة في ١/ ٤/ ٦٩٩ هـ[5].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٢).

(٢) «العبر» (٣/ ٣٩٥)، وفيه: «أبي عمرو» وهو تصحيف.

(٣) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧١١-٧١٢).

(٤) ترجمته في «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٢٠٩).

(٥) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٥، ٢٧).

وبعد أن أطلق التتار يد العاهل الأرميني في الصالحية قام في ١٥/ ٥/ ٦٩٩هـ بإحراق جامع العقيبة، وأماكن بالصالحية، منها المدرسة الصاحبية، والمارستان السيفي، ومسجد خاتون، ودار الحديث الأشرفية، ومسجد الأسدية، والرباط الناصري، وغير ذلك[١].

وقد ذكر الشيخ أن الرافضة كانوا السبب في نهب الصالحية[٢]، والقاسم المشترك بين الرافضة والأرمن أن كلتا الطائفتين أفعالهم تجاه المسلمين تصدر عن حقد وعداوة دينية، ولهذا تظهر فيها الشناعة الشديدة.

ممن قُتِل علىٰ يد الغزاة في الصالحية من صالِحِي المقادسة ومشايخهم: الشيخ علي بن أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي، قيِّم الجامع المظفري، قال البِرْزالي: (وكان عبدًا صالحًا مُقعدًا في بيته، يتلو كل يوم ختمة كاملة، ولا يزال المصحف بين يديه، فلما حضر التتار إلىٰ الجبل أُخرِج، ووضع في الجامع (المظفري)، فعذَّبوه عذابًا شديدًا حتىٰ مات رحمه الله، وبقي أيامًا، ثم دفن بعد ذلك)[٣].

وقال الذهبي: (بلغني أن العدو أخذوا سيخًا محميًّا، ووضعوه علىٰ فرجه؛ فأتلَفَه)[٤].

وعذَّب التتار أيضًا أخاه الشيخ عمر، وحُمِل إلىٰ البلد ومات فيه. قال البرزالي: (عذَّبه التتار بالصالحية عذابًا شديدًا، ثم حُمِل إلىٰ دار البلد، فأقام أيامًا يسيرة وهو

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٤)، و«مسالك الأبصار» (٢٨/ ٤٨٤)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ٧٢١).

(٢) «رسالة إلى السلطان الناصر عقب فتح جبل كسروان» ضمن «العقود الدرية» (ص٢٣٨)، وهذا مما شاع وحفظه الناس انظر «العقود الدرية» (ص٢٣٢)

(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٨).

(٤) «معجم الشيوخ» (٢/ ١١).

مريضٌ من شدَّة ما أصابَه، ثم مات في درب القِلَىٰ، ودفن داخل البلد بالكشك، وكان رجلًا مُباركًا)[1].

كما قتل التتار أيضًا ابنَ أخت الشيخين علي وعمر؛ الشيخ عبد الرحمن بن عمر بن صومع الدير قانوني. قال البرزالي: (ضُرِبت رقبته بالصالحية، ولم يتفق دفنه، وكان صائمًا عدة أيام)[2].

مما يشار إليه أن ابن تيمية كان قد سمع من والد الشيخين الشهيدين علي وعمر؛ مُسنِد الشام الإمام أحمد بن عبد الدائم المقدسي سنة ٦٦٧ هـ، وكان عمره إذ ذاك ست سنوات[3]. وتوفي ابن عبد الدائم سنة ٦٦٨هـ، فالمقادسة هم شيوخ ابن تيمية، وتلامذته، وفي إحدىٰ رسائل الشيخ لمحمد نجل القاضي سليمان المقدسي الحنبلي المذكور آنفًا يقول مبينًا فضل المقادسة: (ولسلفكم الطيب علينا من الحقوق المشكورة، والانتفاع بعلمهم ودينهم ما يوجب لكم ولهم من المودة والموالاة والمحبة ما الله به عليم)[4].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٩).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٩).

(٣) «جزء فيه أربعون حديثًا مخرجة عن كبار مشيخة الحافظ ابن تيمية» لابن الواني (ص٢٣-٢٤).

(٤) «جامع المسائل» (٩/ ٢٥١).

خامسًا

مرة أخرى.. ابن تيمية يخاطب الغزاة

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: (حكىٰ لي الشيخُ الإمامُ علمُ الدين ابنُ البِرْزالي قال: في يوم الخميس خامس وعشرين (٢٥/ ٥/ ٦٩٩هـ)، اجتمعتُ بالشيخ تقي الدين ابن تيمية، فذكر اجتماعه بالأمير قطلوشاه، قال: وذكر لي قطلوشاه أنه من أولاد جنكزخان، وأنه أصفر الوجه، لا شعرة بوجهه أيضًا، من أبناء خمسين سنة، وأنه ذكر لهم أن الله ختم الرسالة بمحمد، وأن جنكزخان جده كان ملك البسيطة، وكل من خرج عن طاعته، وطاعة ذريته فهو خارجي.

وذكر اجتماعه بالملك غازان، وبالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين الوزير الطبيب، والشريف قطب الدين ناظر الخزانة، ومكاتبه صدر الدين، وبالنجيب الكحال اليهودي، وبشيخ المشايخ نظام الدين محمود، وبأصيل الدين ابن النصير الطوسي ناظر الأوقاف.

وذكر أن سفر قطلوشاه كان ظهر الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر، وكان اجتماعه به بسبب الأسرىٰ يوم الأحد حادي عشريه.

وبات ليلة الاثنين بالمنيبع هو والقاضي (تقي الدين المقدسي) الحنبلي و(شمس الدين الحريري) الحنفي، بسبب أنهم يمضون إلىٰ القلعة في الرسالة).

وقال الذهبي: (وحكىٰ لنا ابن تيمية طلوعه إلىٰ خطلوشاه إلىٰ القصر، هو والقاضي تقي الدين الحنبلي وغيره، وباتوا بالمنيبع، وخاطروا بنفوسهم)[1].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧١٣).

وتحدث الشيخ عن اجتماعه بقطلوشاه وإطلاقه للأسرىٰ في رسالته التي أرسلها إلىٰ ملك قبرص فقال: (وقد عرف النصارىٰ كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرىٰ، وأطلقهم غازان، وقطلوشاه..)[1].

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٥٦).

سادسًا

قلعة دمشق.. من الحصار إلى الانتصار

كانت القوَّة المملوكية الوحيدة التي بقيت في دمشق هي القوَّة المُتحصِّنَة في قلعة دمشق، تحت قيادَة الأمير علم الدين أرجَواش، ومنذ أن وصل التتار إلىٰ دمشق سعَوا إلىٰ السيطرة علىٰ القلعة بشتىٰ الوسائل، فتكلم قبجق مع أرجواش أولًا، وسعىٰ لإقناعه بتسليم القلعة، وذلك فور وصوله مع التتار إلىٰ دمشق في ١٠/ ٤/ ٦٩٩هـ، ثُمَّ قام الأمير إسماعيل -أحد أمراء التتار- بإصدار مرسوم يأمر فيه أعيان دمشق بالتحدث مع أرجواش لتسليم القلعة، وهدد بأنهم إن لم يفعلوا، ولم يسلم أرجواش القلعة فسيدخل الجيش البلد، إلا أنَّ الأمير أرجواش أظهر الثبات والحزم والإصرار علىٰ عدم تسليم القلعة.

وقد فصَّل الشيخُ قطب الدين اليونيني خبرَ تلك المداولات في (تاريخه)، فقال: (وفي آخر يوم الاثنين (١٠/ ٤/ ٦٩٩هـ) وصل سيف الدين قبجق وبكتمر وغيرهما إلىٰ البلد، ونزلوا بالميدان الأخضر، وتكلموا في طريقهم مع أرجواش متولي القلعة، وأشاروا عليه بتسليمها، وقالوا له: إن دماء المسلمين في عنقك، ويحصل علىٰ المسلمين مشقة كبيرة، فأجابهم: إن دماء المسلمين في أعناقكم، وأنتم الذين فعلتم هذا، وبسببكم وقع، ولم يجبهم إلىٰ ما سألوه.

وفي بكرة الثلاثاء حادي عشر ربيع الآخر (١١/ ٤/ ٦٩٩هـ) ورد مثال من الأمير إسماعيل النائب، يأمر فيه بأنَّ العلماء والصلحاء والمشايخ والرؤساء يتحدثون مع أرجواش، ويحسنون له تسليم القلعة، وإلا؛ يدخل الجيش البلد، ولا تبقىٰ القلعة ولا البلد، وشدد الأمر في ذلك.

فجُمع جماعةٌ منهم بدار الحديث الأشرفية، وحضر معهم الصوفية أيضًا، وأرسلوا رسولًا إلىٰ أرجواش؛ فلم يُجبهم، وقال: أرسل ورائي نهار أمس قبجق وأصحابه، فلم أسمع كلامهم في ذلك!

وقاموا من دار الحديث بأجمعهم إلىٰ نائب القلعة، ووقفوا، وطلبوا منه رسولًا فلم يجبهم، فأرسلوا من جهتهم رسولًا، وأبلغه سلامهم وإشارتهم، فأغلظ في الجواب، وقال: من هم الجماعة الذين أرسلوك؟ فعينهم الرسول.

فقال: هم المنافقون، الكذابون، الخائنون للمسلمين، الذين سلموا البلد إلىٰ العدو، وسبَّهم، وقال.

فقيل له: إنهم لما توجهوا إلىٰ جيش التتر وجدوهم سائرين إلينا.

فقال: إنما جرىٰ العدو علىٰ طريق البلد، أرسلتم مثل الشريف القمي وأشباهه، وليس عندي جواب، ومع هذا؛ فهذه بطاقة وردت عليَّ من السلطان صاحب مصر، مضمونها: أنهم قد اجتمعوا علىٰ غزة، وأنهم كسروا الطائفة التي تبعتهم من جيش التتار، وفيها الوصية بأمر القلعة.

وانتظر الجماعة أمر رسولهم، فخرج، وأخبرهم ذلك، وتفرقوا علىٰ هذه الصورة، ولم يقع في قلوبهم تصديق البطاقة)[1].

والخبر ذكره البرزالي مختصرًا في «المقتفي علىٰ الروضتين»[2].

وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»[3] -وهو يعتمد فيه كثيرًا علىٰ تاريخ البرزالي- زيادةً لم يذكرها البرزالي في التأريخ لتلك الحادثة، حيث قال ابن كثير

---

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٦٦-٢٦٨).

(٢) (٣/ ٣٣).

(٣) (١٧/ ٧٢٠).

بعد أن ذكر المحادثات التي تقدم ذكرها، والتي جرت بين الدمشقيين وأرجواش لتسليم القلعة: (وصمَّم أرجواش علىٰ ترك تسليمها إليهم وفيه عين تطرف، فإن الشيخ تقي الدين ابن تيمية أرسل إلىٰ نائب القلعة يقول له ذلك، فاشتد عزمه علىٰ ذلك، وقال له: لو لم يَبْقَ فيها إلا حجرٌ واحدٌ؛ فلا تُسلِّمهُم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فإن الله تعالىٰ حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزًا لأهل الشام، التي لا تزال دار أمانٍ وسُنَّة، حتىٰ ينزل بها عيسىٰ ابنُ مريم عليه السلام).

وقال البرزالي في ترجمة أرجواش في «تاريخه»[1]: (وكان أميرًا مشكورًا في عمارة القلعة، وملازمتها، وحفظها، وصار له ذكرٌ جميل من وقت فتنة التتار بسبب تصميمه علىٰ غلقِ القلعة وصيانتها، مع أنَّ جميعَ الناس في ذلك الوقت رأوا تسليمها، وكانت قدوةً لجميعِ قلاع الشام).

ابتدأ التتار بحصار القلعة في ١/ ٤/ ٦٩٩هـ[2]، واستمر الحصار، وشُدِّد في ١٢/ ٥/ ٦٩٩هـ، بعد أن دخل دمشق ستةُ آلاف من جنود التتار، وأحدق بالقلعة منهم نحو ألف نفس[3]، ونصب التتار المنجنيق في الجامع الأموي لضرب القلعة، وانتهىٰ الحصار في ٢٢/ ٥/ ٦٩٩هـ، وتفرَّق التتار عن القلعة، وبطل عمل المنجنيق في الجامع في اليوم التالي[4]، وهو اليوم الذي ودع فيه قبجق قطلوشاه، ورجع قطلوشاه بمن معه إلىٰ إيران، وتولَّىٰ قبجق شؤون دمشق.

---

(١) (٣/ ١٩٠). وكانت وفاة أرجواش رحمه الله سنة ٧٠١هـ، وانظر في الثناء عليه أيضًا «أعيان العصر» (٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، و«الوافي بالوفيات» (٨/ ٢٢٠).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٣).

(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٣).

(٤) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٤-٤٥).

استمرت حقبة تولي قبجق شؤونَ دمشق منذ رجوع قطلوشاه، وحتىٰ خلو دمشق من التتار نهائيًّا، ثم سافر قبجق لمصر ليرجع لطاعة الدولة المملوكية، وفي نهايات تلك الحقبة سعىٰ الشيخُ برفقة الإمام بدر الدين ابن جماعة -الذي كان إذ ذاك خطيب دمشق- إلىٰ الصلح بين أرجواش وقبجق، لكن لم يحصل اتفاق بينهما.

يقول اليونيني: (وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من جمادىٰ الآخرة (٢٨/ ٦/ ٦٩٩هـ)، دخل القلعة الخطيب بدر الدين، والشيخ تقي الدين، ومعهما نائب الأمير يحيىٰ، وقومٌ من جهته، وتكلم الناس في صلح يقع بين نائب القلعة ونواب قازان، ولم يعلم ما جرىٰ بينهم.

ثم استهل شهر رجب المبارك ليلة الأربعاء، والخطيب بدر الدين وتقي الدين ابن تيمية داخلان إلىٰ أرجواش وقبجق ساعيان في أمر الصلح بينهما، وتسكين أمر البلد، ولم يتم أمر الصلح بينهما)[1].

وقد تولَّىٰ الأمير أرجَواش أمر البلد بعد سفر قبجق إلىٰ مصر، وزوال الوجود التتري في دمشق.

---

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

سابعًا

ومرة ثالثة.. ابن تيمية يخاطب الغُزَاة

قال البرزالي: (وفي يوم الخميس (٢/ ٧/ ٦٩٩هـ) توجَّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلىٰ مخيم بولاي بسبب الأسرىٰ واستفكاكِهم، وكان معهم خَلْقٌ من الأسرىٰ، فأقام ثلاث ليال)[١].

لم يقتصر الشيخ في لقائه بهذا القائد التتري علىٰ السعي في مصلحة المسلمين، بل سعىٰ أيضًا في مصلحة أهل الذمَّة، واستنقذ أسرىٰ الجميع. يقول في رسالَتِه التي أرسلها إلىٰ ملك قُبرص بعد هذه الحادثة: (خاطبتُ مُولاي[٢] في الأسرىٰ؛ فسمح بإطلاق المسلمين. قال لي: لكن معنا نصارىٰ أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلَقُون.

فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارىٰ الذين هم أهل ذمَّتِنا، فإنَّا نفتكُّهم، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة.

وأطلقنا من النصارىٰ من شاء الله، فهذا عملُنَا وإحساننا، والجزاء علىٰ الله)[٣].

وفي اجتماع ابن تيمية مع بولاي سأله بولاي سؤالًا بشأن يزيد بن معاوية،

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٦٦-٦٧).

(٢) قال الصفدي في ترجمة (بولاي) في «أعيان العصر» (٢/ ٧٠): (اسمه على الصحيح (مولاي) وإنما الناس يُحرِّفُونه تهكُّمًا به وبأمثاله، كما يقولون في (خداي بندا): (خربندا)).

(٣) «الرسالة القبرصية» (ص٥٦).

وسؤالًا بشأن موقف أهل الشام من أهل البيت، وقد ذكر ابن تيمية في بعض فتاويه في يزيد بن معاوية نصَّ ذلك الحوار، فقال: (سألني: ما تقولون في يزيد؟

فقلت: لا نَسبُّه، ولا نُحبُّه، فإنه لم يكن رجلًا صالحًا فنحبُّه، ونحن لا نسبُّ أحدًا من المسلمين بعينه.

فقال: أفلا تلعنونَه؟ أما كان ظالمًا؟ أما قتل الحسين؟

فقلت له: نحن إذا ذُكِر الظالمون كالحجاج بن يوسف وأمثاله، نقول كما قال الله في القرآن: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، ولا نحبُ أن نلعنَ أحدًا بعينه، وقد لعنه قوم من العلماء، وهذا مذهب يسوغ فيه الاجتهاد، لكن ذلك القول أحب إلينا وأحسن، وأما من قتل الحسين، أو أعان علىٰ قتله أو رضي بذلك؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا!

قال: فما تُحبُّون أهلَ البيت؟

قلت: محبتهم عندنا فرضٌ واجب، يؤجر عليه، فإنه قد ثبت عندنا في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: خطبنا رسول الله ﷺ بغدير يدعىٰ خمًّا بين مكة والمدينة فقال: (أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله...)، فذكر كتاب الله، وحض عليه، ثم قال: (وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي)، قلت لمُقدَّم -يعني مُقدَّم المغول بولاي-: ونحن نقول في صلاتنا كل يوم: (اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما صليت علىٰ إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

قال مُقدَّم: فمن يبغض أهل البيت؟

قلت: من أبغضهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا!)[1].

ثم يُبدي الشيخ تعجُّبَه من سؤال هذا الرجل التتري عن يزيد، ليتبين له بعد سؤال وزير التتار أن الدعاية الرافضية المزورة عن أهل دمشق قد أثرت فيه.

يقول الشيخ: (ثم قلتُ للوزير المغولي: لأي شيء قال عن يزيد، وهذا تتري؟ قال: قد قالوا له إن أهل دمشق نواصِب.

قلتُ بصوت عالٍ: يكذب الذي قال هذا! ومن قال هذا فعليه لعنة الله، والله ما في أهل دمشق نواصب، وما علمت فيهم ناصبيًّا، ولو تنقَّصَ أحدٌ عليًّا بدمشق لقام المسلمون عليه.

لكن كان قديمًا -لمَّا كان بنو أمية ولاة البلاد- بعضُ بني أمية ينصِبُ العداوة لعليٍّ ويسبُّه، وأما اليوم فما بقي من أولئك أحد)[2].

فهذا نص الحوار مع بولاي كما وثقه الشيخ بنفسه، وقد ذكره الشيخ قطب الدين اليونيني مختصرًا في «تاريخه»[3].

وتلك الدعاية الرافضية ضد أهل الشام من علامات جهل الرافضة وتعصُّبهم، إذ يحمِّلُون أهل الشام وزرَ بعضِهم في حقبة زمنية معينةٍ. يُزيِّفُ الشيخ تلك الدعاية بقوله: (وكذلك من جهل الرافضة وتعصُّبِهم أنَّهم يبغضون أهل الشام؛ لكونهم كان فيهم أولًا من يُبغض عليًّا، ومعلوم أن مكة كان فيها كفار ومؤمنون، وكذلك

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٨٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٤٨٧ -٤٨٨).
(٣) (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

المدينة كان فيها مؤمنون ومنافقون، والشام في هذه الأعصار لم يبقَ فيه من يتظاهر ببغض عليٍّ، ولكن لفرط جهلهم يسحبون ذيل البُغض)[1].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٤/ ١٤٦).

ثامنًا

جيش الاحتلال من الداخل بمنظار ابن تيمية

في نصوص الشيخ تسجيلٌ لمشاهداتٍ عديدة متعلقة بحال عساكر التتار.

فمن ذلك ما ذكره الشيخ بقوله: (وقد شاهدنا عسكرَ القوم؛ فرأينا جمهورهم لا يُصلُّون، ولم نرَ في عسكرهم مؤذِّنًا، ولا إمامًا)[1]. وفي موضع آخر يتحدث الشيخ عن الحالة الدينية لعسكر التتار بتفصيلٍ أكبر، فيقول: (عسكرُهم مُشتملٌ علىٰ قوم كُفَّار من النصارىٰ والمشركين، وعلىٰ قوم مُنتسبين إلىٰ الإسلام، وهم جمهور العسكر، ينطقون بالشهادتين إذا طُلِبت منهم، ويُعظِّمون الرسول ﷺ، وليس فيهم من يُصلِّي إلا قليلا جدًّا، وصوم رمضان أكثر فيهم من الصلاة، والمُسلم عندَهم أعظم من غيره، وللصالحين من المسلمين عندهم قدرٌ، وعندهم من الإسلام بعضه وهم متفاوتون فيه)[2].

ومِنَ المُشاهدات التي سَجَّلَها الشيخ أيضًا بخصوص عساكر التتار: شربهم الخمر في دمشق، وذكر أنه كان يراهم هو وأصحابه، ويتركون الإنكار عليهم، لأن صحوهم شرٌّ من سكرهم، يقول في ذلك: (ولهذا كنت آمرُ أصحابنا ألَّا يمنعوا الخمر عن أعداء المسلمين من التتار والكرج ونحوهم، وأقول: إذا شربوا لم يصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، بل عن الكفر والفساد في الأرض، ثم إنه يوقع بينهم العداوة والبغضاء، وذلك مصلحة للمسلمين؛ فصحوهم شرٌّ من سكرهم، فلا خير في إعانتهم علىٰ الصحو، بل قد يُستحبُّ أو يجبُ دفع شر هؤلاء

---

(١) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠).

(٢) انظر الملحق.

بما يُمكِن من سُكرٍ وغيره)[1]. وقد حدث ابن تيمية تلميذه ابن القيِّم بهذه القصة بعد وقوعها بسنوات عديدة، وسجلها ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين»[2].

وفي رسالة الشيخ لملك قبرص تحدث عن ذِلَّة جنود التتار في مدة الاحتلال، حتىٰ إن الشيخ أو من معه قد يضربونهم بأيديهم، ويصرخون فيهم بأصواتهم: (فأذلَّ الله قازان وجنودَه لنا، حتىٰ بقينا نضربُهم بأيدينا، ونصرخُ فيهم بأصواتنا)[3]. فلم يكن وقت إطباق القوة العسكرية علىٰ البلد مُحبِطًا للنُّفُوس، ومانعًا من وقوف مواقف العزَّة والقوة الإيمانية أمام الأعداء، قادتهم وعسكرهم.

وتحدَّث الشيخ في رسالته إلىٰ السلطان الناصر عن خوف التتار ورعبهم، يحفِّزه بذلك إلىٰ قتالهم، كما سيأتي، فيقول: (والله لقد رأىٰ الداعي من رُعْبِهم ما لا يوصف، حتىٰ إن وزيرَهم يحيىٰ قال قُدام الداعي ومُولاي يسمع: واحد منكم يغلب ستةً من هؤلاء)[4].

وقد كان لشيوخ قازان دور في تضليل عساكر التتار، لتحصيل مقصود قازان من الملك والرئاسة، حيث ينقل البرزالي مُحاورةً بين الشيخِ وجنديٍّ تتري تدل علىٰ ذلك، يقول: (وذكر ابن تيمية أنَّه اجتمعَ بواحدٍ منهم، وظهر له منه صلاةٌ وسكينة، فسألَه: **ما السبب في خروجك وقتالِ المسلمين**؟ فقال: أفتانا شيخُنَا بتخريب الشام، وأخذ أموالهم، لأنهم لا يصلون إلا بأجرة، ولا يتفقهون إلا بأجرة، وغير ذلك، وقال: إذا فعلتم ذلك بهم يرجعون إلىٰ الله، ويتوكلون عليه!)[5].

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ١٦٦).

(٢) (٤/ ٣٤٠).

(٣) «الرسالة القبرصية» (ص٥٤).

(٤) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٥-٣٠٦).

(٥) نقله اليونيني عن البرزالي في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٩١-٢٩٢).

وللتتار مستندات واهية يستندون إليها في اعتقادهم أحقيَّة قازان بولاية الشام ومصر، حيث يذكر رشيد الدولة الهمذاني في «جامع التواريخ» في خبر محاورة ادعىٰ أنها جرت بين قازان والدمشقيين في مدة الاحتلال. يقول رشيد الدولة: (وعندما سألهم سلطان الإسلام: من أنا؟ فأجابوا جميعًا: أنت السلطان غازان بن أرغون خان بن آباقا خان بن هولاگو خان بن تولوي خان بن جنكيز خان، بعد ذلك سألهم: من والد الناصر؟ أجابوا: الألفي، فسألهم: من كان والد الألفي؟ فعجزوا جميعًا عن الإجابة). ثم قال رشيد الدولة عقيب هذا الخبر: (ومن المعروف للجميع أن حكم هؤلاء القوم آل إليهم اتفاقًا، وليس استحقاقًا، فكلهم كانوا عبيدًا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور).

وقد ذكر الشيخ مخاطبة بعض التتار له بهذه الحجة وجوابه عنها فقال: (وقد خاطبني بعضهم بأن قال: ملكُنَا ملكٌ، ابن ملك، ابن ملكٍ، إلىٰ سبعة أجداد، وملكُكُم ابن مولىٰ. فقلت له: آباء ذلك الملك كُلُّهم كُفَّار، ولا فخر بالكافر، بل المملوك المسلم خير من الملك الكافر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾[البقرة: ٢٢١])[١].

ووجه آخر يُجَابُ به عن حُجَّةِ قازان هذه، ذكره الشيخ في موضع آخر: وهو أنه كان للدمشقيين أن يسألوا قازان عن تتمة النسب، وعن والد جنكيز خان من يكون؟ فسيجيبهم أن الشمس حبلت أمه، كما هو اعتقاد التتار، وهذا دليل أنه ابن زنا[٢].

---

(١) « الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٤٢).

(٢) انظر: «الفتيا الثانية لابن تيمية في التتار» في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٣)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري (٣/ ١٠١).

هذه المحاورات تُوضِحُ أن دعوة الشيخ لقتال التتار جاءت بعد البيان، وإقامة الحجة. ولذلك يقول الشيخ: (ومع خضوع التتار لهذه الملة، وانتسابهم إلىٰ هذه الملة؛ فلم نُخادِعهم، ولم نُنافِقهم، بل بيَّنَّا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الإسلام المُوجِب لجهادِهم، وأنَّ جُنودَ الله المؤيَّدَة، وعساكِرَه المنصُورةَ، المُستقرَّةَ بالديار الشامية والمصرية، ما زالت منصورة علىٰ من ناوأها، مُظفَّرةً علىٰ من عاداها)[1].

رأىٰ الشيخُ أيضًا العاهلَ الأرميني هيثوم الثاني بن ليفون لما قدم إلىٰ دمشق، ووصف هيئته لأصحابه، وفي ذلك يقول البرزالي: (وذكر لنا الشيخ أنه رأىٰ عند قطلوشاه صاحب سيس[2]، وهو أشقر كثُّ اللحية، ومعهم طائفة قليلة، عليهم الذلة والإجرام)[3]. كما سجَّل الشيخُ مشاهدَتَه لكيفية تعامل التتار المُهينَة معه، إذ إن الأرمن كانوا مجرَّد أداة للتتار يوظفونها في حرب المسلمين، إذ يقول في رسالته لملك قبرص: (وكان معهم -أي التتار- صاحبُ سيس مثل أصغر غلام يكون، حتىٰ كان بعض المؤذِّنين الذين معنا يصرخُ عليه ويشتمه، وهو لا يجترئ أن يجاوِبَه، حتىٰ إن وزراء غازان ذكروا ما هم عليه من فساد النية له، وكنتُ حاضرًا لما جاءت رسُلُكم إلىٰ ناحية الساحل، وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه، حيث منَّاكم بالغرور، وكان التتار من أعظم الناس شتيمةً لصاحب سيس، وإهانةً له)[4].

---

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٥٨).

(٢) صاحب سيس أي: ملكها. ويسمى ملكها أيضًا: التكفور.

(٣) نقله اليونيني عن البرزالي في «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٩٢).

(٤) «الرسالة القبرصية» (ص٥٤-٥٥).

تاسعًا

لماذا خاطَبَ ابن تيمية الغُزَاة؟

ظهر من مجموع من المواقف التي تقدَّم ذكرها أن شيخ الإسلام سعىٰ بشجاعة وقوة لدىٰ قادة مملكة إيران، وخاطبهم خطابًا قويًّا جريئًا، حفظه الموافق والمخالف.

يقول الشيخ أبو محمد ابن قوام رحمه الله تعالىٰ في وصف الشيخ: (وجرت له مع قازان، وقطلوشاه، وبولاي، أمور ونُوَب، قام ابن تيمية فيها كلِّها لله)[1].

ويقول الذهبي في ترجمة الشيخ: (وأما شجاعته؛ فبها تُضرب الأمثال، وببعضها يتشبَّهُ أكابرُ الأبطال، فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقىٰ أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد، وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبخطلوشاه، وببولاي، وكان قفجق يتعجب من إقدامه وجرأته علىٰ المغول)[2].

وشجاعة الشيخ في مخاطبة قادة التتار من الأمور التي شاعت واستفاضت، حتىٰ تجاوزت الأراضي المملوكية، وبلغت أسماع ملوك الممالك النصرانية. يقول الشيخ في مخاطبته ملك قبرص: (ولما قدم مقدم المغول غازان وأتباعُه إلىٰ دمشق، وكان قد انتسب إلىٰ الإسلام، لكن لم يرضَ الله ورسوله ﷺ والمؤمنون بما فعلوه، حيث لم يلتزموا دين الله، وقد اجتمعتُ به وبأمرائه، وجرىٰ لي معهم فصولٌ يطولُ شرحُها، **لا بُدَّ أن تكون قد بلَغَت الملك**)[3].

---

(١) نقله ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ١٨٢).

(٢) «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» ضمن «تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص٤٣-٤٤).

(٣) «الرسالة القبرصية» (ص٥٤).

كما أن شجاعة الشيخ في مخاطبة التتار مما سيستحضِرُه خصوم الشيخ في زمن امتحانهم إياه، حيث قالوا في وصفه: (هذا رجلٌ مِحجاجٌ خَصِم، وما له قلبٌ يفزعُ من الملوك، وقد اجتمع بغازان ملك التتر وكبار دولته، وما خافهم)[1].

كانت مخاطبات الشيخ مع قادة مملكة إيران الغُزَاة، وجنودهم وعساكرهم تهدف إلىٰ أمرين:

الأول: السعي في مصالح أهل الإسلام، ومن في ذمتهم: من حقن دمائهم، واستفكاك أسراهم، وحصل ذلك بمخاطبته لقازان وقطلوشاه وبولاي.

الثاني: تبرئة الذمة، وإقامة الحجة علىٰ التتار، ببيان ما هم عليه من الفساد والخروج عن شعائر الإسلام، وقد ظهر ذلك في مخاطبته لقازان، بأنْ بيَّن له مناقضة ما يفعله لدعوىٰ انتسابه للإسلام، ومخاطبته لبولاي حين بين له غلطه في فهم موقف أهل الشام من أهل البيت، ومخاطبته لمن خاطبه من التتار حين اعتقدوا أحقية قازان بالأمر من السلطان الناصر لكون أجداده ملوكًا، وكون أجداد السلطان عبيدًا.

يقول الشيخ: (من قام بالإسلام أوقات الحاجة غيري؟ ومَن الذي أوضح دلائلَه، وبيَّنه، وجاهد أعداءَهُ، وأقامَه لمَّا مال، حين تخلىٰ عنه كل أحد، ولا أحدَ ينطِقُ بحُجَّتِه، ولا أحدَ يُجاهد عنه، وقمتُ مُظهرًا لحُجَّتِه، مجاهدًا عنه، مُرغِّبًا فيه؟)[2].

---

(١) ذكر ذلك خادم الشيخ إبراهيم الغياني الذي رافقه في حبسته في مصر انظر رسالته ضمن «الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص١٤٦).

(٢) «المناظرة في العقيدة الواسطية» ضمن «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٦٣).

عاشرًا

انسحاب الغزاة وعودة دمشق إلى الدولة المملوكية

في مرحلة نهاية الوجود التتري بالشام، كانت العساكر المصرية والشامية التي رجعت إلىٰ مصر قد التقطت أنفاسها، فقصدت الشام للدفاع عنها. يقول النويري: (وفىٰ تاسع شهر رجب، من هذه السنة (٩/ ٧/ ٦٩٩هـ) توجَّه السلطان بجميع العساكر والنواب إلىٰ الشام لدفع التتار، فاتَّصَل به عود التتار، ومُفارقتهم الشام، فأقام بالصالحية، وتوجَّهَ نائبُه الأمير سيف الدين سلار، وأستاذ داره الأمير ركن الدين بيبرس إلىٰ الشام، وصحبتهما سائر النواب والأمراء)[1].

وفي يوم الأربعاء ١٥/ ٧/ ٦٩٩هـ انفصل الأمير سيف الدين قبجق عن التتار، وسافر للقاء العساكر المصرية، ورجع إلىٰ ولائه للدولة المملوكية[2]، ويذكر بعض مؤرخي التتار أن خروج العساكر من مصر كان بمكاتبة من قبجق[3].

وفي يوم الخميس ١٦/ ٧/ ٦٩٩هـ انتهىٰ الوجود التتري في دمشق تمامًا؛ قال البرزالي: (ولم يَبْقَ من جهة التَّتار أحدٌ البتَّة في هذا اليوم)[4]، وحصل الدعاء في خطبة الجمعة في اليوم التالي ١٧/ ٧/ ٦٩٩هـ للسلطان الناصر، والخليفة العباسي، بعد أن أُسقِط اسمهما من الخطبة منذ ٧/ ٤/ ٦٩٩هـ، فكانت مدة الاحتلال التتري لدمشق في عهد قازان مائة يوم، خرجت فيها دمشق عن التبعية للمماليك في مصر[5].

---

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٢٥٢).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٢).

(٣) «الحوادث الجامعة» (ص٣٣٩).

(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٢).

(٥) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٣).

وصل من الديار المصرية إلىٰ دمشق الجيش المختصُّ بها، مُقدَّمه الأمير جمال الدين الأفرم يوم السبت ١٠/ ٨/ ٦٩٩هـ، وخرج الناس لرؤيتهم[١].

ثم وصلت ميمنةُ الجيش المصري يوم الثلاثاء ١٣/ ٨/ ٦٩٩هـ، ووصل قلب الجيش المصري، والمماليك السلطانية، ومعهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار يوم الأربعاء ١٤/ ٨/ ٦٩٩هـ[٢].

وقد كان خروج الجيش الإسلامي من مصر سببًا في رجوع من بقي من التتار إلىٰ بلادهم، ولم يقفوا لقتالهم[٣].

يصف الشيخ في رسالته إلىٰ ملك قبرص حالَ الجيش الإسلامي بعد خروجه من مصر لحماية دمشق فيقول: (فلما انصرَف العسكر إلىٰ مصر -يعني: بعد هزيمته في معركة وادي الخزندار- وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد، وعدم الدين، خرجَت جُنُود الله وللأرض منها وئيد قد ملأت السهل والحَزْن، في كثرةٍ وقُوَّةٍ ومنعةٍ وعدة وإيمان وصدق، قد بهرت العقول والألباب، محفوفةً بملائكة الله، التي ما زال الله يمد بها الأمة الحنيفية المخلصة لبارئها، فانهزم العدوُّ بين يديها، ولم يَقِف لمقابلتها)[٤].

أعادتِ الدولةُ الإسلاميةُ المملوكيَّةُ بسطَ نفوذها علىٰ دمشق وغيرها من بلاد الشام، وقام الأمير سلار بإعادة ترتيب شؤون الدولة في دمشق، وتوكيل المهام والمناصب إلىٰ أصحابها[٥].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٩).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٨٠)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٢٥٣).

(٣) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٢٥٠).

(٤) «الرسالة القبرصية» (ص٥٩-٦٠).

(٥) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٨١-٨٦)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣١/ ٢٥٣-٢٥٤).

حادي عشر

الهزيمة والاحتلال.. بقلم ابن تيمية

في تُراثِ الشيخ حديثٌ عن هذه الهزيمة من أكثر من جهة.

فمن جهةٍ؛ تحدَّثَ عن وقْعِها الشديد علىٰ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يقول في ذلك: (ومن يتدبَّرْ أحوال العالم في هذا الوقت يعلم أن هذه الطائفة[1] هي أقوم الطوائف بدين الإسلام؛ علمًا وعملًا وجهادًا عن شرق الأرض وغربها؛ فإنهم هم الذين يُقاتِلون أهل الشوكة العظيمة من المشركين وأهل الكتاب، ومغازيهم مع النصارىٰ، ومع المشركين من التُّرك، ومع الزنادقة المُنَافقين من الداخلين في الرافضة وغيرهم؛ كالإسماعيلية ونحوهم من القرامطة معروفةٌ معلومةٌ قديمًا وحديثًا، والعزُّ الذي للمُسلمين بمشارق الأرض ومغاربها هو بعزِّهم، ولهذا لما هُزِموا سنة تسع وتسعين وستمائة دخل علىٰ أهل الإسلام من الذُلِّ والمصيبة بمشارق الأرض ومغاربها ما لا يعلمه إلا الله)[2].

ومن جهةٍ أخرىٰ؛ تحدَّث الشيخُ عن حِكَم الله تعالىٰ في تقديره هذه الهزيمة التي أُصِيب بها العسكرُ الإسلامي:

فمن ذلك: أنها من الابتلاء المُكفِّر للخطايا، الحاثِّ للقلوب علىٰ الإقبال علىٰ الله.

ومنها: أنها من أسباب الاجتماع، ونزع الفرقة.

---

(١) يقصد الطائفة التي بالشام ومصر، وسماها الطائفة المنصورة. ومعلوم أن هؤلاء هم المماليك.

(٢) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٢-٥٣٣).

ومنها: انكشاف حال التتار لعامَّة المسلمين شرقًا وغربًا، وما هم عليه من الخروج عن شريعة الإسلام، بعد أن كان حالُهم مُلتبسًا، وكان بعض الناس قد حسَّنُوا فيهم الظن لدخولهم في الإسلام، كما تقدَّم، مِمَّا قَوَّىٰ العَزَمَات وحرَّكها إلىٰ الجهاد.

يقول رحمه الله: (فإنَّ هذه الفتنة التي جَرتْ، وإن كانت مُؤلمةً للقلوب، فما هي -إن شاء الله- إلَّا كالدواء الذي يُسقَاه المريضُ ليحصُلَ له الشِفاءُ والقوة، وقد كان في النفوس من الكِبْر والجهل والظلم ما لو حَصل معه ما تشتهيه من العِزّ لأعقَبها ذلك بلاءً عظيمًا، فرحمَ الله عبادَه برحمتِه التي هو أرحم بها من الوالدة بولدها.

وانكشَفَ لعامَّة المُسلمين شَرْقًا وغَرْبًا حقيقةُ حالِ هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلَّمُوا بالشهادتين، وعَلِمَ مَن لم يكن يعلمُ ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبُعد عن شرائع الإسلام ومناهجه، وحَنَّتْ إلىٰ العساكر الإسلامية نفوس كانت مُعرِضة عنهم، ولانَتْ لهم قلوبٌ كانت قاسية عليهم، وأنزل الله عليهم من ملائكته وسكينته ما لم يكن في تلك الفتنة معهم، وطابتْ نفوسُ أهلِ الإيمان ببَذْلِ النفوس والأموال للجهاد في سبيل الله، وأعدُّوا العدَّة لجهاد عدوِّ الله وعدوهم، وانتبهوا من سِنَتِهم، واستيقظوا من رَقْدَتِهم، وحمدوا الله علىٰ ما أنعمَ به من استعداد السلطان والعسكر للجهاد، وما جمعه من الأموال للإنفاق في سبيل الله)[1].

ويقول في رسالة كتبها سنة ٧٠٠هـ: (وكانت هزيمةُ المُسلمين في العام الماضي بذنوبٍ ظاهرة وخطايا واضحة من فساد النيَّات، والفخر، والخيلاء،

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٢٩٨).

والظُّلم، والفواحش، والإعراض عن حُكْم الكتاب والسنة، وعن المحافظة علىٰ فرائض الله، والبغي علىٰ كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوُّهم في أول الأمر راضيًا منهم بالموادعة والمسالمة شارعًا في الدخول في الإسلام، وكان مُبتدئًا في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمةِ الله ورحمتِه بالمؤمنين أن ابتلاهُم بما ابتلاهم به؛ ليُمحِّص الله الذين آمنوا ويُنيبوا إلىٰ ربهم، وليَظهر من عدوِّهم ما ظهر منه من البغي، والمكر، والنَّكث، والخُروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوِّهم ما يستوجب به الانتقام.

فقد كان في نفوس كثير من مُقاتِلَة المُسلمين ورعيَّتِهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفرٌ بعدوِّهم الذي هو علىٰ الحال المذكورة، لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان باطنها رحمة ونعمة المؤمنين؛ فإن النبي ﷺ قال: لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر الله كان خيرًا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له)[1].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص١٨١-١٨٣).

الفصل الثالث

ما بعد الاحتلال

(٦٩٩هـ-٧٠٠هـ)

أولًا

ابن تيمية في دمشق حاثًا على الرباط ومحتسبًا

بعد أن زال الوجود التتري من دمشق تمامًا يوم الخميس ١٦/ ٧/ ٦٩٩هـ، قام الأمير علم الدين أرجواش، أمير قلعة دمشق، بتدبير شؤون البلد. وفي اليوم التالي قام الشيخُ وأصحابُه بإزالة الخمارات التي جددها التتار في البلد. قال البرزالي: (وفي بُكرة الجُمعة (١٧/ ٧/ ٦٩٩ هـ) دارَ الشيخُ تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّة بدمشق علىٰ ما جُدِّد من الخمارات، فبدَّدَ الخُمور، وكَسَّر الجرار، وشقَّ الظُّروف، وعزَّر الخمارين؛ هُو وجماعتُه)[1].

وفي تلك الأيام التي أعقبت خروج التتار من دمشق أمر الأمير أرجواش أهل دمشق أن يلازمُوا الأسوار لحماية البلد، (فلازم النَّاسُ هذه الليالي المبيتَ علىٰ الأسوار، وأظهروا عددًا حسنة وتجمُّلًا، وكان الشيخُ تقيُّ الدين وأصحابُه يمشون علىٰ الناس، ويقرأُ الشيخ عليهم سور القتال، وآياتِ الجهاد، وأحاديث الغزو والرباط والحرس، ويحثُّهم علىٰ ذلك، ويحرِّضُهم)[2].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٣).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٧٣).

ثانيًا

الموالون للغزاة بدمشق.. بمنظار ابن تيمية

ظاهرة منافقة المحتل الفاسد الظالم الخارج عن شرائع الإسلام، وإعانته علىٰ مقاصده، ظاهرةٌ متكررة في أحداث التاريخ. وقد تحدث الشيخ عن وقوع ذلك من فئات من المنافقين بدمشق في مدة الاحتلال فقال: (قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾[الأحزاب: ١٤]، فأخبر أنه لو دُخِلت عليهم المدينة من جوانبها، ثم طُلِبت منهم الفتنة -وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق- لأعطَوا الفتنة، ولجاؤوها من غير توقُّف.

وهذه حالُ أقوامٍ لو دَخَل عليهم هذا العدوُّ المُنافق المُجرم، ثم طُلب منهم موافقته علىٰ ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام -وتلك فتنةٌ عظيمةٌ- لكانُوا معه علىٰ ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي[1] أقوامٌ بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين تركِ واجباتٍ، وفعلِ مُحرَّماتٍ، إما في حقِّ الله، وإما في حقِّ العباد، كترك الصلاة، وشُرب الخمور، وسبِّ السَّلف، وسبِّ جنود المسلمين والتجسس لهم علىٰ المسلمين، ودلالتهم علىٰ أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلىٰ غير ذلك من أنواع الفتنة)[2].

ويذكر ابن تيمية موالاة طائفة الاتحادية للتتار منذ عهد هولاكو، ومن

---

(١) يقصد سنة الاحتلال ٦٩٩هـ إذ هذا الكلام جزء من كتابه الذي كتبه بعد حملة التتار الثانية سنة ٧٠٠هـ.

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٠٧-٢٠٨).

مظاهر ذلك: أن الشيخ يحيىٰ بن الزكي، الملقب بمحيي الدين، سليل الأسرة الدمشقية المعروفة بالقضاء، وأحد تلامذة ابن عربي الغلاة فيه[1]، لما اجتاح التتار ديار الإسلام (سار إلىٰ هولاگو فولاه قضاء الشام وغيرها، وخلع عليه خلعة سوداء مذهبة خليفتية)[2]. يقدِّم ابن تيمية تفسيرًا لمثل هذا الموقف يرجع إلىٰ النظرة الاتحادية في التعامل مع الأديان، فيقول في كشف ذلك: (ويقولون -أي الاتحاديَّة- لمن يختص بهم من النصارىٰ واليهود: إذا عرفتم التحقيق لم يضركم بقاؤكم علىٰ ملتكم، بل يقولون مثل هذا للمشركين عباد الأوثان، حتىٰ أن رجلًا كبيرًا من القضاة كان من غلمان ابن عربي (يحيىٰ بن الزكي)، فلما قدِم ملك المشركين الترك هولاگو خان المشرك إلىٰ الشام، وولاه القضاء، وأتىٰ دمشق، أخذ يعظم ذلك الملك الذي فعل في الإسلام وأهله ببغداد وحلب وغيرهما من البلاد ما قد شهر بين العباد، فقال له بعض من شهده من طلبة الفقهاء ذلك الوقت: يا سيدي! ليته كان مسلمًا، فبالغ في خصومته مبالغة أخافته، وقال: أي حاجة بهذا إلىٰ الإسلام؟ وأي شيء يفعل هذا بالإسلام؟ سواء كان مسلمًا أو غير مسلم، ونحو هذا الكلام)[3].

وكان للاتحادية موالاة أكيدة لدولة قازان، يقول الشيخ: (ولم يكن معهم في دولتهم إلا من كان من شر الخلق، إما زنديق منافق لا يعتقدُ دين الإسلام في الباطن، وإما من هو من شر أهل البدع كالرافضة والجهمية والاتحادية ونحوهم)[4]، ويقول: (ولا يُتصوَّر أن يصحب هذا العسكر علىٰ ما هم عليه مكره، إلا أراذل

---

(١) قال ابن تيمية في «بغية المرتاد» (ص٤٤٦): «كان من الغلاة في ابن عربي المُعظِّمين لأمره»، وقال قطب الدين اليونيني في «ذيل مرآة الزمان» (٢/ ٤٤٠): «وله فيه عقيدة تجاوز الوصف».

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ١٦٢).

(٣) «الصفدية» (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠).

المنتسبين إلىٰ الإسلام من رافضي أخرق، أو اتحادي أحمق)[1]، ويقول: (وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية، ولهذا هم يريدون دولة التتار ويختارون انتصارهم علىٰ المسلمين)[2].

ولما احتل قازان دمشق، أظهر الاتحادية المقيمون بها موالاتهم له، واعترف بعض شيوخهم لابن تيمية بردته عن الإسلام. يقول ابن تيمية: (ولمَّا جاء قازان -وقد أسلَم- دمَشقَ، انكشفتْ أمُورٌ أخرىٰ، فظهر أنَّ اليُونسيَّة[3] كانوا قد ارتدُّوا، وصاروا كُفَّارًا مع الكفار، وحضر عندي بعض شُيوخهم، واعترف بالردَّة عن الإسلام، وحدَّثني بفُصولٍ كثيرة...)[4].

ومما يذكر هنا أيضًا: أن نائب السلطنة بدمشق بعد أن باشر مهامه قام بعقوبة بعض المتعاونين مع التتار بعد أن عادت دمشق إلىٰ سيطرته، قال البِرْزالي: (وفي ثالث شوال (٣/ ١٠/ ٦٩٩هـ) كُحِّل الحاج مندوه الساكن بالعقيبة، وقُطِع لسانُه. وفي ليلة الرابع من شوال (٤/ ١٠/ ٦٩٩هـ) سُمر ثلاثة علىٰ الجمال، وشُنِق اثنان، فالذين سمروا الشريف القُمِّي، وابن العوني البردادار، وابن خطليشي المزي. واللذان شُنِقا: كاتب مصطبة الولاية، وآخر يهودي، وذلك لدخولهما مع التتار، وأَذَاهُما للمُسلمين، ثم أطلق ابن العوني بعد ثلاثة أيام. وشنق يوم الجمعة (٦/ ١٠/ ٦٩٩هـ) إبراهيم مؤذن بيت لهيا، وقُطِع لسان ابن ضاعن، وقُطِعت يد

---

(١) انظر الملحق.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٣٢).

(٣) نسبة إلى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني، وهم من طوائف الاتحادية، ينظر في ضلالاتهم: كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢/ ١٠٦-١٠٧)، وكلام الشيخ عماد الدين الواسطي في «العقود الدرية» (ص٣٦٩)، وكلام الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٣/ ٥٩٢-٥٩٣).

(٤) «الفرقان بين الحق والبطلان» ضمن «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢١٦-٢١٧)، وهذا الكتاب من آخر ما كتبه الشيخ، إذ كتبه في حبسته الأخيرة.

الدلدرمي ورجلُه، وكُحِّل الشجاع همام، وبقي ليلة ومات، وبقي الدلدرمي ثلاثة أيام ومات)[1].

وقد أظهرت السنوات التالية للاحتلال: صعوبة مسامحة الناس لمن وقع في جريمة التعاون مع التتار، حتىٰ إن البرزالي يذكر في ترجمة ابن الشيرجي في وفيات سنة ٧١٨هـ: (وكان والده يباشر نظر الدواوين بدمشق، فلما دخل التتار إلىٰ دمشق سنة غازان صار في خدمتهم لأجل وظيفته، ومات في ذلك الوقت عقيب خروج التتار، فحصل لولده هذا أذىٰ وحبس ومصادرة وتعلق عليه الدولة والناس، ولم يتخلَّص إلا بعد شدَّة ونكدٍ كثير)[2].

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٩٣-٩٤).
(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٣١٢).

ثالثًا

ابن تيمية في الكِسْروان.. مجاهدًا في سبيل الله

قال البرزالي: (وتوجه نائب السلطنة الأمير جمال الدين الأفرم بعسكر دمشق في العشرين من شوال يوم الجمعة (٢٠/ ١٠/ ٦٩٩هـ) وانضاف إليهم جمع من الفلاحين ورجالة القرىٰ وتوجهوا بأجمعهم إلىٰ جبال الجرد والكِسْروان لغزوهم وقتالهم لما كانوا أجرمُوه من أذىٰ الجيش عقيب الكسرة، وأخذِ عُدَدِهم، وقتلِ بعضِهم، والتعرُّض لهم، ولِمَا هُمْ عليه من العقائد الفاسدة والضلالات القبيحة، فحصل بحمد الله تعالىٰ إذلالُهم والانتصارُ عليهم)[1]. قال: (وفي يوم الخميس ثالث ذي القعدة (٣/ ١١/ ٦٩٩ هـ) قُهِر أهل الجرد والكِسْروان الذين توجَّه عسكر الشام إليهم، ودخلوا في الطاعة قسرًا، وقُرِّر عليهم مبلغٌ كبيرٌ من المال، والتزموا بردِّ جميع ما أخذوه لعسكر المسلمين، وأقطعت أراضيهم)[2].

شارك الشيخ في تلك الحملة، وفي ذلك يقول: (فإنَّ غالبَ أهلِ البلاد قلوبُهم مع المسلمين، إلا الكفار من النصارىٰ ونحوهم، وإلا الروافض، فإنَّ أكثرَ الرَّوافض ونحوهم من أهل البدع هواهُم مع العدوِّ، فإنَّهم أظهروا السُّرور بانكسار عسكر المسلمين، وأظهروا الشماتة بجمهور المسلمين، وهذا معروف لهم من نوبة بغداد، وحلب، وهذه النَّوبة أيضًا، كما فعل أهل الجبل الجرد والكِسْروان، **ولهذا خرجنا في غزوهم لما خرج إليهم العسكر، وكان في ذلك خيرة عظيمة للمسلمين**)[3].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٠١). وانظر «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٩٢).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٠٣).

(٣) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٥).

كما ذكر ابن كثير مشاركة الشيخ في هذه الحملة، واستتابته لرؤوس أهل الكِسْروان، حيث قال في التأريخ لها: (...وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنة لقتال أهل تلك الناحية، بسبب فساد دينهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر وهربوا، حين اجتازوا ببلادهم، وثبوا عليهم، ونهبوهم، وأخذوا أسلحتهم وخيولهم، وقتلوا كثيرًا منهم.

فلما وصلوا إلىٰ بلادهم جاء رؤساؤهم إلىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير علىٰ أولئك المفسدين..، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند، ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله)[1].

لم يحصل في هذه الحملة استئصال نهائي لشأفة الكسروانيين، وسيكون ذلك بعد وقعة شقحب سنة ٧٠٥هـ، وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل.

---

(١) «البداية والنهاية» (١٧/ ٧٣٠). وسيأتي مزيد حديث عن أهل الكسروان عند خبر فتح جبلهم في عهد خربندا سنة ٧٠٥هـ.

رابعًا

غزو العدو.. المُحفِّزَات والفوائد

(رسالة ابن تيمية إلى السلطان الناصر)

حفظت لنا رسالة توجَّه بها الشيخ إلىٰ السلطان الناصر في مصر يحثه فيها علىٰ الجهاد، وغزوِ التتارِ في بلادهم، بدلًا من انتظار قُدُومهم مرَّة أخرىٰ.

تُشكِّلُ فكرة استئصال مملكة إيران نبضَ تلك الرسالة، والروح التي تسري فيها، فالشيخ يحتجُّ لها بما أوتي من الأدلة والحجج، فبعد أن افتتح رسالته بآيات الجهاد من سورتي التوبة والصفِّ، وأخبر بالمبشرات النبوية بحفظ الدين وظهوره، وبقاء الطائفة المنصورة بأرض الشام، وإخبار النبي ﷺ بقتال الترك، واستمرار الجهاد حتىٰ نزول عيسىٰ ابن مريم، وأن الأمة لا تهلك بسنة عامة؛ شرع ببيان المُحفزَّات الواقعية علىٰ غزو التتار، والحكم الشرعيِّ في ذلك، وفوائده الاقتصادية والمعنوية علىٰ أهل الإسلام.

فمن المعلوم أن إيران والعراق والجزيرة يسكنها مسلمون يعانون احتلال التتار، فيذكر ابن تيمية في محفِّزات قتال التتار: استعدادَ طائفةٍ من المُسلمين المُقيمين هناك لقتالهم. يقول: (ومن نِعَمِ الله علىٰ الأمة أنها قد اجتمعت علىٰ ذلك في الشرق والغرب، حتىٰ إن المؤمنين من أهل المشرق قد تحرَّكتْ قلوبُهم انتظارًا لجنود الله، وفيهم من نوىٰ أنه يخرج مع العدوِّ إذا جمعوا، ثُمَّ إمَّا أن يقفز عنهم، وإمَّا أن يُوقع بهم، والقلوبُ الساعةَ مُحترقةٌ مهتزَّةٌ لنصر الله ورسوله ﷺ

علىٰ القوم المفسدين، حتىٰ إن بالموصل والجزيرة وجبال الأكراد خَلْقًا عظيمًا مستعدين للجهاد مرتقبين العساكر، سواء تحرك العدوُّ أو لم يتحرك)[1].

ومنها: **ظهور أمارات اختلاف داخل البيت التتري الحاكم في إيران.** يقول: (...وجاءتنا أخبار مع غير واحدٍ بأن الخربندا أخا قازانَ قد قَدِم الرومَ، وهو يجمع العساكر للقدوم، وقدمتْ بنت لبَيْدَرا كانت مأسورة في بيت قازان، وهي الساعةَ في نِيتِها تذهبُ إلىٰ مصر، وقد أقامت في بيتهم مدَّةً إلىٰ نصف شوَّال علىٰ ما ذكَرتْ، وذكرتْ أحوالًا من الكلام بين قازان وأخيه الخربندا وأمِّه تَدُلُّ علىٰ ذلك، وأن الخربندا هو في نية فاسدة للمسلمين، وأمُّه تنهاه عن ذلك، وهو لا يَقبل، ويُوقع بينهم فتنةً.

وسواء ألقَىٰ الله بينهم الفرقةَ والاختلافَ وأهلكَ رؤساءَهم، أو لم يكن، فإن الأمر إذا كان كذلك فهذا عونٌ عظيمٌ من الله للمسلمين.

فليس من الواجب أن يترك نَصْرُ الله ورسوله والجهادُ في سبيل الله إذا كان عدوُّ الله وعدوُّ المسلمين قد وقع البأسُ بينهم، بل هناك يكون انتهاز الفرصة، ولا يَحِلُّ للمسلمين أن ينتظروهم حتىٰ يطؤوا بلاد المسلمين كما فعلوا عام أوَّل، فإنَّ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ما غُزِيَ قومٌ في عُقْر دارِهِم إلَّا ذَلُّوا))[2].

ومنها: **ميل بعض أمراء البلاد التي تحت حكم مملكة إيران للمسلمين.** يقول: (وقد اتصل بالداعي أخبار صادقة من جهات يُوثَق بها بما قد مال مع المسلمين من أمراء تلك البلاد حتىٰ من المغول، ولا بدَّ أنَّ السلطان يُطالِعُ بذلك من تلك

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠١-٣٠٢) -بتصرف-.

البلاد، فإنَّ هناك قوم صالحون ساعون في مصالح المسلمين، كشيخ الجزيرة الشيخ أحمد)[1].

ومنها: **الخوف الذي يعتري قلوب التتار من مواجهة المسلمين.** يقول: (والساعةَ لما ذهب أميرٌ بحلب بعسكرٍ إلىٰ الجزيرة وتصيَّد هناك، طارَ الصيتُ في تلك البلاد بمَجيءِ العسكر، فامتلأت قلوب البنجاي رعبًا، حتىٰ صاروا يريدون أن يُظهِروا زيَّ المسلمين لئلَّا يُؤخَذوا، وفي قلوب العدوِّ رُعبٌ لا يعلمه إلا الله)[2].

(فإذا كانت عامَّة القلوب هناك وهنا مع هذا العسكر المنصور، وقد أقامه الله سبحانه وأيَّده وأمده بنعمته علىٰ محمد وأمته، وقلوبُ العدوِّ في غاية الرعب منه، والله لقد رأىٰ الداعي من رُعْبِهم ما لا يوصف، حتىٰ إن وزيرَهم يحيىٰ قال قُدام الداعي ومولاي يسمع: واحد منكم يغلب ستةً من هؤلاء.

وهكذا يُخبِر القادمون من هناك أنهم مرعوبون جدًّا، فمن نعمة الله علىٰ المسلمين أن يُيسِّر غزاةً ينصر الله بها دينَه هنا وهناك. وما ذلك علىٰ الله بعزيز)[3].

يظهر جليًّا مِمَّا ذكرَهُ الشيخ أنه بنىٰ ما ذكره من مُحفِّزَاتٍ لغزو التتار علىٰ اطِّلاع وتحرٍّ علىٰ تفاصيل أحوال دولة التتار ونقاط ضعفهم، وهكذا يكون الفقيه القائم علىٰ مصالح الأُمَّة؛ ذا دراية بحالها وحال عدوها، فيكون نصحُه لها ولمن ولي أمرها علىٰ بصيرة.

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠١).
(٢) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٣).
(٣) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٥-٣٠٦).

أما حكم غزو التتار في بلادهم، فيقول الشيخ في بيان وجوبه: (والله قد فرض علىٰ المسلمين الجهاد لمن خرجَ عن دينه وإن لم يكونوا يقاتلونا، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه يُجهِّزون الجيوش إلىٰ العدوِّ، وإن كان العدوُّ لا يَقصِدُهم، حتىٰ إنه لما تُوفِّي رسولُ الله ﷺ وكانتْ مُصيبته أعظم المصائب، وتفرَّقَ الناسُ بعد موتِه واختلفوا، نَفَّذَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيشَ أسامة بن زيد الذي كان قد أمره رسولُ الله ﷺ إلىٰ الشام إلىٰ غزو النصارىٰ، والمسلمون إذ ذاك في غايةِ الضعف.

فلما رآهم العدوُّ فزِعوا وقالوا: لو كان هؤلاء ضعافًا ما بعثوا جيشًا.

وكذلك أبو بكر الصديق لمَّا حضرتْه الوفاةُ قال لعمر بن الخطاب: لا يَشغلكم مصيبتُكم بي عن جهادِ عدوِّكم. وكانوا هم قاصدين للعدو لا مقصودين.

وكان النبي ﷺ في مرض موته، وهو يقول: (نَفِّذوا جيش أسامة، نَفِّذوا جيش أسامة)، لا يَشغَلُه ما هو فيه من البلاء الشديد عن مجاهدة العدوِّ. وكذلك أبو بكر.

وأقلُّ ما يجب علىٰ المسلمين أن يُجاهِدوا عدوَّهم في كلِّ عام مرةً، وإن تركُوه أكثرَ من ذلك فقد عَصَوُا الله ورسولَه، واستحَقُّوا العقوبة، وكذلك إذا تقاعدوا حتىٰ يطأ العدوُّ أرضَ الإسلام، والتجربةُ تدلُّ علىٰ ذلك، فإنه لما كان المسلمون يقصدونهم في تلك البلاد لم يزالوا منصورين، وفي نَوبتَيْ حمص الأولىٰ والثانية لما مَكَّنُوهم من دخول البلاد كاد المسلمون في تلك النوبةِ أن ينكسروا لولا أن ثبَّتَ الله، وجَرىٰ في هذه المدة ما جرىٰ[1].

---

(١) وقعت نوبة حمص الأولى في عهد المنصور قلاوون وآباقا بن هولاكو سنة ٦٨٠هـ، وغلب التتار في أول الأمر، ثم هُزِموا. انظر «المقتفي على الروضتين» (١/٥١٨-٥١٩). والنوبة الثانية هي معركة وادي الخزندار التي تقدم ذكرها سنة ٦٩٩هـ.

وما قَصَدَهم المسلمون قَطُّ إلاّ نُصِروا، كنوبةِ عينِ جَالوت، والفرات، والروم[1]، ونحن نرجو أن يستأصِلَهُم الله تعالىٰ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فإن البشارات متوفِّرة علىٰ ذلك)[2].

(وليس من شريعة الإسلام أنَّ المسلمين ينتظرون عدوَّهم حتىٰ يقدم عليهم، هذا لم يأمُرِ الله به ولا رسولُه ولا المسلمون، ولكن يجبُ علىٰ المسلمين أن يقصدوهم للجهاد في سبيل الله، وإن بدؤوا هم بالحركة فلا يجوز تمكينُهم حتىٰ يَعبُروا ديارَ المسلمين، بل الواجبُ تقدُّمُ العساكر الإسلامية إلىٰ ثغور المسلمين، فالله تعالىٰ يختار للمسلمين في جميع الأمور ما فيه صلاح الدنيا والآخرة)[3].

أما فوائد غزو التتار الاقتصادية والمعنوية؛ فيقول الشيخ في بيانها: (ثم في الحركة في سبيل الله أنواع من الفوائد:

إحداها: طمأنينة قلوب أهل البلاد حتىٰ يعمروا ويزدرعوا، وإلّا فما دامت القلوب خائفةً لا يستقيم الحال.

الثانية: أن البلاد الشمالية كحلب ونحوها فيها خير كثير، ورزق عظيم ينتفع به العسكر.

الفائدة الثالثة: أنه يُقوي قلوبَ المسلمين في تلك البلاد من الأعوان والنصحاء، ويزداد العدوُّ رُعبًا، وإن لم تَحصُلْ حركة فَتَرت القلوبُ، وربما انقلبَ قومٌ فصاروا مع العدوِّ، فإنَّ النَّاسَ مع القائم.

---

(١) عين جالوت وقعت في عهد قطز وهولاكو سنة ٦٥٨هـ، والفرات وقعت في عهد الظاهر بيبرس وآباقا بن هولاكو سنة ٦٧١هـ، وتسمى معركة البيرة، والروم وقعت في نفس العهد سنة ٦٧٥هـ، وتسمى معركة البستان.

(٢) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٥).

(٣) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٦).

ولما جاء العسكر إلىٰ الشام كان فيه مصلحةٌ عظيمةٌ، ولو تقدَّمَ بعضُهم إلىٰ الثَّغْر كان في غايةِ الجَودة.

الفائدة الرابعة: أنهم إن ساروا أو بعضُهم حتىٰ يأخذوا ما في بلد الجزيرة من الإقامات والأموال السلطانية من غير إيذاء المسلمين كان من أعظم الفوائد، وقد هُيِّئ لهم في البلاد إقامات كثيرة من الشعير وغيره، والمسلمون هناك يدعون الله أن يكون رزق المسلمين.

وإن ساروا قاطنين متمكنين نَزَلتْ إليهم أمراءُ تلك البلاد من أهل الأمصار والجبال، واجتمعت جنود عظيمة، فإن غالب أهل البلاد قلوبهم مع المسلمين، إلَّا الكفَّار من النصارىٰ ونحوهم، وإلَّا الروافض، فإن أكثر الروافض ونحوهم من أهل البدع هواهم مع العدوِّ...)[1].

ويحذِّر الشيخُ السلطانَ من عواقب ترك الجهاد، من الذُلِّ، وزوال الدُّول، وحدوث الفرقة والاختلاف. يقول: (فمن تَركَ الجهادَ عذَّبه الله عذابًا أليمًا بالذُّلِّ وغيرِه، ونَزَعَ الأمرَ منه فأعطاه لغيره، فإنَّ هذا الدِّين لمن ذَبَّ عنه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: (عليكم بالجهاد، فإنه بابٌ من أبواب الجنة، يُذهِب الله به عن النفوس الهمَّ والغمَّ)، وقال ﷺ: (لن يُغلَب اثنا عشر ألفًا من قلَّةٍ وقتالٍ، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العُسْر يُسرًا).

ومتىٰ جاهدَتِ الأُمَّةُ عدوَّها ألَّف الله بين قلوبِها، وإن تركتِ الجهادَ شغَلَ بعضَها ببعض)[2].

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٤-٣٠٥).
(٢) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٠).

ثم يحث الشيخ علىٰ الجهاد بالأموال والإنفاق في سبيل الله فيقول: (والجهادُ واجب علىٰ كل مسلم قادرٍ، ومن لم يَقدِر أن يجاهد بنفسه فعليه أن يجاهد بمالِه إن كان له مالٌ يتَّسَع لذلكٍ، فإن الله فرض الجهاد بالأموال والأنفس، ومن كَنَزَ الأموالَ عند الحاجة إلىٰ إنفاقها في الجهاد، من الملوك أو الأمراء أو الشيوخ أو العلماء أو التجَّار أو الصُّنَاع أو الجند أو غيرهم، فهو داخل في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، خصوصًا إن كانت الأموالُ من أموال بيت المال، أو أموالًا أُخِذتْ بالربا ونحوه، أو لم تُؤَدَّ زكاتُها ولم تُخرَج حقوقُ الله منها.

وكان النبي ﷺ يحضُّ المسلمين علىٰ الإنفاق في سبيل الله، حتىٰ إنه في غَزَاة تبوك حَضَّهُم، وكان المسلمون في حاجةٍ شديدة، فجاء عثمان بن عفان بألفِ راحلةٍ من ماله في سبيل الله بأَحْلاسِها وأَقْتابِها، وأعوزتْ خمسين راحلة فكمَّلها بخمسين فرسًا، فقال النبي ﷺ: (ما ضَرَّ عثمانَ ما فَعَلَ بعدَ اليوم).

وذمَّ الله المُخلَّفين عن الغزو في سورة براءة بأقبح الذمِّ حين قال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٩])[1].

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٢٩٨-٢٩٩).

الفصل الرابع

معركة الأحزاب في الشام!

(حملة قازان على بلاد الشام سنة ٧٠٠هـ)

أولًا

تحرك الغزاة

مع حلول فصل الخريف بداية سنة ٧٠٠هـ؛ بدأت تجهيزات التتار لغزو الشام مرة أخرىٰ[١]، ثم السير منها إلىٰ مصر، كما كان قازان قد توعد قُبيل مُغادرته دمشق في سنة ٦٩٩هـ. وعبروا الفرات في ربيع الآخر، وجفلت المسلمون منهم، وخلت بلاد حلب[٢]، وكثرت الأراجيف بدمشق، وبدأ الناس يتحدَّثُون بالهرب منها، والتوجه إلىٰ مصر، وإلىٰ حصون الشام[٣].

سعىٰ نائبُ السلطنة بدمشق الأمير جمال الدين الأفرم إلىٰ ضبطِ حركة الخروج إلىٰ مصر، فنُودِي بالبلد ألَّا يسافرَ أحدٌ إلا بمرسوم، أو ورقة طريق، وذلك في ٣/ ٢/ ٧٠٠ هـ[٤]. ووصلت الأخبار في يوم السبت ١٤/ ٢/ ٧٠٠هـ بتحرُّك السلطان الناصر، والجيش المصري إلىٰ الشام لمُلاقاة التتار[٥]، إلا أن الناس استمرُّوا في الهروب إلىٰ مصر[٦]، قال البرزالي: (ولم يزل الناس في شهر صفر في هيازع، ورجفات، وأمر كبير بدمشق)[٧]، وخرج الأمير الأفرم للرباط في المرج في هذا الشهر.

---

(١) «جامع التواريخ» (ص٢٥٠).
(٢) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٤٥).
(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١١٨).
(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٢٠-١٢١).
(٥) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٢٤).
(٦) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٢٤-١٢٥).
(٧) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٢٥).

عقدُ ابن تيمية المجالسَ العامَّةَ لتثبيت الناس في الجامع الأموي:

قال البِرْزالي: (واستهل شهر صفر (سنة ٧٠٠هـ) والأخبار قد وصلت بقصد التتار البلاد، والناس بدمشق مُهتمُّون بأمر الهرب إلىٰ الديار المصرية والكرك وغيرهما، والأراجيف تتبعُ بعضها بعضًا، والإزعاج وافر، والصدور ضيقة، وغلت الأكرية، وبلغ كرىٰ المحارة إلىٰ مصر خمس مائة درهم، وبلغ ثمن الجمل ألف درهم، وثمن الحمار خمس مائة درهم، وباع الناس الأمتعة بالثمن البخس من الحلي والنحاس والقماش، وطاشتِ الألباب، وتحيَّر النَّاس، وتَفرَّقت القُلُوب.

وجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية في مكانه بالجامع يوم الاثنين ثاني صفر يفسر آيات الجهاد، ويحضُّ الناس علىٰ لقاء العدو، وعلىٰ الغزو [والإنفاق في سبيل الله، ويوجه وجوب قتالهم، ويُقلِّلُ عدَدَهم]، ويُضعِّف أمرَهم، ويُوبِّخ من قصد الهرب، ويحضُّه علىٰ إنفاق مقدار ما يُخرِجه في ذلك للغزو، واستمرَّ يجلس أيامًا متوالية)[1].

وسجَّلَ ابن تيمية شيئًا من إنكاره علىٰ الهاربين من دمشق فقال: (قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ فهُم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتَجُّون بحُجَّة العائلة.

وهكذا أصابَ كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صارُوا يَفرُّون من الثَّغر إلىٰ المعاقل والحصون، وإلىٰ الأماكن البعيدة؛ كمصر، ويقولون: ما مقصودُنا إلا حفظُ العيال، وما يُمكِنُ إرسالُهم مع غيرِنا، وهُم يكذِبُون في ذلك، فقد كان يُمكِنُهم جعلهم في حصن دمشق لو دَنَا العدوُّ، كما فعل المُسلِمُون علىٰ عهد

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٤٤).

رسول الله ﷺ، وقد كان يُمكِنُهم إرسالُهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فرَّ بعد إرسال عيالِه؟)[1].

(قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الأحزاب:١٦] فاقتضىٰ ذلك: أنَّ الفِرَار من الموت أو القتل ليس فيه منفعةٌ أبدًا، وهذا خبرُ الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعُه فقد كذب الله في خبرِه.

والتجربةُ تدلُّ علىٰ مثل ما دلَّ عليه القرآن، فإن هؤلاء الذين فرُّوا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم، بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب، والمُرابطون الثابتون نفَعَهُم ذلك في الدين والدنيا حتىٰ الموت الذي فروا منه كثُرَ فيهم، وقلَّ في المقيمين، فمات معَ الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو، والمعاقبون له: لم يَمُت مِنهُم أحدٌ ولا قُتِل، بل الموت قلَّ في البلد من حين خرج الفارُّون، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثًا)[2].

كما أن الشيخ يذكر في موضع آخر أنه كان يعتمد ما ثبت للشام من فضائل في أمر المسلمين بلزوم دمشق، وسيأتي ذكر لفظه[3].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٠٧).

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٠٩).

(٣) هو في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٥).

ثانيًا

موقف العسكر المصري الملتبس.. وهلع الشام

سكنت أخبار التتار في شهر ربيع الأول من سنة ٧٠٠هـ، وتحَقَّقَ وصول السلطان إلىٰ غَزَّة، أو تجاوزه لها، قاصدًا الشام[١].

وفي شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة عادتْ أخبارُ التتار، وأنَّ قومًا منهم دخلُوا البلاد، ورجعَ الناس إلىٰ الخوف والإرجاف والإزعاج، ونُودِي بدمشق يوم الاثنين ١٢/ ٤/ ٧٠٠هـ أن يخرج الناس بأجمَعِهم كبيرُهم وصغيرُهم مع العسكر الشامي[٢]، وفي يوم الأحد ٢٥/ ٤/ ٧٠٠هـ قنَتَ الإمام بدر الدين ابن جماعة في الصلوات الخمس، وتبِعَه جماعة من الأئمة، ونودي بتطييب القلوب، وأن السلطان والعساكر واصلة، وكان الناس قد اشتدَّ بهم الأمر لكثرة أخبار التتار وقربهم، وأنهم بحلب ونواحيها، وأن نائب حلب تأخر إلىٰ حماة، وما أشبه ذلك من الأخبار المرجفة، وتجَهَّزَ الناس من دمشق، واجتمع خلقٌ كثيرٌ للهُروب[٣].

مع هذا السعي الذي قامت به الدولة المملوكية في دمشق للمحافظة علىٰ تماسُك الأمر، إلا أن العقد قد انفرط بعد يومين، فالسلطان الناصر والجيش المصري رجعوا إلىٰ مصر، فتشوَّشَت الخواطرُ، وأيقن الناس بالهرب علىٰ أيِّ حالٍ كانت[٤].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٢٦).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٠).

(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣١-١٣٢).

(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٢).

قال البرزالي: (واستهل جمادىٰ الأولىٰ والناس في رجفات، وخوف، ووجل، وشدة، وأرباب المناصب قد ضاقت صدورهم وتمَنَّوا الهَرَب، وأن يؤذن لهم في ذلك، والناس في خوف من عدم قدوم العساكر والسلطان، وقاسىٰ الناس شدَّة شديدة، ويقولون: أين العسكر؟ وما هذه أحوال من نيَّته الحضور، وهؤلاء قد تركوا الشام، وإنما يقاتلون عن ديار مصر، وما شابه ذلك.

وصلىٰ الناس الجمعة مستهل جمادىٰ الأولىٰ وعليهم كآبة وحزن يشبه يوم وصول خبر الكسرة في العام الماضي، والناس يتجهزون إلىٰ ديار مصر، وتزلزل من كانت نيته الإقامة، ولم يبقَ من يمكنه التحيل في السفر إلا القليل من الناس، وبقي ضعفاء الناس ينتظرون قدوم التتار، مع أنه نودي في البلد عقيب صلاة الجمعة بتطييب القلوب، ولم يركن الناس إلىٰ ذلك)[1].

ويصف ابن تيمية حال الناس بعد علمهم برجوع الجيش المصري فيقول: (فزاغَتِ الأبصارُ زيغًا عظيمًا، وبلَغَتِ القُلُوب الحناجر؛ لعظم البلاء؛ لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلىٰ مصر، وبقُرب العدو وتوجُّهِهِ إلىٰ دمشق، وظن الناس بالله الظنون:

هذا يَظُنُّ أنَّه لا يقف قُدَّامهم أحدٌ من جند الشام حتىٰ يصطلموا أهل الشام.

وهذا يَظُنُّ أنهم لو وقفوا لكسروهم شر كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر.

وهذا يَظُنُّ أن أرض الشام ما بقيت تُسكَن، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام.

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٣).

وهذا يَظُنُّ أنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلىٰ مصر فيستولون عليها، فلا يقف قُدَّامَهم أحدٌ، فيحدث نفسه بالفرار إلىٰ اليمن ونحوها.

وهذا -إذا أحسن ظنه- قال: إنهم يملكونها العام كما ملكوها عام هولاگو سنة سبع وخمسين، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم كما خرج ذلك العام، وهذا ظنُّ خيارهم.

وهذا يَظُنُّ أنَّ ما أخبرَهُ به أهلُ الآثار النبوية، وأهل التحديث والمبشرات: أمانيُّ كاذبة، وخرافات لاغية.

وهذا قد استولىٰ عليه الرعبُ والفزعُ، حتىٰ يمرُّ الظنُّ بفؤاده مرَّ السحاب، ليس له عقل يتفهَّم، ولا لسانٌ يتكلم.

وهذا قد تعارَضَت عنده الأمارَات، وتقابَلَت عنده الإرادات، لا سيما وهو لا يفرق من المُبشِّرات بين الصادق والكاذب، ولا يُميِّز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء؛ بل إما أن يكون جاهلًا بها، وقد سمعها سماع الغبراء، ثم قد لا يتفطَّنُ لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه مُعارِضٌ لها في بادئ الروِيَّة.

فلذلك استولت الحيرة علىٰ من كان مُتَّسِمًا بالاهتداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]؛ ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يُكفِّر به خطيئاتِهم، ويرفعُ به درجاتِهم، وزُلزِلُوا بما يحصُل لهم من الرجفات، ما استوجبوا به أعلىٰ الدرجات)[1].

تطور الأمر إلىٰ أن صار الحث علىٰ السَّفَر من دمشق يصدر من بعض أرباب الدولة، ففي يوم السبت ٩/ ٥/ ٧٠٠هـ أصبح الناس في خوف عظيم، وذلك

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص١٩٩-٢٠١).

أن والي المدينة ابن النحاس[1] جفَّل الناس بنفسه، وصار يمرُّ علىٰ الناس في الأسواق، ويقول: ما يجلسكم؟ وفي أي شيء أنتم قعود؟ سافروا! كلُّ قادرٍ لا يقعُد[2]. ونودي في اليوم التالي: من قصده الجهاد يتهيأ له، ومن هو عاجز عن ذلك فليسافر من البلد، وينجو بنفسه وأهله[3].

وتحدَّث الشيخُ عن الأراجيف المتنوعة التي انتشرت في الشام في تلك اللحظات العصيبة من جهة أهل النفاق وغيرهم، فقال: (وهكذا لما قَدِم هذا العدوُّ كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقُوم؛ فينبغي الدخول في دولة التتار!

وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تُسكَن؛ بل ننتقل عنها إما إلىٰ الحجاز واليمن، وإما إلىٰ مصر!

وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخولُ تحت حكمهم!

فهذه المقالاتُ الثلاث قد قيلت في هذه النازلة. وهكذا قال طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة، والشامِ عامَّة: لا مقام لكم بهذه الأرض)[4].

---

(١) قال ابن السبكي في «مُعيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم» (ص٤٠): (الوالي: كان هذا الاسمُ قديمًا لا يُسمَّى به إلا نائبُ السلطان، وهو الآن اسمٌ لمن إليه أمرُ أهل الجرائم من اللُّصُوص والخَمَّارين وغيرِهم).
(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٤).
(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٥).
(٤) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٠٥).

ينظر المؤرخون في تحليل سبب عودة السلطان والجيش المصري من زوايا مختلفة، فيذكر اليونيني (أنهم لاقوا شِدَّةً ومَشقَّةً عظيمةً من كثرة الأمطار والثُّلوج والأوحال، بحيث انقطعتِ الطُّرُق، وعُدِم جلبُ المأكول لهم ولدوابِّهم، حتىٰ إنهم لم يقدروا علىٰ الوصول إلىٰ دمشق)[1]، في حين يذكر الذهبي في سبب ذلك وقوع الخوف والجُبنِ في قلوب الجيش المصري، فيقول: (وساق بتخاص المنصوري إلىٰ السلطان، وهو نازلٌ علىٰ بَدْعَرْش بقرب قاقون ليُخبِرَه بأن العدُوَّ في البلاد، وقد قربوا، فضعفَ الجيش عن اللقاء، وجبنوا، ورحل السلطان إلىٰ الديار المصرية...)[2]، ولا مانع من اجتماع هذين السببين.

رسالة ابن تيمية إلىٰ عموم المسلمين:

جاءت رسالة الشيخ إلىٰ (من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين)، للحثِّ علىٰ قتال التتار، وقد ذُكِر أنها كتبت بعد انصراف الجيش المصري[3].

تحدَّث الشيخ في رسالته عن قتال التتار من الجانب الشرعي: من جهة حُكمِه، ومن جهة فضله، ومن الجانب القدري: ما فيه من المنح، وأن عاقبته النصر للمسلمين.

ففي بيان حكمه: قرر الشيخ في رسالته وجوبَ قتال التتار، فبعد أن ذكر أصناف هؤلاء التتار، واستحقاق كل صنف منهم القصد بالقتال، ولو كانوا في

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٥٧).
(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧١٨).
(٣) نشرها ابن قاسم في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤١٠-٤٢٣) وصدرها بهذه الجملة: (وكتب شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، قدَّس الله روحه، لما قدم العدو من التتار سنة تسع وتسعين وستمائة إلى حلب، وانصرف عسكر مصر، وبقي عسكر الشام). والتأريخ بسنة ٦٩٩هـ غلط، بل كان الحدث المذكور سنة ٧٠٠هـ.

ديارهم، لكونهم كفارًا أصليين، أو مرتدين عن الإسلام، أو مرتدين عن شرائعه، أو داخلين فيه دون التزام شرائعه؛ ذكر إضافتهم لذلك العدوان علىٰ المسلمين، ما يؤكد استحقاقهم للقتال. قال: (هذا إذا كانوا قاطنين في أرضهم؛ فكيف إذا استولوا علىٰ أراضي الإسلام من العراق وخراسان والجزيرة والروم؟ فكيف إذا قصدوكم وصالوا عليكم بغيًا وعدوانًا؟)[1].

وقد حفظ ابنُ مُفلح تقرير شيخه في وجوب دفع التتار ودونه في «كتاب الفروع»، حيث يقول: (وقال شيخنا: جهاد الدافع للكفار يتعيَّنُ علىٰ كل أحد، ويحرم فيه الفرار من مثليهم؛ لأنه جهاد ضرورة لا اختيار، وثبتوا يوم أحد والأحزاب وجوبًا، **وكذا لما قدم التتار دمشق**)[2].

أما في بيان فضل قتال التتار: فيورد الشيخ الآيات والأحاديث في فضل الجهاد والرباط، وما في ذلك من رفعة الدرجات، وتكفير السيئات.

وبعض تعليقات الشيخ علىٰ الأحاديث تناسب الظرف الذي كانت فيه هذه الحملة، وهو فصل الشتاء، فقال عقب ذكره لحديث النبي ﷺ: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله علىٰ النار): (فهذا في الغبار الذي يُصيب الوجهَ والرِّجلَ، فكيف بما هو أشقُّ منه؛ كالثلج والبرد والوحل، ولهذا عاب الله عز وجل المنافقين الذين يتعلَّلُون بالعوائق كالحرِّ والبرد، وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد؛ فيقال: نارُ جهنم أشدُّ بردًا! كما أخرجاه في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (اشتكت النار إلىٰ ربها فقالت: ربي أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير

---

(١) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤١٦).

(٢) «الفروع» (١٠/ ٢٠٤).

جهنم)، فالمؤمنُ يدفع بصبرِه علىٰ الحر والبرد في سبيل الله حرَّ جهنم وبردَها، والمنافق يفرُّ من حرِّ الدنيا وبردِها حتىٰ يقع في حر جهنم وزمهريرها)[1].

وفي حثِّ أصناف المسلمين علىٰ القتال يقول الشيخ: (ولا يفوِّت مثل هذه الغزاة إلا من خسرت تجارتُه، وسفِهَ نفسَه، وحُرِم حظًّا عظيمًا من الدنيا والآخرة، إلا أن يكون ممن عذر الله تعالىٰ؛ كالمريض والفقير والأعمىٰ وغيرهم، وإلا فمن كان له مال وهو عاجزٌ ببدنه؛ فليغزُ بماله، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (من جهز غازيًا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا).

ومن كان قادرًا ببدنه، وهو فقيرٌ فليأخذ من أموال المسلمين ما يتجهَّز به، سواء كان المأخوذ زكاة، أو صلة، أو من بيت المال، أو غير ذلك، حتىٰ لو كان الرجل قد حصل بيده مال حرام، وقد تعذَّرَ ردُّه إلىٰ أصحابه لجهله بهم ونحو ذلك، أو كان بيده ودائع أو رهون أو عوارٍ قد تعذر معرفة أصحابها، فلينفقها في سبيل الله، فإن ذلك مصرفها.

ومن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد؛ فإن الله عز وجل يغفر ذنوبه كما أخبر الله في كتابه بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، ومن أراد التخلص من الحرام والتوبة، ولا يمكن ردُّه إلىٰ أصحابه، فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه، فإن ذلك طريق حسنة إلىٰ خلاصه مع ما يحصل له من أجر الجهاد، وكذلك من أراد أن يكفر الله عنه سيئاته في دعوىٰ الجاهلية وحميتها، فعليه بالجهاد)[2].

---

(١) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤١٩).

(٢) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢١-٤٢٢).

وفي بيان عاقبة هذا القتال: بشَّر الشيخ المسلمين بالنَّصر المبين تحقيقًا ويقينًا، قال: (واعلموا -أصلحكم الله- أن النصرة للمؤمنين والعاقبة للمتقين، وأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وهؤلاء القوم مقهُورون مقمُوعون، والله سُبحانَه وتعالىٰ ناصرُنَا عليهم، ومنتقمٌ لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فأبشِرُوا بنصر الله تعالىٰ وبحسن عاقبته ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩]، وهذا أمر قد تيقنَّاه وتحقَّقْناه، والحمد لله رب العالمين)[1].

وفي الجانب القدري أيضًا: بيَّن الشيخ أن نازلة التتار وإن كان ظاهرها أنها محنةٌ؛ فهي في حقيقتها وباطنها منحةٌ عظيمةٌ تستحق الشكر، امتن الله بها علىٰ أهل ذلك الزمان، إذ هيأ لهم فرصةً للحاق بركب المجاهدين لأعداء الله تعالىٰ من الكفار والمنافقين من أهل الجيل الأول من المسلمين، من الصحابة والتابعين ﷺ. يقول: (واعلموا -أصلحكم الله- أن من أعظم النعم علىٰ من أراد الله به خيرًا: أن أحياه إلىٰ هذا الوقت الذي يُجدِّد الله فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين، حتىٰ يكون شبيهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان؛ الذين ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠].

فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله تعالىٰ علىٰ هذه المحنة التي حقيقتها منحةٌ كريمةٌ من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة، حتىٰ -والله- لو كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار -كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي،

---

(١) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤١٩).

وغيرهم- حاضرينَ في هذا الزمان، لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين)[1].

وختم الرسالة ببيان أثر الجهاد في وحدة الأمة: (فالله! الله! عليكُم بالجماعة، والائتلاف علىٰ طاعة الله ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله؛ يجمعِ الله قلوبَكُم، ويكفرْ عنكم سيِّئاتِكم، ويحصلْ لكم خيرُ الدنيا والآخرة)[2].

(١) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢٠-٤٢١).

(٢) «رسالة من ابن تيمية إلى من تصل إليه من عموم المسلمين في شأن التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٢٣).

ثالثًا

ابن تيمية مثبتًا الجيش الشامي

بعد أن وصلت الأخبار بمغادرة الجيش المصري فلسطين، ورجوعهم إلىٰ مصر، كان أمير الشام الأفرم والجيش الشامي قد ثبتوا للقاء العدو، فخرج الشيخُ إلىٰ الأمير ليقوِّيَ عزمه.

قال البِرْزالي: (وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية مُستهلَّ جُمادىٰ الأولىٰ إلىٰ المرج إلىٰ المخيم، فاجتمعَ بنائب السلطنة (الأفرم)، وسكَّنَه، وثبَّتَه، وأقامَ عندَه إلىٰ بُكرة الأحد ثالث الشهر (٣/ ٥/ ٧٠٠هـ)...)[١].

ويذكر الشيخ أنه كان يثبت الجيش الشامي بذكر ما ثبت للشام من فضائل، وسيأتي ذكر عبارته[٢].

يقول الذهبي في وصف الشيخ: (أحيا الله به الشام - بل والإسلام - بعد أن كاد ينثلم بتثبيت أولي الأمر، لما أقبل حزب التتر والبغي في خيلائهم، فظُنَّتْ بالله الظنون، وزُلزِل المؤمنون، واشرأَبَّ النفاق، وأبدىٰ صفحته)[٣].

ثم قام شقيق الشيخ شرف الدين عبد الله وجمعٌ من أصحابه بالعمل نفسه، فخرجوا لتشجيع الأفرم علىٰ الجهاد، قال البِرزالي: (وفي يوم الخميس رابع عشر جمادىٰ الأولىٰ (١٤/ ٥/ ٧٠٠هـ) وصل من المرج الشيخ زين الدين الفارقي،

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٣).

(٢) وهي في «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٥).

(٣) نقله ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٩٧) عن «معجم الشيوخ» للذهبي.

والشيخ إبراهيم الرقِّي، وشرف الدين ابن تيمية، وابن قوام، وابن جبارة، ومن معهم، وكانوا اثني عشر رجلًا، غابوا أربع ليال عن البلد، وكانوا قصدوا نائب السلطنة (الأفرم)، وحَرَّضُوه علىٰ الجهاد، وشكوا إليه ما وقع في البلد من الجلاء)[1].

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٦).

رابعًا

ابن تيمية في القاهرة مُستَصْرخًا بالسلطان والأعيان لحماية الشام

بعد أن ودَّع الشيخُ نائبَ السلطنة بدمشق يوم الأحد ٣/ ٥/ ٧٠٠هـ، ساق علىٰ خيل البريد إلىٰ الجيش المصري، فما أدركهم إلا بعد دخولهم القاهرة. وصل الشيخُ إلىٰ القاهرة لما وصلها الجيش المصري يوم الاثنين ١١/ ٥/ ٧٠٠هـ.

كانت غاية الشيخ من السفر للقاهرة: هي استنصار الأمراء وأرباب الدولة هناك للقيام بواجبهم في نصرة الشام وأهلها. اجتمع الشيخ بالسلطان والأمراء، وحثهم علىٰ الجهاد ونُصرَة الشام، بقُوَّةٍ وصَرَامة.

قال البِرْزَالي: (وتكلَّم مع السلطان، والنائب، والوزير، والأمراء الأكابر أهل الحل والعقد في أمر الجهاد، وكسر هذا العدوِّ المخذول وقهرِه، والظفر به، وإصلاح أمر الجند، وتقوية ضعفائهم، والنظر في أرزاقهم، والعدل في ذلك، وأمرهم بإنفاق فضول أموالهم في هذا الوجه، وتلا عليهم آيةَ الكنز، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] الآيات)[١].

وقال ابنُ عبد الهادي: (فاجتمع بأركان الدَّولَة، واستصْرَخ بهم، وحضَّهُم علىٰ الجهاد، وتلا عليهم الآيات والأحاديث، وأخبَرَهم بما أعدَّ الله للمجاهدين من

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٨).

الثواب، فاستفاقوا، وقويت هِمَمُهم، وأبدوا له العُذرَ في رجوعهم مما قاسوا من المطر والبرد ببدعرش، ونودي بالغزاة، وقوي العزم، وعظَّمُوه، وأكرَمُوه، وتردَّد الأعيان إلىٰ زيارته)[1].

ويذكر الشيخ أنه كان يستحث العسكر المصري علىٰ حماية الشام بذكر ما ثبت للشام من فضائل: (ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء، وهي أحد ما اعتمدته في تحضيضي المسلمين علىٰ غزو التتار وأمري لهم بلزوم دمشق، ونهيي لهم عن الفرار إلىٰ مصر، واستدعائي العسكر المصري إلىٰ الشام، وتثبيت الشامي فيه)[2].

كما يذكرُ ابنُ كثير بعض العبارات التي استحثَّ بها الشيخُ الأمراء علىٰ حماية الشام، فمنها أنه قال: (إن كُنتُم أعرضتُم عن الشام وحمايَتِه، أقمنَا له سُلطانًا يحوطُه، ويحميه، ويستغلُّه في زمن الأمن). وقال: (لو قُدِّر أنكم لستم حكام الشام، ولا ملوكه، واستنصركم أهلُه؛ وجب عليكم النَّصرُ، فكيف وأنتم حُكَّامُه وسلاطينه، وهم رعاياكم، وأنتم مسؤولون عنهم؟!)[3]، ويذكر ابن رجب أن الشيخ تلا عليهم آيات الجهاد، وقال: (إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم، فإن الله تعالىٰ يقيم لهم من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم). قال ابن رجب: (وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التوبة: ٣٩])، وبلغ ذلكَ الشيخَ تقيَّ الدينِ بنَ دقيق العيد -وكان هو

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص١٧١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٥٠٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٧/ ٧٣٨).

القاضي حينئذٍ- فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام)[1].

ولشهادة ابن دقيق العيد علىٰ جرأة الشيخ في مخاطبة الدولة بالحق قيمتُها الخاصة، نظرًا لما عُرِف به هو من جرأة في مخاطبتهم[2].

مكثَ الشيخُ ثمانيةَ أيام في قلعة القاهرة، وكان نزوله عند شرف الدين ابن فضل الله العمري، صاحب ديوان الإنشاء، ورُتِّب له مرتب في كل يوم، وهو دينار، ومحفية، وجاءته بقجة قماش، فلم يقبل من ذلك شيئًا[3]، ثم إنه أرسل رسالةً إلىٰ دمشق فيها أنَّه (اجتمع بجميع أركانِ الدولة، وذكر لهم حاجة المسلمين إلىٰ الإعانة والغوث، وحصل بسبَبِه همٌّ عليَّة، ونودي بالغزاة، وجرد جماعة، وقويت العزائم، ونزل بالقلعة)[4].

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥١٠).

(٢) عندما أراد سلار وبيبرس الجاشنكير استصدار فتوى من ابن دقيق العيد بأخذ أموال من الناس لنفقة الجيش للاستعداد للتتار بعد احتلال دمشق سنة ٧٠٠هـ، رفض ذلك، فاحتجوا عليه بفتوى للإمام عز الدين بن عبد السلام في عهد المظفر قطز، حيث أفتى بأخذ دينار من عامة الناس، فذكر لهم ما شرطه العز على الأمراء حين أفتى بذلك، وهو أن يتقدم كل أمير منهم ويحلف بالله أنه لا يملك فضة، ولا ذهبًا، ولا لزوجته وأولاده مصاغ، ولا غيره. قال ابن دقيق العيد: (فلما سمعوا هذا من الشيخ قام كل منهم، وأحضر من موجوده وموجود أهله من حليٍّ وغيره، ثم حلف كل واحد منهم أنه لا يملك غير ذلك، فعند ذلك كتب لهم هذه الفتوى، أما أنا فإنه يبلغني أن كل أمير يجهِّز بنته بأنواع اللؤلؤ والفصوص، ويعمل بكالى فضة لبيت الماء، وقباقيب مكللة بأصناف الجواهر، وتريد مني أن أكتب فتوى على ما لا يحل؟!) ثم قام ناهضًا وخرج، وقد أفحم كل واحد منهم عن الجواب. قال اليوسفي: (وكان الشيخ قصد بهذا تسميع الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير حيث كان كل منهما قد جهز بنته لما زوجها بما لا يوصف، ولا يضبط). نقله العيني في «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٤/ ٧٤-٧٥).

(٣) «مسالك الأبصار» (٥/ ٦٩٧-٦٩٨).

(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٨).

ومن عجيب قدر الله أن رحيل التتار عن الشام بدأ في اليوم نفسه الذي وصل فيه الشيخ إلىٰ القاهرة مستنصرًا أمراءها، ويفسر الشيخُ ذلك بأنه جزاءٌ من الله تعالىٰ للأمراء علىٰ صدقهم في استجابة الدعوة إلىٰ الجهاد، ونصرة الشام. قال: (وكان مبدأُ رحيلِ قازان فيمَن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادىٰ الأولىٰ، يوم دخلتُ مصرَ عقيب العسكر، واجتمعتُ بالسلطان وأمراء المسلمين، وألقىٰ الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه، فلما ثبَّت الله قُلوبَ المُسلمين صرفَ العدوَّ جزاءً منه وبيانًا أن النيَّة الخالِصَة والهِمَّة الصَّادِقَة ينصرُ الله بها، وإن لم يقع الفعل، وإن تباعَدَتِ الدِّيار)[1].

بعد أن أدىٰ الشيخ مُهمَّتَه، سافر من القاهرة يوم الثلاثاء ١٩/ ٥/ ٧٠٠هـ، ووصل دمشق يوم الأربعاء ٢٧/ ٥/ ٧٠٠هـ.

من أخبار ابن تيمية في مدة إقامته بالقاهرة:

ومن أخبار الشيخ في تلك السفرة القصيرة إلىٰ القاهرة: حديث جماعات من أعيان العلماء والمشايخ والكتاب معه في حقيقة مذهب الاتحادية. يقول الشيخ: (وكان الخادم -يعني نفسه- لما ذهب إلىٰ مصر -مع ضيق الوقت- تحدث معه في مذهب هؤلاء جماعات من أعيان العلماء والمشايخ والكتاب)[2].

ومن أخباره فيها: مجالسته للإمام تقي الدين ابن دقيق العيد، قاضي القضاة بالديار المصرية، وثناء ابن دقيق العيد عليه الثناء العظيم -كما يقول ابن عبد الهادي-.

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (٢٨/ ٤٣٦)، ونحوه في (ص١٩٧).

(٢) «جامع المسائل» (٩/ ٧٧).

قال ابن ناصر الدين لما ذكر خبر هذه السفرة: (فاجتمع بالشيخ أعيان البلد، ومنهم تقي الدين ابن دقيق العيد، فسمع كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقال له بعد سماع كلامه: ما كنت أظن أن الله تعالىٰ بقي يخلق مثلك.

وسئل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد بعد انقضاء ذلك المجلس عن الشيخ تقي الدين ابن تيمية فقال: هو رجل حِفْظَة. فقيل له: فهلا تكلمت معه؟ فقال: هذا رجل يحب الكلام، وأنا أحب السكوت.

وقال الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد أيضًا: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلًا العلوم كلها بين عينيه، يأخذ منها ما يُريد ويدع ما يريد)[1].

والشيخ أيضًا يثني علىٰ ابن دقيق العيد، ويسميه: (الشيخ الإمام قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد)[2].

---

(١) «الرد الوافر» (ص١١١).

(٢) «رسالة ابن تيمية إلى ناظر الجيش في شأن ابن عربي» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٧٢).

خامسًا

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾

(رجوع قازان إلى إيران)

شاء الله تعالىٰ أن تُنفَّس الكُربَة عن أهل الشام بأمرٍ من عنده، حيث خاض قازان نهر الفرات راجعًا إلىٰ إيران يوم الاثنين ١١/ ٥/ ٧٠٠هـ، وتخلف جماعة من التتار في ضعفٍ، لكن لهم عدد[1].

قال الشيخ قطب الدين اليونيني في سبب رجوعهم: (وأرسل الله عليهم -أي التتر- الأمطار والثلوج، بحيث ذكروا أهل تلك البلاد أنهم أُمطِرُوا أحدًا وأربعين يومًا، وقتًا مطرًا ووقتًا ثلجًا، بحيث هلك عالم كثير، ورجعوا التتر إلىٰ بلادهم أنحس من مكسورين، وقد تَلِفَت خيولُهم، وهلك أكثرُها، وعجَّزهم الله تعالىٰ عمَّا كانوا قد عزموا عليه من دخولهم إلىٰ البلاد، وهلاكهم لعباده: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وعجَّز الله الجيشين عن ملتقاهم لبعضهم بعضًا، ووصل الأخبار برجوعهم في شهر جمادىٰ الآخرة)[2].

وقال ابن تيمية بعد أن تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾: (فإنَّ الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَّبَا: ريح شديدة باردة، وبما فرَّق به بين

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٧).

(٢) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٥٩).

قلوبهم حتىٰ شتَّتَ شملهم ولم ينالوا خيرًا؛ إذ كان همُّهم فتح المدينة، والاستيلاء عليها، وعلىٰ الرسول ﷺ، والصحابة، كما كان همُّة هذا العدو فتحَ الشام، والاستيلاء علىٰ من بها من المسلمين، فردَّهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجزع المزعج ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتىٰ طلبوا الاستصحاء غير مرة، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسرٌّ؛ فلا تكرهوه، فكان من حكمته: أنه -فيما قيل- أصابَ قازان وجنوده حتىٰ أهلكهم، وهو كان -فيما قيل- سببَ رحيلهم، وابتُلِي به المُسلمون ليتبيَّن من يصبِرُ علىٰ أمر الله وحكمه، ممن يفرُّ عن طاعته وجهاد عدوه)[1].

وقال: (وكان عامَ الخندق بردٌ شديد، وريحٌ شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

وهكذا هذا العام؛ أكثر الله فيه الثَّلجَ، والمَطَر، والبردَ، علىٰ خلاف أكثرِ العادات، حتىٰ كرِهَ أكثرُ الناس ذلك، وكنَّا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإن لله فيه حكمةً ورحمةً.

وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلجُ والمطرُ والبردُ، حتىٰ هلك من خيلِهم ما شاء الله، وهلك أيضًا منهم من شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم الضعفُ والعجزُ بسبب البرد والجوع؛ ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال، حتىٰ بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشمال أنه قال:

---

(١) «العُقُود الدُّرِّيَّة» (ص٢٢٠-٢٢١).

لا بيض الله وجوهنا، أعدُوُّنا في الثلج إلىٰ شعره، ونحن نعود لا نأخذهم؟ وحتىٰ علموا أنهم كانوا صيدًا للمسلمين لو يصطادونهم، لكن في تأخير اللهِ اصطيادَهم حكمة عظيمة)[١].

وذكر في سبب رجوعهم أيضًا: (أن الله فرَّق بين قُلُوب هؤلاء المغُل والكرج، وألقىٰ بينهم تباغُضًا وتعاديًا، كما ألقىٰ سُبحانَه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود، كما ذكر ذلك أهل المغازي)[٢].

وقال في رسالته إلىٰ ملك قبرص: (ثم أقبلَ العدو بجحافله في العام الثاني، فانتظره المسلمون ليقدم، فامتلأ قلبه رعبًا، وعذبه الله بأنواع العذاب، وأهلك النفوس والخيل، وانصرف خاسئًا وهو حسير، وصدق الله وعده، ونصر عبده)[٣].

وبدأت الأخبار السارَّة ترد إلىٰ دمشق شيئًا فشيئًا، قال البرزالي: (والنصفُ الأوَّل من جُمادىٰ الأولىٰ كان أشدَّ علىٰ الناس مما تقدَّمَه، والنصف الثاني كان الناس في خيرٍ، وسُكون، وأخبارٍ سارَّة تردُ شيئًا فشيئًا)[٤].

وترك الناسُ القُنوتَ في الصلوات في ٣/ ٦/ ٧٠٠هـ لنزوح العدوِّ عن البلاد، وطيبِ الأخبار[٥].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص١٩٧-١٩٨).

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢١).

(٣) «الرسالة القبرصية» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦١٨).

(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٨).

(٥) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٤٠).

سادسًا

مناوشات فلول الغُزَاة في حماة.. واستعداد ابن تيمية للمشاركة

كان قازان في حملته هذه قد وصل بجيشه إلىٰ حلب، ووصل جزء من جيشه إلىٰ حماة، وسير معظم جيشه إلىٰ جبل السماق في حلب، وبلاد أنطاكيا. قال اليونيني: (فنهبوا الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حدَّ الكثرة، وسبَوا عالمًا كثيرًا من الرجال والنساء والصبيان من أهل تلك البلاد)[١].

ثم لما رجع قازان بقي طائفة من التتار في ضعف، لكن لهم عدد، وطلب نائب السلطنة بحماة الأمير قراسنقر المنصوري المدد[٢].

وفي ١٧/ ٥/ ٧٠٠هـ هاجمَ الجيشُ الحموي التتار؛ فقتلوا منهم طائفة نحوًا من المئتين، وأسروا دون العشرين، قال البرزالي: (وحصل بذلك نصرٌ وبُشرىٰ)[٣].

قال ابن تيمية: (ثم تبقَّىٰ بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرُهم، مُضافًا إلىٰ عسكر حماة وحلب وما هنالك، وثبَت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثرَ من المسلمين بكثير، لكن في ضعفٍ شديدٍ، وتقرَّبُوا إلىٰ حماة، وأذلَّهم الله تعالىٰ، فلم يقدموا علىٰ المسلمين قطُّ، وصار من المسلمين من يريد الإقدامَ عليهم، فلم يوافقه غيره، فجَرَتْ مناوشاتٌ صغار، كما جرىٰ في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرو بن عبد ود العامري لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين.

---

(١) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٤٥٨).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٧).

(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٣٧).

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد يسري إليه من المسلمين، وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم، وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات، وبعضهم في جزيرة فيها، فرأوا أوائل المسلمين، فهربوا منهم وخالطوهم؛ وأصاب المسلمون بعضهم، وقيل: إنه غرق بعضهم)[1].

وقد نوىٰ الشيخ أن يسافر إلىٰ حماة لأجل جهاد المتبقين من التتار، قبل أن يصل الخبر بانصرافهم: (وعزَمْنَا علىٰ الذَّهاب إلىٰ حماة غير مرة لأجل الغزاة، لمَّا بلغنا أن المسلمين يريدون غزوَ الذين بقوا، وثبَت بإزائهم المقدم الذي بحماة، ومن معهم من العسكر، ومن أتاه من دمشق، وعزموا علىٰ لقائهم، ونالوا أجرًا عظيمًا، وقد قيل: إنهم كانوا عدة طمانات؛ إما ثلاثة وإما أربعة، فكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقي في قلوب عدوهم الرُّعب، فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل: تيزين والفوعة ومعرة مصرين[2] وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي...)[3]. وقال: (لمَّا بقيت تلك الطائفة؛ اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم، وقصد الذهاب إلىٰ إخواننا بحماة، وتحريض الأمراء علىٰ ذلك، حتىٰ جاءنا الخبر بانصراف المُتبقِّين منهُم)[4].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٢).

(٢) قرى من شمال الشام، وتتبع تيزين اليوم مدينة حماة، وتتبع الفوعة ومعرة مصرين مدينة إدلب.

(٣) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٢-٢٢٣).

(٤) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٦).

ثم خلت مناطق الشام الشمالية من التتار بالكُليَّة في أول رجب[1]. قال ابن تيمية: (وكان عبورُهم[2] وخلوُّ الشَّامِ منهم في أوائل رجب، بعد أن جرىٰ ما بين عُبُور قازان -أولًا- وهذا العبور رجفَاتٌ ووقعاتٌ صِغَار)[3].

إذًا؛ باستثناء هذه المناوشات، لم يحصل في هذه الحملة التقاء بين الجيشين المملوكي والتتري، ولم يتمكن الجيش التتري من التوغل في الأراضي الشامية، فضلًا عن الوصول إلىٰ دمشق، كما حصل في السنة الماضية.

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٤٤).

(٢) أي عبورهم نهر الفرات راجعين إلى البلاد التي احتلوها في الجزيرة وإيران.

(٣) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٢).

سابعًا

معركة الأحزاب في الشام.. بقلم ابن تيمية

تقدَّم أنَّ الشيخَ كان قد بشَّر المسلمين بالنصر علىٰ التتار في رسالته التي كتبها لعموم المسلمين، ووصف أمر النصر بأنه أمرٌ (قد تيقنَّاه، وتحقَّقْناه).

وللشيخ في وصف هذه الحادثة رسالة خاصة كتبها فرحًا بنصر الله تعالىٰ لعباده المؤمنين؛ بردِّه التتارَ بغيظهم لم ينالوا خيرًا، ويدور الكتاب علىٰ استخلاص العبر من تلك الحادثة، بمقارنتها بغزوة الأحزاب[1].

وهذه الرسالة نصَّ الشيخ في نهايتها علىٰ تاريخ كتابتها: (كتبتُ أوَّلَ هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده لما رجعتُ من مصر في جمادىٰ الآخرة، وأشاعوا أنه لم يبقَ منهم أحد، ثم لما بقِيَتْ تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم، وقصد الذهاب إلىٰ إخواننا بحماة وتحريض الأمراء علىٰ ذلك؛ حتىٰ جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم، فكتبته في رجب)[2].

وفي هذا الكتاب يُعبِّر الشَّيخ عن أملِه في إتمامِ الله تعالىٰ نعمتَه في غزو التتار في بلادهم، وتحرير أرض العراق وغيرها من بلاد المسلمين الواقعة تحت احتلالهم: (فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيهم وهي الحصون -ويقال

---

(١) أثبتها ابن عبد الهادي في «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص١٧٣-٢٢٦)، ونشره ابن قاسم في «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٢٤-٤٦٧). وفي بعض المكتبات نسخة خطية لها سميت فيها بـ«الرسالة التتارية»، وهذه الرسالة مفيدة في التأريخ لأخبار هذه الحملة، وقد تقدم نقل كثير من النصوص منها في ما سبق.

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٦).

للقرون: الصياصي-، ويقذف في قلوبهم الرعب، وقد فعل، ويفتح الله تلك البلاد، ونغزوهم إن شاء الله تعالىٰ، فنفتح أرض العراق وغيرها، وتعلو كلمة الله، ويظهرُ دينه)[1].

كما تحدَّث الشيخ عن هذه الحادثة أيضًا في رسالته لملك قبرص، وما منَّ الله فيها من النصر ورجوع العدو الذي يقول في وصفه: (وهو الآن[2] في البلاء الشديد، والتعكيس العظيم، والبلاء الذي أحاط به)، أما حال الإسلام فوصفه بقوله: (والإسلام في عِزٍّ مُتزايد، وخيرٍ مُترافد)[3].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٣-٢٢٤).

(٢) هذا يدلُّ أن «الرسالة القبرصية» كتبت بُعيد هذه الحَمْلة، وقبل وقعة شقحب، والله أعلم، وهو ما سرت عليه في هذا الكتاب، خلافًا لـ«توماس راف»، حيث طبع هذه الرسالة في ألمانيا سنة ١٩٧١م، واستظهر (ص١٥-١٦) أنها كُتِبت بعد وقعة شقحب.

(٣) «الرسالة القبرصية» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦١٨).

الفصل الخامس

ما بين حملتي قازان الثانية والثالثة

(٧٠٠-٧٠٢هـ)

أولًا

إقامة الشريعة سبيل النصر

(فتيا ابن تيمية في كنائس القاهرة)

في شهر رجب من سنة ٧٠٠ هـ زار وزير ملك المغرب -أبي يعقوب المريني- القاهرة، وذلك في طريقه إلى الحج، واجتمع بالسلطان وبالأميرين النافذين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار.

في ظل ظروف الحرب والقلق من الخطر التتري التي تعيشها الدولة المملوكية، قدم الوزير المغربي للسلطان والأمراء نصيحة متعلقة بشأن داخلي في الدولة، بعد ما رآه من استعمال الدولة للنصارى في بعض المناصب الإدارية، وعدم إلزام أهل الذمة من اليهود والنصارى الشروطَ التي اشترطها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليهم، والتي تقتضي التمييز بينهم وبين المسلمين، قال الوزير المغربي للأمراء: (كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول، وتلبس العمائم البيض، وتذل المسلمين، وتشبههم في خدمتكم؟)[١].

يقول الشيخ قطب الدين اليونيني: (فأثر كلامه عند أرباب الدولة، وحصل له قبول، خصوصًا عند ركن الدين الجاشنكير، وكذلك باقي الأمراء، ووافقوه في ذلك، ورأوا أن في هذا الأمر مصلحة كبيرة لإظهار شعائر الدين)[٢].

---

(١) «السلوك» للمقريزي (٢ / ٣٣٧-٣٣٨)، وذكر ابن أيبك الداوداري في «تاريخه» (٩ / ٤٨-٥٠) الاستدلالات الشرعية التي استند إليها الوزير المغربي في نصيحته للمماليك.

(٢) «ذيل مرآة الزمان» (ص ٤٦١).

صدرت المراسيم السلطانية بعدم استعمال أحد من اليهود والنصارىٰ في الدواوين، وبإلزامهم الشروطَ العمرية، وإلزامهم زيًّا مميزًا عن المسلمين، فيلبس اليهود العمائم الصفر، والنصارىٰ العمائم الزرق. قال البرزالي: (وفي يوم الاثنين سابع شعبان (٧/ ٨/ ٧٠٠هـ) قرئت الشروط علىٰ أهل الذمة بحضور نائب السلطنة بدمشق وجماعة الأمراء والقضاة، واتفقت الآراء علىٰ عزلهم من الولايات، وكتبت عليهم مكاتيب بالشروط، وفيها المنع من ركوب الخيل ومن الذوائب)[١]. لما وصل المرسوم إلىٰ الإسكندرية هدم أهلها كنيستين ذكروا أنهما حدثتا بعد الإسلام. وفي القاهرة غلقت الكنائس، ثم شرعوا في هدمها.

قال اليونيني: (وجمعوا الفقهاء والقضاة بسبب ذلك، وذكروا أن القاضي نجم الدين ابن الرفعة نائب الحكم بمصر قد أفتىٰ بهدمها[٢]، فلما اجتمع القضاة والعلماء تكلموا وبحثوا زمانًا، فتكلم قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد، وأفتىٰ ببقائها، إلا أن تقوم الآن بينة أنها محدثة، فإذا ثبت ذلك وجب إخرابها[٣]،

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ١٤٨).

(٢) دون الإمام نجم الدين ابن الرفعة رحمه الله تعالى تفاصيل استدلاله لوجوب هدم كنائس القاهرة على مقتضى مذهب إمامه الشافعي رحمه الله تعالى في رسالته «النفائس في أدلة هدم الكنائس»؛ حُقِّقَت وطبعت.

(٣) نقل أبو بكر النقاش كلام اليونيني في «المذمة في استعمال أهل الذمة» (ص٥٢٣)، ثم قال معلقًا: (وهذا مما عُدَّ من أغلاطه -يعني ابن دقيق العيد- رحمه الله تعالى، وسببُ ذلك ما هو مشهور عنه من نقص بضاعته في فن النقل، وعلم السير والفتوح، وما أُخذ من بلاد الكفر عنوةً، وصلحًا، فأما النظر والاستنباط والغوص في المعاني والدقة؛ فهو كما يقال: البحر الذي لا تكدره الدلاء). وما قاله النقاش مردود بما ذكره ابن الرفعة في رسالته آنفة الذكر عن ابن دقيق العيد حيث قال فيها (ص٨١): (الصحيح كما حكاه النقلة الذين يُرجَع إلى قولهم في نقل المذاهب التي يجب على المقلدين العمل بها والفتوى: أن البلاد فُتِحَت عنوة، **وحكاه شيخ الأنام قاضي القضاة تقي الدين أبو الفتح محمد القشيري عن نص مالك في «المدونة»**).=

فوافقه الجماعة، ولم يخالفه في ذلك أحد من الجماعة الحاضرين، وانفصل الحال على ما قاله الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد رضي الله عنه)[1].

سعى اليهود والنصارى بإزاء هذا التضييق إلى إلغاء تلك المراسيم السلطانية، من خلال تقديم الرشوة. لم ينجح هذا السعي، ولم يقبل منهم شيء، (وشدد عليهم غاية ما يكون من التشديد) - كما يقول اليونيني[2]-.

وحاول النصارى أن يجدوا طريقًا شرعيًّا يستطيعون من خلاله فتح كنائسهم التي غلقت في القاهرة، فادعوا أن هذه الكنائس قديمة من زمن عمر رضي الله عنه، وأقرهم عليها، فلا يجوز هدمها.

رُفع للشيخ سؤال عن صحة هذه الدعوى التي ادعاها النصارى. جاء في نص هذا السؤال: (ما تقول السادة العلماء أئمة الدين، في الكنائس التي بالقاهرة وغيرها، التي أغلقت بأمر ولاة الأمور، إذا ادعى أهل الذمة أنها أغلقت ظلمًا، وأنهم يستحقون فتحها، وطلبوا ذلك من ولي الأمر أيده الله تعالى ونصره. فهل تقبل دعواهم؟ وهل تجب إجابتهم أم لا؟

=هذا، وقد نقل السبكي قول ابن دقيق العيد لا على أنه أفتى ببقائها -كما نقله اليونيني-، وإنما توقف في الإفتاء فيها تورعًا، واختاره، قال: (ونحن وإن توقفنا لذلك عن الحكم بهدمها، لا ننكر على من هدمها، لما قلنا، ولا على من يفتي أو يحكم بهدمها، وليس عندنا إلا مجرد الوقف. ولعل ذلك أو نحوه كان سبب توقف الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد عن موافقة ابن الرفعة، فإنه لم ينسب إليه في ذلك منع ولا إذن، وكان -رحمه الله- شديد الورع، ويحمله ورعه على توقف كثير في المواضع المحتملة في العلم). «فتاوى السبكي» (٢/ ٤٠٩).

(١) «ذيل مرآة الزمان» (ص ٤٦٢).

(٢) لم ينجح النصارى في الوصول إلى مقصودهم في إعادة فتح كنائسهم إلا بعد سنة، عندما قدمت رسل البيزنطيين -الذين كانت علاقتهم حسنة بالمماليك منذ زمن الظاهر بيبرس- تشفع في فتحها، ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر، وكنيسة ميكائيل الملكية، ثم قدمت رسل ملوك آخر ففتحت كنيسة حارة، وزويلة، وكنيسة نقولا. «خطط المقريزي» (٢/ ٣٣٩).

وإذا قالوا: إن هذه الكنائس كانت قديمة، من زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره. وأنهم يطلبون أن يقروا علىٰ ما كانوا عليه في زمن عمر رضي الله عنه وغيره من خلفاء المسلمين، وأن إغلاقها مخالف لحكم الخلفاء الراشدين. فهل القول مقبول منهم أو مردود؟)[1].

هناك طريق آخر يمكن للنصارىٰ أن يسلكوه لإعادة فتح كنائسهم، وهو استعمال الضغوطات الخارجية علىٰ الدولة الإسلامية المملوكية، وقد ورد في الاستفتاء سؤال الشيخ عن الواجب تجاه أهل الذمة إذا سلكوا هذا الطريق: (وإذا ذهب أهل الذمة إلىٰ من يقدم من بلاد الحرب، من رسول أو غيره، فسألوه أن يسأل ولي الأمر في فتحها، أو كاتبوا ملوك الحرب ليطلبوا ذلك من ولي أمر المسلمين فهل لأهل الذمة ذلك؟ وهل ينتقض عهدهم أم لا؟).

ثم يذكر السائل الأضرار السياسية والاقتصادية المحتملة إذا حصلت فعلًا الشكوىٰ من أهل الذمة لملوك النصارىٰ، ولم يجِبهم سلطان المسلمين إلىٰ مطالبهم بفتح الكنائس، ويطلب رأي ابن تيمية في ذلك: (وإذا قال قائل: إنهم إن لم يجابوا إلىٰ ذلك حصل للمسلمين ضرر، إما بالعدوان علىٰ من عندهم من الأسرىٰ، أو المساجد، وإما بقطع متاجرهم عن ديار الإسلام، وإما بترك معاونتهم لولي أمر المسلمين علىٰ ما يعتمده من مصالح المسلمين، ونحو ذلك، فهل هذا القول صواب، أو خطأ؟ بينوا ذلك مبسوطًا مشروحًا).

ثم يسأل عن ضرر مقابل لهذه الأضرار، وهو الضرر الداخلي الذي يترتب علىٰ إعادة فتح تلك الكنائس، المتعلق بمشاعر الشعب المسلم إذا قامت الدولة بهذا التصرف، وما سيترتب عليه من تغير لقلوب المسلمين علىٰ ولاة أمورهم،

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٢).

يقول: (وإذا كان في فتحها تغير قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وحصول الفتنة والفرقة بينهم، وتغيرت قلوب أهل الصلاح والدين، وعموم الجند والمسلمين علىٰ ولاة الأمور، لأجل إظهار شعائر الكفر، وظهور عزهم وفرحهم وسرورهم بما يظهرونه وقت فتح الكنائس، من الشموع والجموع والأفراح وغير ذلك، وهذا فيه تغير قلوب المسلمين من الصالحين وغيرهم، حتىٰ إنهم يدعون الله تعالىٰ علىٰ من تسبب في ذلك، وأعان عليه.

فهل لأحد أن يشير علىٰ ولي الأمر بذلك؟ ومن أشار عليه بذلك هل يكون ناصحًا لولي أمر المسلمين أم غاشًّا له؟

وأي الطرق هو الأفضل لولي الأمر أيده الله تعالىٰ إذا سلكه نصره الله تعالىٰ علىٰ أعدائه؟).

يظهر ثراء هذا الاستفتاء بالجوانب التاريخية والمصلحية، التي يمكن أن يُحتَجَّ بها لإعادة فتح كنائس القاهرة، والتي تحتاجُ إلىٰ فقيه خبير بالتاريخ، خبير بالظروف السياسية، ليجيب عنها.

تاريخ كنائس القاهرة[1]:

لما كانت دعوىٰ النصارىٰ مظلوميتهم مبنيةً علىٰ أن هذه الكنائس قديمةٌ منذ زمن الفتح الإسلامي لمصر، وأن عمر بن الخطاب ﷺ صالحهم علىٰ بقائها؛ احتاج ابن تيمية إلىٰ أن يبين أن قولهم: (إن هذه الكنائس قائمة من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وأن الخلفاء الراشدين أقروهم عليها، من الكذب؛ فإن من العلم

(١) مما يشار إليه أن الشيخ أحمد الدمنهوري -شيخ الأزهر في وقته- المتوفى سنة (١١٩٢ هـ) استفاد في كتابه «إقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة» من فتيا شيخ الإسلام في الكنائس في الجانب التاريخي المتعلق بالحالة الدينية لمصر في عصر العبيديين (ص٨٩-٩١).

المتواتر أن القاهرة بنيت بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأكثر من ثلاثمائة سنة، بنيت بعد بغداد، وبعد البصرة، والكوفة، وواسط)[1]، ولو افترض أنها قديمة؛ فإن أرض مصر فتحت عنوةً لا صلحًا، ومسألة جواز هدم كنائس أرض العنوة مسألة إجماعية بين المسلمين، فلا يكون الإمام إذا هدمها ظالمًا لأهل الذمة[2].

نعم، هناك كنائس في بر مصر أقرهم المسلمون عليها عند الفتح، لكن هذه الأرض أرض عنوة، ولم يحصل عقد صلح معهم علىٰ بقائها، وإنما هو مجرد إقرار، وقد كان ذلك الإقرار لسبب، وهو أن سكان بر مصر (الفلاحين) كانوا كلهم نصارىٰ، وهذا السبب قد زال مع زيادة عدد المسلمين وامتداد سكناهم، فلذا جاز أن يأخذ المسلمون الكنائس من النصارىٰ بعد أن أقروهم عليها[3]. وقد أخذ عمر بن عبد العزيز ﷺ كثيرًا من كنائس العنوة بعد أن كانوا قد أقروا عليها زمن الفتح الإسلامي[4].

يقرر ابن تيمية أن الكنائس إنما كثرت في مصر في زمن الدولة العبيدية الإسماعيلية، إذ كان الوزير أرمينيًّا نصرانيًّا، وقويت النصارىٰ بسببه، وبنوا كنائس كثيرة، فهذا كان سبب حدوث الكنائس في القاهرة، وليست قديمة منذ الفتح الإسلامي -كما ادعوا-.

كان سياق الصراع مع مغول إيران حاضرًا في فتوىٰ ابن تيمية، فما إن يذكر الدولة العبيدية الإسماعيلية، ويبين موقف علماء المسلمين وفقهائهم منها، كأبي

---

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٤).
(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٤).
(٣) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٨-٦٤٠).
(٤) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٠).

الحسن القدوري إمام الحنفية، وأبي حامد الإسفراييني إمام الشافعية، وأبي يعلىٰ الحنبلي إمام الحنبلية، وأبي محمد ابن أبي زيد إمام المالكية، ويذكر شيئًا من تاريخها وزوالها علىٰ يد صلاح الدين الأيوبي، حتىٰ يستطرد بذكر خطر الطوائف الباطنية من الإسماعيلية والنصيرية والرافضة الراهن، ودورهم في مناصرة التتار في زمن هولاكو، وعندما احتل قازان دمشق[1].

النظر المصلحي في مسألة كنائس القاهرة:

أما الأضرار المحتملة إذا لم يُجِبِ المسلمون النصارىٰ إلىٰ مطلبهم في فتح كنائسهم، فهي ناتجة عن (عدم معرفة حقيقة الحال) كما يقول ابن تيمية، ويجيب عن ذلك باستحضار مثالين قريبين لأميرين مسلمين قاما بالتشديد علىٰ النصارىٰ، و(لم يدخل علىٰ المسلمين بذلك إلا كل خير):

أما الأول؛ فهو فتح المسلمين لساحل الشام، في زمن السلطان المملوكي الأشرف خليل (سنة ٦٩٠هـ)، وكان ذلك أعظم المصائب عليهم، وقد ألزموهم لبسَ الغيار، ولم يحصل علىٰ المسلمين ضرر.

وأما المثال الثاني؛ فهو من بلاد إيران، لما قام الأمير نوروز بتخريب كنائس النصارىٰ واليهود سنة (٦٩٤هـ)، وألزمهم لبسَ الغيار وضرب الجزية والصغار، ولم يحصل للمسلمين ضرر[2].

اعتمد ابن تيمية -أيضًا- في عدم حصول ضرر علىٰ المسلمين في بلاد النصارىٰ إذا لم يُجِبهم المسلمون إلىٰ طلبهم في فتح الكنائس، علىٰ إدراكه

---

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٥-٦٣٧).

(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤١).

للعلاقات الدولية في ذلك الزمان، فرأىٰ أن نصارىٰ الأندلس لا يتركون المسلمين في بلادهم لحاجتهم إليهم، وإنما يتركونهم لسبب آخر، وهو الخوف من مملكة إيران، ولا عجب في ذلك، ففي مملكة إيران كان تقدم طائفة من الطوائف الدينية راجعًا إلىٰ ميول الملك، وفي وقت قازان كان الميل للمسلمين، فالمسلمون في ذلك الوقت كما يقول ابن تيمية: (أعز من النصارىٰ عند التتار، وأكرم).

ويبين ابن تيمية استغناء المسلمين عن النصارىٰ (وأن النصارىٰ إلىٰ ما في بلاد المسلمين أحوج من المسلمين إلىٰ ما في بلادهم، بل مصلحة دينهم ودنياهم لا تقوم إلا بما في بلاد المسلمين، والمسلمون -ولله الحمد والمنة- أغنياء عنهم في دينهم ودنياهم)[1].

ثم يقول: (والنصارىٰ الذين في ذمة المسلمين فيهم من البتاركة وغيرهم من علماء النصارىٰ ورهبانهم ممن يحتاج إليهم أولئك النصارىٰ، وليس عند النصارىٰ مسلم يحتاج إليه المسلمون، ولله الحمد)[2]، وهذا المعنىٰ ذكره الشيخ لملك قبرص أيضًا حيث قال: (ثم إن في بلادهم من النصارىٰ أضعاف من بقبرص من الأسرىٰ، وهم أعز عند النصارىٰ من الأسرىٰ الذين للمسلمين عند المسلمين؛ فإن فيهم من رؤوس النصارىٰ من ليس في البحر مثلهم إلا قليل، وأما أسرىٰ المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ولا من ينتفعون به...)[3].

ثم يشير ابن تيمية إلىٰ ضرورة فكاك أسارىٰ المسلمين، وأنه من أعظم الواجبات، وكأن المراد: أن إشكالية وجود أسارىٰ من المسلمين لدىٰ النصارىٰ

---

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤١).
(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٢).
(٣) «الرسالة القبرصية» (ص٨٦).

لها طريق شرعي لحلها، وهو بذل الأموال والجهود لفكاك الأسارىٰ، الذي هو من أعظم القُرُبات، لا أن يعاد فتح كنائس النصارىٰ في القاهرة[1].

أما فيما يتعلق بتأثير عدم فتح الكنائس علىٰ العلاقات التجارية مع النصارىٰ، فيقول ابن تيمية: (كل مسلم يعلم أنهم لا يتجرون إلىٰ بلاد المسلمين إلا لأغراضهم، لا لنفع المسلمين، ولو منعهم ملوكهم من ذلك لكان حرصهم علىٰ المال يمنعهم من الطاعة، فإنهم أرغب الناس في المال)[2].

أما الضرر الداخلي المتوقع لو أعيد فتح الكنائس، من إيذاء مشاعر المسلمين، وتغير قلوبهم علىٰ ولاة الأمور، ودعائهم عليهم، فيقول ابن تيمية: (من كان عارفًا ناصحًا لولي الأمر أشار عليه بما يوجب نصرَه وثباتَه وتأييدَه، واجتماعَ قلوب المسلمين عليه، ومحبَّتَهم له، ودعاءَ الناس له في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا كلُّه إنما يكون بإعزاز دين الله، وإظهار كلمة الله، وإذلال أعداء الله تعالىٰ... والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبهم واحدة، موالية لله ولرسوله ﷺ ولعباده المؤمنين، معادية لأعداء الله ورسوله ﷺ وأعداء عباده المؤمنين، وقلوبُهم الصادقة، وأدعيتهم الصالحة هي العسكر الذي لا يُغلَب والجند الذي لا يخذل، فإنهم هم الطائفة المنصورة إلىٰ يوم القيامة، كما أخبر رسول الله ﷺ)[3].

ولهذا يقرر ابن تيمية أن الإشارة علىٰ السلطان بإظهار شعائر النصارىٰ في بلاد الإسلام أو تقوية أمرهم -بوجه من الوجوه-، لا تصدر إلا من واحد من ثلاثة:

إما رجل منافق يظهر الإسلام وهو منهم في الباطن.

---

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٢).
(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٢).
(٣) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٢، ٦٤٤).

وإما رجل له غرض فاسد مثل أن يكونوا برطلوه -أي: رشوه بالمال- ودخلوا عليه برغبة أو رهبة.

وإما رجل جاهل في غاية الجهل لا يعرف السياسة الشرعية الإلهية التي تنصر سلطان المسلمين علىٰ أعدائه، وأعداء الدين[1].

إقامة الشريعة وأثرها في النصر علىٰ الأعداء:

في ظل أجواء الحرب التي كانت تعيشها الدولة المملوكية، والقلق من الخطر التتري، كان لا بد للفقيه من التذكير بأثر القيام بالشريعة، والتي من ضمنها إقامة الطريقة الشرعية في التعامل مع أهل الذمة، في حصول النصر علىٰ الأعداء، وهذا ما كان حاضرًا في فتوىٰ ابن تيمية، إذ اهتم بذكر النماذج التاريخية لسلاطين المسلمين الذين أقاموا الطريقة الشرعية في التعامل مع أهل الذمة، وكانوا مؤيدين منصورين علىٰ الأعداء.

يقول ابن تيمية: (وكل من عرف سير الناس وملوكهم رأىٰ كل من كان أنصر لدين الإسلام، وأعظم جهادًا لأعدائه، وأقوم بطاعة الله ورسوله: أعظم نصرة وطاعة وحرمة من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإلىٰ الآن)[2].

ويقول: (وصلاح الدين وأهل بيته ما كانوا يوالون النصارىٰ، ولم يكونوا يستعملون منهم أحدًا في شيء من أمور المسلمين أصلًا، ولهذا كانوا مؤيدين منصورين علىٰ الأعداء، مع قلة المال والعدد، وإنما قويت شوكة النصارىٰ والتتار بعد موت العادل أخي صلاح الدين، حتىٰ إن بعض الملوك أعطاهم بعض مدائن

---

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٢).

(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٠).

المسلمين، وحدث حوادث بسبب التفريط فيما أمر الله به ورسوله ﷺ، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[الحج: ٤١]، فكان ولاة الأمور الذين يهدمون كنائسهم، ويقيمون أمر الله فيهم؛ كعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، ونحوهما: مؤيدين منصورين، وكان الذين هم بخلاف ذلك مغلوبين مقهورين)[١].

ويقول: (وليعتبر المعتبر بسيرة نور الدين، وصلاح الدين، ثم العادل، كيف مكنهم الله وأيدهم وفتح لهم البلاد، وأذل لهم الأعداء، لما قاموا من ذلك بما قاموا به، وليعتبر بسيرة من والىٰ النصارىٰ كيف أذله الله تعالىٰ وكبته)[٢].

والدعوة للاقتداء بأُولي الأمر الصالحين، أمر يكرره الشيخ فيما يكتبه، حيث يقول في رسالته للأمير سنقرجاه التي كتبها سنة ٧٠٤هـ: (فأيُّ وليٍّ أمرٍ من أمور المسلمين أنعمَ الله عليه بحُسْن القصد، وابتغاء وجه الله، والنُّصْح لرعيَّته، وإقامة العدل بينهم؛ فإنَّ الله تعالىٰ يجعل له من الدُّعاء المستجاب، والثناء المستطاب، وجميل الأجر والثواب، ما هو من أنفع الذخائر له في الدنيا والمآب.

وإذا أراد المسلم أن يتدبَّر ذلك، فلينظر كيف شُهرة عمر بن عبد العزيز، والسلطان نور الدين الشهيد، وغير هؤلاء من ولاة الأمور، أهل الصدق والعدل، والهدىٰ والرَّشاد، ولينظر كيف شهرة قوم آخرين، أقدمهم الحجَّاج بن يوسف الثقفي، وأمثاله من أهل الظلم والعدوان، الذين لهم سمعة سوءٍ في مَحْياهم

(١) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٩).
(٢) «فتوى في كنائس القاهرة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٤٣).

ومماتهم؛ ما بين ذاكرٍ لمساويهم، وما بين داعٍ عليهم، وما بين مبغض لهم. وأولئك لهم الدعاء والثناء، وهم في الآخرة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥])[1].

(١) «جامع المسائل» (٧/ ٢٢٨).

ثانيًا

رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص

خرجت الحركة الصليبية من مجال السياسة العملي في بلاد الشام بعد فتح عكا سنة ٦٩٠هـ في عهد الأشرف خليل بن قلاوون، وطرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام، ويذكرُ أبو حفص البزار مشاركةَ الشيخ في فتح عكا: (وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورًا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها، قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره)[١]. وكان إذ ذاك قد قارب الثلاثين.

يلاحظ أن انتهاء الحركة الصليبية في بلاد الشام لا يعني انتهاء الحروب الصليبية، التي استمرت نشطة حتىٰ أواخر العصور الوسطىٰ، ولم يبقَ في يد النصارىٰ سوىٰ ثلاثة مواقع[٢]:

الموقع الأول: مملكة أرمينيا الصغرىٰ، والتي كان ضعفها يقصر بها عن أداء دور البعث لحركة صليبية جديدة، حيث لم تكن سوىٰ أداة للمغول، وقد رأىٰ بعض الباحثين أن ترويج الكُتَّابُ الأرمن في الغرب الأوروبي لاعتناق المغول للنصرانية، ولتسامحهم مع النصارىٰ؛ إنما هدف إلىٰ إقناع البابوية والدول الأوروبية بضرورة تكوين حلف معهم ومحاصرة المسلمين من الشرق والغرب[٣]. وهذا دليل علىٰ

---

(١) «الأعلام العلية» (ص٦٣-٦٤).

(٢) استفدت هذا التقسيم من كتاب «تاريخ المماليك في مصر والشام» لمحمد سهيل طقوش (ص٢٣٣).

(٣) «مملكة أرمينيا الصغرى بين المغول والمماليك (٦٢٣-٧٧٦هـ)» وهو رسالة علمية من جامعة الجزائر، قام فيه الباحث بالرجوع في التأريخ لتلك المملكة إلى نصوص أصلية لعدد من الكتاب والمؤرخين الأرمن، وقد استفدت منه في التعريف بالأرمن في الفصل الأول من هذا الكتاب.

تهالك أرباب تلك المملكة علىٰ إثبات الوجود، ولعل هذا المعنىٰ ما أشار إليه الشيخ في خطابه لملك قبرص حيث يقول: (وأخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس أن يدخل بينكم وبينه فيه، حيث منَّاكم بالغرور...).

في ذلك الوقت الذي أعقب الحملة الثانية لقازان علىٰ بلاد الشام؛ تمادىٰ العاهل الأرميني في إجرامه -بعد ما ارتكبه من جرائم في دمشق وصالحيتها- فمنع الجزية، وادعىٰ أن البلاد لقازان، فسير المماليك نحوه حملةً عسكرية تأديبية سنة ٧٠١هـ، يقول أبو الفداء -وهو أحد المشاركين في تلك الحملة-: (وانتشرت العساكر في بلاد سيس، فحرقت الزروع، ونهبت ما وجدت، ونزلنا علىٰ سيس، وزحفنا عليها، وأخذنا من سفح قلعتها شيئًا كثيرًا من جفال الأرمن)[١].

الموقع الثاني: جزيرة أرواد، التي سكنها الداوية، وبدؤوا يشنون منها الغارات علىٰ سواحل المسلمين، فحصل بذلك مضرة كبيرة علىٰ المسلمين المقيمين في السواحل، فجهز لها المماليك حملةً عسكرية بقيادة نائب السلطنة بطرابلس، وفتحوها عنوةً، وقتلوا من كان فيها، وأسروا الباقي، وكان القتلىٰ نحوًا من ألفين، والأسرىٰ قريبًا من خمسمئة[٢]. كما استولىٰ المسلمون علىٰ قلعتها. يقول اليوسفي: (كانت هذه القلعة اعتنىٰ بها وبعمارتها صاحب قبرص، مع جماعة من أكابر الفرنج علىٰ أنهم يتخذونها سكنًا لهم، ويسمونها عكا الصغيرة!)[٣].

لم يكن هذان الموقعان إذًا مما يمكن الاعتماد عليه في بعث حركةٍ صليبية جديدة، ولذا فقد وقع عبء الدفاع عن الحركة الصليبية علىٰ عاتق حكام جزيرة قبرص، وهو **الموقع الثالث** الذي بقي للصليبيين في المنطقة.

(١) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٤٧).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٠٠).

(٣) نقله العيني في «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٤/ ١٨٨).

في ذلك الوقت، كان أحد أصحاب ابن تيمية، واسمه أبو العباس المقدسي، قد حُرِّر من الأسر في جزيرة قبرص، ورجع إلىٰ دمشق، وأخبر ابن تيمية عن حال ملكها، ما شجَّع الشيخ علىٰ مخاطبته، ودار خطابه الذي حفظ في (الرسالة القبرصية) حول أمرين ذكرهما الشيخ بقوله: (لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه في الدنيا والآخرة، وهما شيئان:

أحدهما: له خاصة، وهو معرفته بالعلم والدين، وانكشاف الحق، وزوال الشبهة، وعبادة الله كما أمر؛ فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها، وهو الذي بعث به المسيح وعلمه الحواريين).

وقد أبدىٰ الشيخ استعداده إلىٰ استمرار المكاتبات والمجاوبات مع الملك من أجل هذه الغاية: (إن رأيتُ من الملك رغبة في العلم والخير كاتبتُه وجاوبته عن مسائل يسألها، وقد كان خطر لي أن أجيء إلىٰ قبرص لمصالح في الدين والدنيا؛ لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضا الله ورسوله ﷺ عاملته بما يقتضيه عمله)[1].

أما الشيء الثاني: (فللملك وللمسلمين، وهو مساعدته للأسرىٰ الذين في بلاده، وإحسانه إليهم، وأمر رعيته بالإحسان إليهم)[2].

وقد خاطب ابن تيمية الملك في ذلك بأنواع الحجج، وكان سياق الصراع مع مغول إيران حاضرًا في هذا الخطاب، ويظهر ذلك بأمور:

١- ذكر ابن تيمية إحسان المسلمين لأهل الذمة في بلادهم، ليكون ذلك داعيًا للملك للإحسان لأسرىٰ المسلمين عنده، معاملةً بالمثل، وذكرَ من ذلك: ما قام به من مخاطبة بولاي القائد التتري في فك أسرىٰ أهل الذمة الذين كانوا في قبضة التتار.

---

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٥٣).

(٢) «الرسالة القبرصية» (ص٧٦-٧٧).

٢- رهَّبَ الشيخُ الملكَ بقوة المسلمين في مواجهة التتار، ليكون في ذلك ردعٌ له ولمن تحته عن الاعتداء علىٰ حرماتِهم. يقول الشيخ مخاطبًا الملك: (وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلىٰ المسلمين لما غضب المسلمون عليهم، وتوجهوا عليهم؛ أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف، فكيف يحسن -أيها الملك- بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التي لا يرضاها عاقل؛ لا مسلم، ولا معاهد؟!)[1].

٣- ذكر الشيخ للملك أن المسلمين لم يسكتوا عن أُساراهم الذين عند التتار، ليكون ذلك تنبيهًا له علىٰ أنهم لن يسكتوا عن أساراهم الذين عنده: (وكلما كثرت الأسرىٰ عندكم كان أعظم لغضب الله، وغضب عباده المؤمنين، وأنت تعلم إذا كنا نسعىٰ في تخليص أسرىٰ النصارىٰ من أيدي التتار، وهم أقرب إلىٰ المسلمين، فكيف يمكن السكوت عن أسرىٰ المسلمين في قبرص؟! لا سيما وعامة هؤلاء الأسرىٰ قوم فقراء وضعفاء، ليس لهم من يسعىٰ فيهم)[2].

---

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٧٢).

(٢) «الرسالة القبرصية» (ص٧٨-٧٩).

ثالثًا

المراسلات بين الناصر وقازان

تدور تلك المراسلات علىٰ تبادل الاتهامات بين التتار والمماليك في تحديد المتسبب بعودة الصراع بين الطرفين، ففي رسالة قازان للسلطان الناصر سنة ٧٠٠هـ احتجاجٌ لغزوهم الشام بما قام به المماليك في ماردين، وأجاب السلطان الناصر في رسالته سنة ٧٠١هـ بأنه لو صحت دعواهم لكان الواجب أن يُقتَصَّ ممن اعتدىٰ فحسب من عسكر المماليك في تلك الأطراف، لا أن تُغزَىٰ الشام، وتُنتَهك حرمة بيت المقدس بحجة الحمية لمن اعتُدِي عليه من المسلمين في ماردين[١].

وكان حامل رسالة قازان خطيب الموصل القاضي كمال الدين موسىٰ بن يونس الموصلي[٢]، وقد سأله أمراء المماليك -فيما يذكره ابن أيبك الداوداري- عن حقيقة نية قازان، فقالوا له: أنت من كبار الأئمة والعلماء، ومن خيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك وعلىٰ كل مسلم من النصح للإسلام، ولهذا الدين، وتعلم أننا نحن ما نتعاهد الحرب والقتال إلا لقيام دين الإسلام، فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء؛ فنحن نحلف لك بالله، الذىٰ لا إله إلا هو ما يطلع أحد من خَلْق الله تعالىٰ علىٰ نصحك للإسلام، ورغبوه فيما فيه الرغبة؛ فحلف أيمانًا مؤكدة أنه ما يعلم من غازان وخواصه غير الصلح، وحقن الدماء، ورواح التجار ومجيئهم، وصلاح الرعية.

---

(١) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٥٦).

(٢) ترجمته في «المقتفي على الروضتين» (٤/ ١٩٢-١٩٣)، وهو من بيت علم، فعمه هو «شارح التنبيه» في الفقه الشافعي، وجده عالم متفنن أثنى عليه ابن الصلاح وغيره.

ثم قال لهم في أثناء كلامه: ومن المصلحة أنكم تتقوَّون، وتبقَوْن علىٰ ما أنتم عليه من الاحتراز والاهتمام لعدوكم، وأنتم لكم عادة في كل سنة تُخرِجون الجيوش لحفظ أطراف بلادكم تجاريد، فتكونون علىٰ عادتكم في ذلك، فإن كان هذا الأمر صحيحًا أو خديعة؛ ظهر لكم بعدَ ذلك، فلما سمعوا منه هذا الكلام تحققوا أنه كلام ليس فيه غش، ولا مكر منه[1].

وقد كان ابن تيمية يبين أن أقل الواجب علىٰ التتار بعد أن انتسبوا إلىٰ الإسلام هو مصالحة المسلمين، والتعاون معهم علىٰ قتال ممالك ودول الكفار الأخرىٰ: **(فهؤلاء التتار أقل ما يجب عليهم أن يقاتلوا من يليهم من الكفار، وأن يكفوا عن قتال من يليهم من المسلمين، ويتعاونون هُمْ وهُمْ علىٰ قتال الكفار)**[2].

أرسل الناصر جوابًا لغازان مع الأمير حسام الدين المجيري، والقاضي عماد الدين السكري[3]، ولم يعجب غازان جوابه، فقام باعتقال الرسولين. ولذا بدا أن من سيحدد الكلمة في صراع المسلمين مع مغول إيران هو ساحة المعركة.

---

(١) انظر رسالة قازان في «زبدة الفكرة» (ص٣٥٢)، وجواب الناصر عليها فيه (ص٣٥٧). والرسالتان في «نهاية الأرب» (٣٢/ ٣٦٥-٣٧٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥١-٥٥٢).

(٣) انظر خبر الرسولين والحوار الذي جرى بين قازان والمجيري في «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٤/ ١٦٨-١٧٢)، وقد بقي الرسولان عند التتار حتى أطلقهما خربندا في بداية عهده كما سيأتي.

الفصل السادس

الهزيمة النهائية لقازان

(وقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ)

أولًا

تحرك الغزاة.. واستعداد المسلمين للقاء

بعد مرور عامين علىٰ عودة قازان بجيشه إلىٰ إيران، قرَّر غزو الشام مرة أخرىٰ، وبدأت حركته في ٩/ ٦/ ٧٠٢هـ[١]، ووصل الرحبة في ٢٨/ ٧/ ٧٠٢هـ[٢]، إلا أن نائب السلطنة بالرحبة الأمير علم الدين الغنمي لاطفه بالكلام، وأرسل معه ابنه، فقفل قازان في ٦/ ٨/ ٧٠٢هـ راجعًا إلىٰ إيران[٣].

في وقت رجوع قازان إلىٰ إيران، كان قد أمر قادتَه بالحركة إلىٰ الشام، فتحرك قطلوشاه، وبولاي، وجوبان بجيشهم الذي قوامه (٩٠) ألفًا نحو الشام، ووصلوا إلىٰ حلب[٤].

كانت أخبارُ قدوم التتار تصل إلىٰ أهل الشام، وتُسبِّبُ لهم قلقًا وضيقًا. يقول البرزالي: (وفي شهر رجب جميعِه كان الناس في أمر شديد وضيق بسبب التتار، ودخوله البلاد، وتأخُّر المسلمين عن الحضور)[٥].

أما خطة أمراء المماليك في مصر لمواجهة حركة التتار فقد أوجزها اليوسفي بقوله: (وقع اتفاق الأمراء مع السلطان علىٰ أنَّه لا بدَّ من تجريد عسكر، ويكون صحبتهم أميرٌ كبيرٌ يشار إليه في الأمور، فإن فيه إرداعًا للعدو، وتطمينًا للإسلام

---

(١) «جامع التواريخ» (ص٢٦٩).

(٢) «جامع التواريخ» (ص٢٧٢).

(٣) «جامع التواريخ» (ص٢٧٣-٢٧٤)، «زبدة الفكرة» (ص٣٦٧).

(٤) «جامع التواريخ» (ص٢٧٤)، «زبدة الفكرة» (ص٣٧٢).

(٥) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١٥).

وأهل القلاع والنواب، ويكونون مقيمين في دمشق، فإن وجدوا حركة قازان صادقة كتبُوا إلىٰ مصر؛ فيخرج السلطان بمن بقي من الأمراء والعساكر، وإن كان قازان يبعث من يختاره من جنسه، ورأىٰ نائب الشام والأمراء أن يلاقوهم بجميع عسكر الشام، فالرأي رأيهم في ذلك، وإن بلغهم أن عسكرَ قازان كثيرون يتأخَّرُون قدامهم منزلةً بمنزلة إلىٰ أن يدركهم السلطان مع العسكر، وما نهضوا من المشورة حتىٰ وقع اتفاقهم علىٰ تعيين أمراء للتجريدة)[1].

أما أمراء المناطق الشمالية من بلاد الشام، فقد تأخَّر عسكر حلب وأمراؤها، واجتمعوا بأمراء حماة وطرابلس، وبعض الأمراء الدمشقيين الذين كانوا قد تحركوا لدعم أمراء المناطق الشمالية، واستعَدُّوا للقاء التتار. وكانتْ مجموعةٌ من التتار قد تقدَّموا إلىٰ منطقة القريتين، (فأغاروا عليها في خمسة آلاف فارس، وبها جمع كثير من التركمان الحافلين بحريمهم، وأولادهم، وأغنامهم، فوقع التتار عليهم، وحووهم وما في أيديهم)[2]، فلما علم الأمراء المجتمعون في الشمال بذلك، بعثوا تجريدةً إلىٰ أولئك التتار في ألفٍ وخمسمائة فارس، فالتقوا بهم في أرض عُرض يوم السبت ١٠/ ٨/ ٧٠٢هـ، ونُصر المسلمون عليهم، وقتلوهم، وأسروا منهم[3]. قال النويري: (وكانت هذه الوقعة مُقدِّمَة النَّصر)[4].

وصل الأمراء الذين أرسلهم السلطان من مصر إلىٰ دمشق يوم الأحد ١٨/ ٨/ ٧٠٢هـ، قال البرزالي: (وفرح الناس بوصولهم، وقويتِ القلوب

---

(١) نقله العيني في «عقد الجمان» (عصر سلاطين المماليك - ٤/ ٢٠٩).
(٢) «زبدة الفكرة» (ص٣٧٣).
(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١٧).
(٤) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ١٦).

بذلك)[1]، وفي يوم الأحد ٢٥/٨/٧٠٢هـ اجتمع هؤلاء الأمراء بالميدان، وتحالفوا علىٰ لقاء التتار، وشجَّعُوا أنفسهم، وذلك بعد تخوُّف أهل دمشق من اقتراب العدوِّ، مع عدم وصول السلطان ببقية الجيش المصري. وفي هذا اليوم نفسه كان الجيش الذي اجتمع بالشمال يتراجع نحو حمص، ونزل بمنطقة المَرج.

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١٧).

ثانيًا

ابن تيمية مُنسِّقًا بين أمراء دمشق وأمراء المناطق الشمالية من الشام

يُسجِّل البرزالي مبادرةً للشيخ في التنسيق بين الجيشين الشمالي والدمشقي فيقول: (وتوجَّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلىٰ جهة العسكر الواصل من حماة، فأدركه بالقطيفة والمرج، فاجتمع بهم وأعلمهم بما اتفق عليه رأي الأمراء بدمشق، فوافقوا علىٰ ذلك)[1]. وبعد ذلك رجع الشيخ إلىٰ دمشق.

ومثل هذا الدور في التنسيق بين الأمراء كان مهمًّا، إذ كانت لدىٰ أهل دمشق مخاوف من عدم اجتماع أمراء الشام تحت كلمة واحدة[2].

ويقول ابن كثير بعد سوقه هذا الخبر: (وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون علىٰ التتار، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا، لا تعليقًا، وكان يتأوَّلُ في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠].

وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بغاة علىٰ الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه، فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا علىٰ علي ومعاوية، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١٩).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٢٠).

من المسلمين، ويعيبون علىٰ المسلمين ما هم متلبسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطن العلماء والناس لذلك.

وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلىٰ رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار، وقويت قلوبهم ونياتهم، ولله الحمد)[1].

وقال ابن القيم: (أخبر (الشيخُ) الناس والأمراء سنةَ اثنتين وسبعمائة، لمَّا تحرَّك التتار، وقصدوا الشام: أنَّ الدائرةَ والهزيمةَ عليهم، وأنَّ الظفرَ والنصرَ للمسلمين، وأقسَم علىٰ ذلك أكثرَ من سبعين يمينًا، فيُقال له: قُلْ إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، وسمعتُه يقول ذلك، قال: فلما أكثروا عليَّ قلتُ: لا تكثروا! كتب الله تعالىٰ في اللوح المحفوظ أنهم مهزومون في هذه الكرة، وأن النصر لجيوش الإسلام.

قال: وأطعمتُ بعض الأمراء والعسكر حلاوةَ النَّصر قبل خُروجهم إلىٰ لقاء العدو)[2].

وقد عدَّ ابن القيم ذلك من شواهد فراسة الشيخ، وقال: (وكانت فراسته الجزئية في هذه الواقعة مثل المطر).

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٣-٢٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٩).

ثالثًا

عودة الهلع للشام.. وابن تيمية يحث الناس على لزوم دمشق

كانت الأيام التي سبقت وقعة شقحب أيامًا عصيبة علىٰ أهل دمشق، إذ خلا البلد من الجيش وأرباب الدولة، وتأخَّرَ وصولُ الجيش المصري، فشعر الناس بأنهم أصبحوا لقمةً سائغة للتتار.

يقول البرزالي في وصف حال أهل دمشق يوم الخميس ٢٩/ ٨/ ٧٠٢هـ: (وبات الناس ليلة الخميس (٢٩/ ٨/ ٧٠٢هـ)، ففي أول الليل رأىٰ الناس نيرانهم وخيمهم، وفي آخره لم يروا لهم أثرًا -أي للجيش-، فأصبح الناس بكرة الخميس وقد اشتد الأمر واضطرب البلد، وغلقت الأبواب، وازدحم الناس في القلعة، وهرب من قدر، ...وبقي البلد لا متولي فيه، والناس رعاع، ...وقال الناس: قد بقينا أكلة في هذا البلد، فإن الأسباب قد زالت، الجيش بأسره توجه عنَّا وخذلنا، حتىٰ أرباب الوظائف مثل الوالي ونحوه، فلا يرىٰ في البلد جندي ولا فرس، والعدد الموجودة في البلد حملت إلىٰ القلعة، والأكابر والقضاة الذين دخلوا في تلك المرة في المداراة، وحقن الدماء توجهوا بأسْرِهم[1]، ومنهم من دخل القلعة، وانقطعت الآمال، وألح الناس في الدعاء في القنوت، وعقيب الصلوات.

وكان هذا اليوم وهو يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان يومًا عظيمًا هائلا جدًّا، بحيث لو علم الناس أن الأمر يقع هكذا لما سكن أحد ولا أقام، ولو منعَهُ ألف مانع، وكان يبذل ما يملكه للخلاص من ذلك)[2].

---

(١) المقصود ما قام به أعيان دمشق في الحملة الأولى سنة ٦٩٩هـ، وقد تقدَّم ذكر ذلك.

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢١٩-٢٢٠).

هَدَأ الدمشقيون مساء هذا اليوم لما قدم أمير من الجيش إلىٰ البلد وذكر خيرًا، وأن العساكر قد اجتمعت، وأن القصد انضمام الجيش بعضه إلىٰ بعض، ووصول السلطان، وهذا قد حصل[1].

وكما أن الشيخ أنكر أشد الإنكار هروب الدمشقيين إلىٰ مصر والكرك في الحملة الماضية سنة ٧٠٠هـ، فقد وقف نفس هذا الموقف في هذه الحملة.

يقول البرزالي في وصف حال أهل دمشق في يوم الخميس ٢٩/ ٨/ ٧٠٢هـ: (وكان الشيخ تقي الدين في البلد، وأما القضاة فكانوا خرجوا مع الجيش، وبات الناس ليلة الخميس (٢٩/ ٨/ ٧٠٢هـ)، ففي أول الليل رأىٰ الناس نيرانهم وخيمهم، وفي آخره لم يروا لهم أثرًا -أي للجيش-، فأصبح الناس بكرة الخميس وقد اشتد الأمر واضطرب البلد، وغُلِّقَت الأبواب، وازدحم الناس في القلعة، وهرب من قدر، وخرج الشيخ تقي الدين بكرة إلىٰ جهتهم، ففتح له باب النصر بمشقة، وحصل له لوم من الناس لكونه كان من موانع الجفل)[2].

ولعل أولئك الذين لاموا الشيخ لما رأوا أن عاقبة الأمر للمسلمين علموا أنه كان أنفذَ بصيرةً، وأثبتَ قلبًا، وأدرىٰ بعواقب الأمور منهم!

وأورد ابنُ كثير خبرَ خروج الشيخ من البلد علىٰ هذا النحو: (وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية صبيحة يوم الخميس من الشهر المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة، وصحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه، فظنوا أنه إنما خرج هاربًا، فحصل له لوم من بعض الناس، وقالوا: أنت منعتنا من الجفل، وها أنت هارب من البلد! فلم يرد عليهم)[3].

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٢٠).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٢٠).

(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٤).

رابعًا

ابن تيمية مع الجيش الإسلامي.. ناصحًا ومُثَبِّتًا

بعد أن خرج الشيخ من دمشق، انضمَّ للجيش الإسلامي، وقام بتثبيت السلطان والأمراء، ونصيحتهم.

قال ابن عبد الهادي: (ولقد قرأتُ بخطٍّ بعض أصحابه، وقد ذكر هذه الواقعة وكثرةَ من حضرها من جيوش المسلمين، قال: واتَّفقت كلمة إجماعهم علىٰ تعظيم الشيخ تقي الدين، ومحبَّتِه، وسماع كلامِه ونصيحتِه، واتَّعظُوا بمواعظه، وسألَه بعضُهم مسائل في أمر الدين، ولم يبقَ من ملوك الشام تركيٌّ ولا عربيٌّ إلا واجتمع بالشيخ في تلك المدة، واعتقدَ خيرَه، وصلاحه، ونصحه لله ولرسوله وللمؤمنين.

ثم ساق الله سُبحانه جيش الإسلام العَرَمْرَم المصري صحبةَ أمير المؤمنين، والسلطان الملك الناصر، وولاة الأمر، وزعماء الجيش، وعظماء المملكة، والأمراء المصريين عن آخرهم بجيوش الإسلام، سوقًا حثيثًا للقاء التتار المخذولين، فاجتمع الشيخ المذكور بالخليفة، والسلطان، وأرباب الحل والعقد، وأعيان الأمراء عن آخرهم. وكُلُّهم بمَرجِ الصُفَّر قِبْليَّ دمشق المحروسة[1]، وبينهم وبين التتار أقل من مقدار ثلاث ساعاتٍ مسافةً.

ودار بين الشيخ المذكور وبينهم ما دار بينه وبين الشاميين، وكان منهم وبينهم كأحد أعيانهم، واتفق له من اجتماعهم ما لم يتَّفق لأحدٍ قبلَه من أبناء جنسه، حيث

---

(١) هذا يدل على أن لقاء الشيخ بالسلطان كان بعد وصوله إلى شقحب، خلافًا لما ذكره ابن كثير من خبر قدوم ابن تيمية مع السلطان سويًا إلى دمشق، بعد أن كان ابن تيمية قد سار إليه، فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد أن يرجع إلى مصر. «البداية والنهاية» (٢٨/ ٣٣).

اجتمعوا بجملتهم في مكان واحد في يوم واحدٍ علىٰ أمر جامع لهم وله، مُهمٍّ عظيم، يحتاجون فيه إلىٰ سماع كلامه. هذا توفيق عظيم كان من الله تعالىٰ له، لم يتَّفق لمثله)[1].

ويقول ابن فضل الله: (ولما جاء السُّلطان إلىٰ شقحب والخليفة لاقاهما (الشيخ) إلىٰ قرن الحرة، وجعل يُشجِّعُه ويُثبِّته، فلما رأىٰ السلطان كثرة التتار قال: يا لخالد بن الوليد!

فقال له: لا تقل هذا، وقُلْ: يا الله، واستغِث بالله ربك، ووحِّدهُ وحدَه تُنصَر، وقُلْ: يا مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين.

ثم ما زال ينفتل تارةً علىٰ الخليفة، وتارةً السلطان يُهدِّئهما، ويربط جأشَهما، حتىٰ جاء نصر الله والفتح.

وحُكِي أنه قال للسلطان: اثبُت فأنت منصور، فقال له بعض الأمراء: قل: إن شاء الله! فقال: إن شاء الله، تحقيقًا لا تعليقًا، فكان كما قال)[2].

قال ابن كثير: (...سأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم.

وحرض السلطان علىٰ القتال، وبشره بالنصر، وجعل يحلف له بالله الذي لا إله إلا هو: إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقًا، لا تعليقًا)[3].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٦-٢٢٧).

(٢) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٧٠١-٧٠٢).

(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٦-٢٧).

إفتاء ابن تيمية بمشروعية الإفطار في المعركة:

القول بجواز الفطر في الحضر إذا كان الصوم يُضعِف عن القتال من الاختيارات الفقهية للشيخ، وهو رواية في مذهب الإمام أحمد[1].

وقد عمل الشيخ بهذا القول في هذه المعركة، إذ كانت -كما تقدَّم- في اليوم الثاني من رمضان، ورأىٰ الشيخ في الإفطار مصلحة وقوة للعساكر الإسلامية.

قال ابن القيِّم: (لو كان في الفطر في الحضر قوةٌ لهم علىٰ لقاء عدوهم فهل لهم الفطر؟ فيه قولان، أصحهما دليلًا: أنَّ لهم ذلك، وهو اختيار ابن تيمية، وبه أفتىٰ العساكر الإسلامية لما لقوا العدو بظاهر دمشق)[2].

وقال ابن كثير: (أفتىٰ (الشيخُ) الناسَ بالفطر مُدَّة قتالهم، وأفطر هو أيضًا، وكان يدور علىٰ الأطلاب والأمراء فيأكل من شيء معه في يده، ليُعلمهم أن إفطارهم ليتقووا علىٰ القتال أفضل، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «إنكم ملاقو العدو غدًا، والفطر أقوىٰ لكم» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري)[3].

---

(١) انظر «الفروع» (٤/ ٤٣٨).

(٢) «زاد المعاد» (٢/ ٥٠).

(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٧).

خامسًا

ابن تيمية في شقحب.. مجاهدًا في سبيل الله

كان قدوم السلطان يوم السبت ٢/ ٩/ ٧٠٢هـ، واجتماع الجيش المصري مع الجيش الشامي بطرفيه الشمالي والدمشقي، قد آذن باستعداد الجيش الإسلامي التامِّ لملاقاة جيش التتار.

التقىٰ الجيش الإسلامي بجيش التتار في شقحب يوم السبت، وكانت معركةً عظيمةً، كتب الله فيها النصرَ لأهل الإسلام، والهزيمةَ الكبرىٰ لجيش التتار[١].

وقد شارك الشيخ بنفسه وأصحابه في تلك المعركة، وأظهر شجاعة عظيمة، كُتِبت بكلمات من نورٍ علىٰ جبين التاريخ.

قال ابن فضل الله: (وحُكِي من شجاعته في مواقف الحرب نوبةَ شقحب، ونوبةَ كسروان ما لم يُسمَع إلا عن صناديد الرجال، وأبطال القتال، وأحلاس الحرب، تارةً يُباشر القتال، وتارة يُحرِّضُ عليه)[٢].

وقال أبو حفص البزار: (أخبر غير واحد أن الشيخ رضي الله عنه كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم، وقطب ثباتهم، إن رأىٰ من بعضهم هلعًا أو رِقَّةً وجبانة شَجَّعَه وثبته وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة. وكان إذا ركب

---

(١) انظر تفاصيل المعركة في «زبدة الفكرة» لبيبرس الداودار (ص٣٧٣-٣٧٨)، وهو أحد من شارك فيها.

(٢) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٧٠١).

الخيل يتحنَّكُ، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويُكبِّر تكبيرًا أنكىٰ في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوضَ رجل لا يخاف الموت)[1].

ويُوثِّقُ بعضُ الأمراء شجاعة الشيخ في تلك المعركة فيقول: (قال لي الشيخ يوم اللقاء، ونحن بمرج الصفر، وقد تراءىٰ الجمعان: يا فلان الدينِ! أوقفني موقفَ الموت. فسُقته إلىٰ مُقابلة العدوِّ، وهم مُنحدرون كالسيل، تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له: يا سيدي هذا موقف الموت، وهذا العدوُّ قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة، فدونك وما تريد. فرفع طرفه إلىٰ السماء، وأشخص بصره، وحرَّك شفتيه طويلًا، ثم انبعث وأقدم علىٰ القتال، وأما أنا فخُيِّل إلي أنه دعا عليهم، وأن دعاءه استجيب منه في تلك الساعة.

ثم حال القتال بيننا والالتحام، وما عدت رأيته حتىٰ فتح الله ونصر، وانحاز التتار إلىٰ جبل صغير عصموا نفوسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة وكان آخر النهار، وإذا أنا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلىٰ صوتيهما تحريضًا علىٰ القتال، وتخويفًا للناس من الفرار، فقلتُ: يا سيدي لك البشارةُ بالنصر، فإنه قد فتح الله ونصَر، وها هم التتار محصورون بهذا السفح، وفي غدٍ -إن شاء الله تعالىٰ- يؤخَذُون عن آخِرِهم.

فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه بما هو أهله، ودعا لي في ذلك الموطن دعاءً وجدت بركتَه في ذلك الوقت وبعدَه)[2].

---

(١) «الأعلام العلية» (ص٦٣).

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٩-٢٣٠). نقله بعض أصحاب ابن تيمية عن هذا الأمير، وعنه ابن عبد الهادي، وقال هذا الصاحب في وصف هذا الأمير: (حاجب من الحُجَّاب الشاميين، أمير من أمرائهم، ذو دين متينٍ، وصدق لهجةٍ، معروف في الدولة).

وقال بعضُ أصحابِ الشيخ: (وبقي الشيخ المذكور رضي الله عنه هو وأخوه وأصحابه ومن معه من الغزاة قائمًا بظهوره وجهاده ولأمَةِ حربه، يوصي الناس بالثبات، ويعدهم النصر، ويُبشِّرهم بالغنيمة والفوز بإحدىٰ الحسنيين، إلىٰ أن صدقَ الله وعدَه، وأعزَّ جنَده، وهزم التتار وحدَه، ونصر المؤمنين، وهُزِمَ الجمعُ، وولّوا الدُّبر، وكانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفار السفلىٰ، وقطع دابر القوم الكفار، والحمد لله رب العالمين)[1].

هذا، وأنت تجد الشيخ إذا تحدث في كتبه عن الشجاعة تحدث عنها حديث الخبير بها، ومما وقفت عليه من ذلك:

أن الشيخ لما بين مفهوم الشجاعة، وأنها (ثباتُ القلب وقوَّتُه، وقوة الإقدام علىٰ العدو، والبعد عن الجزع والخوف) وبين أنها صفة تتعلق بالقلب لا بالبدن (وإلا فالرجل قد يكون بدنه أقوىٰ الأبدان، وهو من أقدر الناس علىٰ الضرب والطعن والرمي، وهو ضعيف القلب جبان، وهذا عاجز، وقد يكون الرجل يقتل بيده خلقًا كثيرًا، وإذا دهمته الأمور الكبار مالت عليه الأعداء، فيضعف عنهم أو يخاف)، ثم قرر انطباق ذلكم المفهوم علىٰ أبي بكر رضي الله عنه، وبعد ذلك كله قال: (**وكلٌّ من له بالشجاعة أدنىٰ خبرة** يعلمُ أنه لم يكن منهم من يقاربُه في الشجاعة فضلًا أن يشاركه)[2].

ومن ذلك أنه يتحدث عن هيئة ركوب الخيل العربية حديث الخبير بها فيقول: (وأما المهاميز؛ فما كانوا يحتاجون إليها، فإنَّ الخيل العربية مع **الراكب الخبير بالركوب** لا يحتاج إلىٰ مِهْماز[3]، ولهذا لم يُنقل في الحديث أنهم كانوا يركبون

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٨).
(٢) «جامع المسائل» (٣/ ٢٥٠).
(٣) حديدة تكون في عقب الفارس أو الراكب.

بمهاميز، وإنما اتخذها من اتخذها للحاجة إليها)[1].

وبعد أن تحقق النصر رجع ابن تيمية إلىٰ دمشق، وهنأه الناس. قال البرزالي: (وفي يوم الاثنين رابعه (٤/ ٩/ ٧٠٢هـ) دخل الشيخ تقي الدين وأصحابه بكرة النهار، والناس يهنئونهم، ويدعون لهم)[2].

ويصوِّر بعضُ أصحاب الشيخ المشهد الذي دخل فيه الشيخ مع أصحابه إلىٰ دمشق فيقول: (ودخلَ جيشُ الإسلام المنصور إلىٰ دمشق المحروسة، والشيخ في أصحابه شاكًّا في سلاحه، داخلًا معهم، عاليةً كلمتُه، قائمةً حُجَّتُه، ظاهرةً ولايته، مقبولةً شفاعتُه، مُجابةً دعوتُه، مُلتَمَسَةً بركتُه، مُكرَّمًا مُعظَّمًا، ذا سُلطان وكلمةٍ نافذة.

وهو مع ذلك يقول للمدَّاحين له: أنا رجلُ مِلَّة، لا رجلُ دولة)[3].

---

(١) «القرمانية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ١٤٧).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٢٢).

(٣) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٢٨).

سادسًا

النصر العزيز.. بقلم ابن تيمية

في الكتاب الذي صَنَّفَه الشيخُ بمصر بعد هذه الهزيمة بسنوات في الرد علىٰ البكري في مسألة الاستغاثة، بيَّن أثرَ تحقيقِ التوحيد والاستغاثة بالله تعالىٰ في هذا النصر، وبين تميُّزَ هذه المعركة من بين مَعارك المُسلمين مع التتار.

يقول: (فلمَّا كان بعد ذلك -بعد قدوم التتار إلىٰ دمشق سنة ٦٩٩هـ- جعلنا نأمرُ الناس بإخلاص الدين لله، والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملك مقرَّب ولا نبي مرسل، كما قال تعالىٰ يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[الأنفال:٩]، ورُوي أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث)، وفي لفظ: (أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ولا إلىٰ أحد من خلقك).

فلمَّا أصلح الناس أمورهم، وصدقوا في الاستغاثة بربهم؛ نصرهم علىٰ عدوهم نصرًا عزيزًا لم يتقدم نظيره، ولم تُهزَمِ التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلًا، لما صح من تحقيق توحيده وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك، فإن الله ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)[1].

كما تحدَّث الشيخ في رسالته إلىٰ السلطان الناصر عقب فتح جبل كسروان سنة ٧٠٥هـ عن أثر هزيمة شقحب علىٰ أهل البدع من النصيرية والدروز والرافضة: (ولما خرجت العساكرُ الإسلامية من الديار المصرية ظهَر فيهم من

---

(١) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص٤١٣-٤١٤).

الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولما نصرَ اللهُ الإسلامَ النصرة العظمىٰ عند قدوم السلطان كان بينهُم شبيه بالعزاء)[1].

---

(١) «رسالة ابن تيمية إلى الملك الناصر عقب فتح جبل الكسروان» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٠١)، وضمن «العقود الدرية» (ص٢٣٨).

سابعًا

هلاك قازان

قال اليوسفي: (لما حصل من كسر عسكر قازان ما حصل، وما عُدِم من أمرائه وأكابر المغل لم يُطِقْ ينظر إلىٰ وجه بقية أمرائه، ولا يتحدث معهم، وعزل نفسه عن النوم مع أزواجه، وصار كلما ركب يجد في أي مكان يجوز عليه أو ينزل عزاءً وبكاءً وتعديدًا علىٰ من عُدِم من أهله، واشتاع بين نساء المغُل أن قازان هو الذي قتل هؤلاء، لأنه ما كانت عادة المغُل أن يدخلوا الشام بغير مَلِك، ومتىٰ كان للمغل عادة بالدخول إلىٰ بلاد الإسلام.

واتفق في هذه الأيام وصولُ خبر من كيلان أن نائبه قطلوشاه قُتِل، هو وأميران معه من أمراء المغل، وجماعة من الذين كانوا معه، فازداد نارًا علىٰ نار، وحرقة علىٰ حرقة، ولا سيما اشتاع الخبر بين نساء المغُل وبقية العسكر أن أحدًا من ملوك المغُل لم يظفر بأخذ هذا المكان، وكانت عادة الملوك من المغُل إذا أرادوا هلاك أحد من أمرائهم أرسلوه إلىٰ هذا المكان، فلا بد وأن قازان سَيَّر قطلوشاه إلىٰ هذا المكان ليُقتل هناك والجماعة الذين معه، ولما سمع بذلك قازان ازداد غيظًا في نفسه، وانطلقت نيران في كبده بسبب ما اتفق لعساكره، وبقي مُتحيِّرًا لا يدري أي جهة يقصد، إلىٰ أن قويَ عزمُه علىٰ جمع العساكر ليغزو بلاد الإسلام، ثم يتوجه إلىٰ بلاد كيلان، وطلب وزراءه وأمرهم أن يحصلوا أموالًا لأجل النفقات، ولما سمع الأمراء بذلك أرادوا أن يسألوه أن يؤخر الغزاة في هذه السنة، ولم يجسر أحد علىٰ الكلام معه.

ووجد قازان في نفسه من الانحصار وضيق الصدر، فطلب حكيمًا، وعرَّفه بحاله، فقال له: إنه يصلح للملك الركوب والتنزه، وأمر بالتجهز إلىٰ الري، وما وصل إليها إلا وقد أحسَّ في جسمه بالألم، فمن الناس من أخبر أنه مات من دُبلة علىٰ قلبه، ومنهم من أخبر أن أمراء المغل اتفقوا مع امرأة غازان علىٰ إهلاكه، وقالوا لها: إن الملك يريد إفناء المغل، ثم يدخل عسكر مصر وسلطانها إلىٰ هذه البلاد ويخربوها، وإن القُصاد حضروا من مصر وعرفوهم بذلك، وإن سلطان مصر عزم علىٰ أن يفعل بهذه البلاد ما فعله قازان ببلادهم، وجهزوا لها فصوصًا مثمنةً، وجواهر مقوَّمة، علىٰ أن تسقيَهُ شيئًا يمرض به، ليشتغل بنفسه عن الركوب، ولم يزالوا بها إلىٰ أن وافقتهم علىٰ ما اختاروا، وكان قازان يحبُّ زوجته محبة عظيمة، واسمها بلغان خاتون، فصنعت له شيئًا من السموم في مشروب، وسقَتْه، ومنهم من يقول: إنها سمَّتهُ في منديل الجماع، فسقطت محاشمه بعد أيام، وحُمل إلىٰ تربة كان صنعها علىٰ مرحلة من تبريز، فسمَّاها دمشق الصغيرة، وعمَّر فيها عمارات عظيمة، وأوقف عليها أوقافًا كثيرة)[١]. وكانت وفاته في شوال من سنة ٧٠٣هـ[٢].

انتهز الأمير بدر الدين جنكلي ابن البابا، نائب التتار في رأس العين -التي كانت خاضعة للتتار- فرصةَ موت قازان، للانضمام إلىٰ الدولة المملوكية، ليصبح أحدَ الأمراء المقدّمين في الدولة، قال اليوسفي: (وكان قد جهز حاله وهو في بلاده إلىٰ أن اتفق موت قازان، وبلغه ذلك، فوجد الفرصة، فركب بمن معه من ألزامه وأقاربه، وأخذ كلَّ ما عز عليه..)[٣]، ولعل انضمامه يُصدِّق ما كان الشيخ قد ذكره

---

(١) نقله العيني في «عقد الجمان» ((عصر سلاطين المماليك - ٤/ ٣١٦-٣١٨).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٦٠).

(٣) نقله العيني في «عقد الجمان» ((عصر سلاطين المماليك - ٤/ ٣٠٣).

بقوله -في رسالته للناصر قبل سنتين والتي مر عرض مضامينها-: (وقد اتصل بالداعي أخبار صادقة من جهات يُوثَق بها بما قد مال مع المسلمين من أمراء تلك البلاد حتىٰ من المغول...)[1].

وسيغدو هذا الأمير من المحبين لابن تيمية، إذ وصفه ابن حجر بقوله: (وكان يميل إلىٰ ابن تيمية، ويتعصب له، ويردُّ علىٰ من يرد عليه)[2].

---

(١) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠١).

(٢) «الدرر الكامنة» الترجمة رقم (١٤٦١). وقد وقف جنكلي مع ابن مري -أحد أصحاب ابن تيمية- في محنة وقعت له في مسألة الاستغاثة والتوسل سنة ٧٢٥هـ. انظر «أعيان العصر» (١/ ٣٨٨)، كما وقف مع الحافظ مغلطاي بن قليج -وهو معدود في تلامذة ابن تيمية أيضًا- في ما تعرض له بسبب كتابه الذي صنفه في العشق. انظر «الدرر الكامنة» الترجمة رقم (٢٣١٠)، وقد نقل مغلطاي في هذا الكتاب عن ابن تيمية واعتمد عليه.

الباب الثاني

ابن تيمية ومغول إيران في عهد خربندا

يعتلي عرش مملكة إيران بعد هلاك قازان سنة ٧٠٣هـ شقيقه أولجايتو بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، الملقب بخُدَابنده، أو خربندا، وسيغيب في عهده أبرز قادة التتار المُحيطين بقازان في حملاته على الشام؛ فقطلوشاه نائب قازان، ثم خربندا بقي في منصبه في أول عهد خربندا إلى أن قُتِل في حملة على أهل كيلان سنة ٧٠٧هـ[١]، وبولاي قتلَه خربندا في السنة نفسها[٢]، والوزير سعد الدين الساوجي، والأمير يحيىٰ قتلهما خربندا أيضًا سنة ٧١١هـ بتهمة محاولتهما القيام بانقلابٍ عليه[٣]. ليبقىٰ من الشخصيات البارزة في مملكة إيران الوزيرُ رشيدُ الدولة، والأمير جوبان الذي خَلَف قطلوشاه، وصار نائبًا لخربندا.

وقد وُصِفَ خربندا بأنه (ليس من رجال الحروب، وإنَّما كان صاحب شراب، ولذَّة، ومنادمة)[٤]، وأنه كان (لعَّابًا)[٥]، وذكر ابنُ تيمية أنه تزوَّجَ بابنة أخيه[٦]، كما أنه في مدة حكمه سنة ٧٠٩هـ صار رافضيًّا سيِّئ المعتقد، وسيأتي خبر ذلك.

سعىٰ خربندا في أول عهده للصلح مع المماليك، وفرق الجيش الذي أعدَّهُ شقيقُه لغزو الشام قبيل هلاكه، يقول اليوسفي: (وكان خربندا في جهة الروم، وكان قازان أرسل إليه ليحضر عنده، فحضر قبل وفاة أخيه، ولما تولىٰ رسم لعسكره الذي جمعه قازان أن يذهب كلٌّ أحد منهم إلىٰ مكانه، ثم طلب رسل السلطان

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٥٢). قال البرزالي: (وفرح خربندا بمقتل قطلوشاه فإنه كان يخافه).
(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٥٧).
(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٤٨).
(٤) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٥٤).
(٥) «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٢٩).
(٦) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

الملك الناصر الذين عوَّقَهُم قازان عنده من يوم أرسلهم الناصر -يعني الأمير حسام الدين المجيري، والقاضي عماد الدين السكري- فأكرمهم وأنعم عليهم، ورسم بتجهيزهم، وكتب معهم كتابًا خاطب فيه السلطان بالأخوة، وسأل إخماد الفتن والصلح بين المسلمين، وآخر كلامه في كتابه: (وعفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه)، وسيَّر صحبتهم قليلًا من الهدية، وجهز رسولًا من جهته صحبتهم، ليسعىٰ بينه وبين السلطان بالودِّ والمحبة، وبرد الجواب، ولما وردوا أكرمهم السلطان أيضًا، وأجاب إلىٰ سؤالهم، وأرسل معهم هدية تليق به)[1]. وذكر البرزالي أن وصول الأمير حسام الدين المجيري، والقاضي عماد الدين السكري، ومعهم رسل التتار، إلىٰ دمشق كان يوم الأحد ٢٤/ ٨/ ٧٠٤هـ[2].

إلا أن العلاقات مع المماليك عادت للتوتر في عهد خربندا، الذي لم يكن مخلصًا في تودده للناصر، بل هو كما كان ابن تيمية قد وصفه: (في نية فاسدة للمسلمين)[3]، فلم يدُم الصلح طويلًا، حيث سار خربندا علىٰ خُطىٰ أخيه قازان في عداوة المسلمين، فغزا الشام سنة ٧١٢هـ، وزاد عليه بإظهاره الرفض.

في سنة ٧٠٥هـ أرسل نائب السلطنة بحلب شمس الدين قراسنقر جيشًا للإغارة علىٰ مملكة أرمينيا الصغرىٰ، لأن العاهل الأرميني هيثوم الثاني بن ليفون تأخر في دفع الجزية المقررة عليه[4]، وقام جيش التتار المجرد بمملكة أرمينيا

(١) نقله العيني في «عقد الجمان» (٩/ ٣١٩-٣٢٠، ٣٤٥) من تاريخ اليوسفي «نزهة الناظر في دولتي المنصور والناصر».
(٢) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٧٨). والخبر في «زبدة الفكرة» (ص٣٨١).
(٣) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠١-٣٠٢).
(٤) «زبدة الفكرة» (ص٣٨٣). وقد قُتِل هيثوم بن ليفون أيضًا في عهد خربندا سنة ٧٠٧هـ على يد مقدم التتار في بلاد الروم برلغي، ثم قتلَ ملكُ التتار خربندا برلغي عقوبةً له. «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٥٤).

الصغرىٰ بمهاجمة الجيش الحلبي، وأوقع به، ولم يترك له تسوية الأمور مع الأرمن، بالرغم من أن رُسُلَ خربندا الذي جاؤوا لطلب المصالحة مع المماليك ما زالوا في ذلك الوقت في القاهرة عاصمة المماليك[1]، يقول بيبرس الداودار: (وكان التتار المجردون ببلد سيس قد علموا بهم، وكمنوا لهم في موضع مخرجهم، فلما رجعوا ونزلوا بأثناء الطريق خرجوا إليهم، وصالوا عليهم، ودهموهم بغتةً، ولما اقتتلوا قُتل من المسلمين جماعة، وأُسر الأمراء الأربعة، وجماعة من الجند، وأرسلوهم إلىٰ الأُردو)[2]، يقول البرزالي: (وكثر النوح في نساء أجناد حلب والبكاء)[3]، ويعزو أبو الفداء التقصيرَ في عدم الانتباه للتتار إلىٰ أحد أولئك الأمراء الأربعة (قشتمر) الذي وصفه بأنه كان: (ضعيف العقل، قليل التدبير، مشتغلًا بالخمر، ففرط في حفظ العسكر، ولم يكشف أخبار العدو، واستهان بهم)[4]، إلا أن خوف العاهل الأرميني بعد ذلك من المدد المملوكي الذي جرَّدَه السُّلطان من مصر لإنقاذِ الموقف حمَلَه علىٰ الاستسلام للمماليك، والاستجابةِ لمطالبهم بإرسال الجزية التي قُرِّرَت عليه[5].

في ذلك الوقت الذي كانت ترد فيه إلىٰ دمشق أخبار ما جرىٰ للعسكر الحلبي الذي أرسله نائب السلطنة بحلب شَمَالًا لتأديب الأرمن؛ كان نائب السلطنة بدمشق قد شرع في تأديب طائفة أخرىٰ كانت قد والت التتار في حملاتهم العسكرية علىٰ

---

(١) يبدو أن المصالحات التي كان يعقدها التتار مع المماليك لم تكن تمنعهم من صدِّهم إذا اتجهوا إلى قتال الأرمن، وقد حصل ذلك أيضًا في عهد أبي سعيد.

(٢) «زبدة الفكرة» (ص٣٨٣).

(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٩١).

(٤) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٥١-٥٢).

(٥) «زبدة الفكرة» (ص٣٨٤).

بلاد الشام، وهم أهل جبال الجُرْد وكِسْروان في لبنان من الرافضة والباطنية. يقول ابن فضل الله لدىٰ حديثه عن الدروز: (ومن هؤلاء أهل كسروان ومن جاورهم، وكان شيخُنَا ابن تيمية -رحمه الله- يرىٰ أن قتالَهُم، وقتالَ النُّصيرية أولىٰ من قتال الأرمن، لأنهم عدو في دار الإسلام، وشر بقائهم أضر)[1].

(١) «التعريف بالمصطلح الشريف» (ص١٦١).

الفصل الأول

واقعة ابن تيمية المشهورة في جبل كِسْروان

(فتح جبل كِسْروان سنة ٧٠٥هـ)

أولًا

أهل كِسْروان في معاونة التتار وأذى المسلمين

كانت جبال الكِسْروانيين جبالًا منيعةً، فهي -بحسب الشيخ- (غاية في الصعوبة، ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثلها)[1]، قد (اتفق علىٰ صعوبتها أصناف الرجال، لاشتمالها من القلاع والأوعار، والأودية والأنهار، وأصناف المُلتَفِّ من الأشجار، والأماكن المعطشة الوعرة العالية، ما لم تسلكه الخيل في العُصُر الخالية، وما لا تضبط الصفات من مباعث الطرقات، ما رجح أهل الخبرة صعوبته علىٰ ما رأوه من الجبال الشامخات، وكانوا كما قال الله فيمن ضاهوه في كثير من الوجوه: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢])[2].

ولذا كانت تلك الجبال عصيَّةً علىٰ المماليك والصليبيين علىٰ حد السواء، حتىٰ قال الشيخ في ذلك: (وكانت قلوبهم -يعني الكِسْروانيين- قويَّةً بهذه الأماكن المضرة، لا سيما وقد غزاهم الناس كما ذكر أهل الخبرة أكثر من عشرين مرة، ولا يرجعون عنهم إلا بالخيبة والخسار، حتىٰ قصدهم المسلمون والإفرنج جميعًا في سالف الأعصار، فقتلوا من الفريقين من بقيت عظامهم عندهم في الديار)[3]، ويقول بعضُ أصحابه: (وكان من أصعب الجبال وأشقها ساحة وكانت الملوك

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٤٠).

(٢) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين عبد العزيز ابن تيمية في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٥).

(٣) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين عبد العزيز ابن تيمية في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٥-٤٧٦).

المتقدمة لا تقدم علىٰ حصاره مع علمها بما عليه أهله من البغي والخروج علىٰ الإمام والعصيان وليس إلا لصعوبة المسلك ومشقة النزول عليهم)[1].

وقد شهدت جبال الكِسْروان حملتَيْن قام بهما المماليك قبل فتح الجبل:

فالحملة الأولىٰ: في عهد الأشرف خليل سنة ٦٩١هـ، قادها نائبه بدر الدين بيدرا، ولم تنجح هذه الحملة. وقد ذكر بعض أصحاب الشيخ أن فشلَ تلك الحملة كان بسبب صعوبة مسلك الجبل، ولغير ذلك[2]. ويقُولُ النويري في خبر هذه الحملة: (وحضر إلىٰ الأمير بدر الدين بيدرا من أثنىٰ عزمه، وكسر حدته، فحصل الفتور في أمرهم، حتىٰ تمكنوا من بعض العسكر، في تلك الأوعار، ومضايق الجبال، فنالوا منهم، وعاد العسكر شبه المنهزم، وطمع أهل تلك الجبال، فاضطر الأمير بدر الدين إلىٰ إطابة قلوبهم، والإحسان إليهم، وخلع علىٰ جماعة من أكابرهم، فاشتطُّوا في الطلب، فأجابهم إلىٰ ما التمسوه، من الإفراج عن جماعة منهم، كانوا قد اعتُقِلُوا بدمشق، لذنوب وجرائم صدرت منهم، وحصل للكسروان من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم، وحصل للأمراء والعسكر من الألم لذلك، ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة، ونسبوه إلىٰ أنه إنما أهمل أمرهم، وفتر عن قتالهم، حتىٰ تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه، وأنه تبرطل منهم، وأخذ جملة كثيرة، ولهج الناس بذلك).

كان من عادة أهل الكِسْروان أن يرشوا من يأتي لمواجهتهم، وفي ذلك يقول الشيخ: (وهكذا كان عادة هؤلاء الجَبَلِيَّة، فإنما أقاموا بجَبَلهم لِما كانوا يظهرونه من النفاق، ويبذلونه من البِرْطِيل لمن يقصِدُهم)[3].

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٣١).

(٢) «العقود الدرية» (ص٢٣١).

(٣) «العقود الدرية» (ص٢٤٠).

والحملة الثانية: في السلطنة الثانية للسلطان الناصر، قام بها نائب السلطنة بدمشق جمال الدين الأفرم، وقد تقدَّم خبرها.

ولم ينتج عن هذه الحملة هزيمة نهائية لأهل الكِسْروان، ما حرَّك همة الأفرم للقيام بحملة أخرىٰ يكون فيها استئصالُهم.

يقول الصفدي: (أبلىٰ الأفرم في نوبة غازان الأولىٰ بلاءً حسنًا، وقاتلَ قتالًا عظيمًا، ولما وقعت الهزيمة علىٰ المسلمين وعاثَ فيهم أهل كسروان، أثَّر ذلك في قلبه، فلما عادَ إلىٰ دمشق توجَّه إليهم، ونازلَهم، فلم يحصُل منهم علىٰ طائِل، واشتغل بأراجيف التتار، إلىٰ أن فرغوا من نوبة مرج الصفر، فجعل كسروان دأبه، وكتب إلىٰ أسندمر نائب طرابلس، وطلب نائب صفد...)[1]، ويقول النويري: (كان أهل جبال الكِسْروان قد كثروا، وطغوا، واشتدَّت شوكتهم، وتطرقوا إلىٰ أذىٰ العسكر الناصري عند انهزامه في سنة تسع وتسعين وستمائة، وتراخىٰ الأمر وتمادىٰ، وحصل إغفال أمرهم، فزاد طغيانهم، وأظهروا الخروج من الطاعة، واغترُّوا بجبالهم المنيعة، وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الوصول إليهم...)[2].

ندَّدَ الشيخُ في مواطن عديدة من كتبه وفتاويه بما قام به الكِسْروانيون من أذىٰ للمسلمين ومعاونة للتتار في ظروف حملة التتار علىٰ بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ، وهو في ذكره لتلك الجريمة -وغيرها من الجرائم في سالف عهودهم- يربط ربطًا محكمًا بين عقائد الكِسْروانيين المقتضية لتكفير المسلمين، وبين ما صدر عنهم من أذىٰ المسلمين ومعاونة التتار، فقد كانت تصرفاتهم صادرةً عن عداوةٍ دينية للمسلمين، ولم تكن مجرد نزاع علىٰ المَوَارد الدنيوية.

---

(١) «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٩٢).

(٢) «نهاية الأرب» (٣٢/ ٧٠)

قال في فتواه في مسألة الكنائس: (وقد كان بالساحل بين الرافضة والفرنج مهادنة، حتىٰ صارت الرافضة تحمل إلىٰ قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان)[1].

وقال في فتوىٰ له في قتال الرافضة بعد أن ذكر تكفيرهم للسلف رضي الله عنهم: (ويرون في أهل الشام ومصر والحجاز والمغرب واليمن والعراق والجزيرة وسائر بلاد الإسلام أَنَّهُ لا يحلُّ نكاحُ هؤلاء، ولا ذبائحهم، وأن المائعات التي عندهم من المياه والأدهان وغيرها نجسة، ويرون أن كفرهم أغلظ من كفر اليهود والنصارىٰ، لأن أولئك عندهم كفار أصليون وهؤلاء مرتدُّون، وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي، ولهذا السبب يعاونون الكفار علىٰ الجمهور من المسلمين فيعاونون التتار علىٰ الجمهور، وهم كانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيزخان ملك الكفار إلىٰ بلاد الإسلام، وفي قدوم هولاگو إلىٰ بلاد العراق، وفي أخذ حلب، ونهب الصالحية، وغير ذلك، بخبثهم ومكرهم، لما دخل فيه من توزر منهم للمسلمين، وغير من توزر منهم، وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر عليهم وقت انصرافِهِ إلىٰ مصر في النوبة الأولىٰ، وبهذا السبب يقطعون الطُّرُقات علىٰ المسلمين، وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والإفرنج علىٰ المسلمين والكآبة الشديدة بانتصار الإسلام ما ظهر، وكذلك لما فتح المسلمون الساحل -عكة وغيرها- ظهر فيهم من الانتصار للنصارىٰ وتقديمهم علىٰ المسلمين ما قد سمعه الناس منهم، وكل هذا الذي وصفت بعض أمورهم، وإلا فالأمر أعظم من ذلك)[2].

---

(١) «فتوى في مسألة الكنائس» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٦).
(٢) «فتوى في قتال الرافضة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٨).

وقال في رسالته إلىٰ السلطان الناصر عقب فتح الجبل بعد أن ذكر تكفيرَهم للسلف، وأئمة المسلمين، وعبادهم، وملوكهم، وأجنادهم، وعوامهم: (ولهذا السبب يُقدِّمون الفرنج والتتار علىٰ أهل القرآن والإيمان، ولهذا لما قدم التتار إلىٰ البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصىٰ من الفساد، وأرسلوا إلىٰ أهل قُبْرص فمَلَكُوا بعض الساحل، وحملُوا راية الصليب، وحملوا إلىٰ قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عدده إلا الله، وأُقِيم سوقهم بالساحل عشرين يومًا، يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح علىٰ أهل قبرص، وفرحوا بمجيء التتار، هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون، مثل أهل جِزِّين وما حواليها، وجبل عاملة ونواحيه)[1].

وقال فيها: (ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمر لا يُضبَطُ شرُّه، كُلَّ ليلة تنزل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد.

وكانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكان البيوتات، علىٰ أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات، يرد إليهم النصارىٰ من أهل قبرص؛ فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين؛ فإما أن يقتلوه أو يسلبوه، وقليل منهم من يفلت منهم بالحيلة)[2].

وقال فيها: (وهم شر من التتار من وجوه متعددة، لكن التتر أكثر وأقوىٰ، فلذلك ظهر شرُّهم، وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم، كما كان في زمن قازان وهولاكو وغيرهما، فإنهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم، وأرضهم فيءٌ لبيت المال)[3].

---

(١) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٣٧-٢٣٨).

(٢) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٤٠-٢٤١).

(٣) «العُقُود الدُرِّيَّة» (ص٢٤٢-٢٤٣).

وقال في رسالته إلىٰ أصحابه بعد فتح الجبل أيضًا في وصف الكسروانيين: (المستبدلين قتال أهل الإسلام بقتال الكفار، الموالين علىٰ معاداة أهل الإسلام للفرنج والتتار، المُقدِّمين للذين كفروا وأهل الكتاب علىٰ خواص أمة محمد، المتبعين لما جاء به من السنة والكتاب، المكفرين لجمهور المسلمين كفرًا أغلظ من كفر سائر الكفار، المنجسين لهم ولما عندهم من المائعات التي لامستها الأبشار، المرجحين لشعر أهل الإفك والبهتان، علىٰ أحاديث الرسول التي اتفق علىٰ قبولها أهل العرفان، المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، المتعبدين بقتلهم وقتالهم، المكذبين بحقائق أسماء الله وصفاته، المنكرين أن يراه المؤمنون بأبصارهم في جناته، المكذبين بحقيقة كلماته وآياته، المشبهين له بالمعدوم والموات، في أنه لم يتكلم بكلام قائم به وإنما خلقه في المصنوعات، الجاحدين لأن يكون الله فوق السماوات، المنكرين لقضائه وقدره في بلاده، الزاعمين أنه لا يقدر أن يهدي ضالًّا ولا يضل مهتديًا ولا يقلب قلوب عباده، بل يزعمون أنه يكون في ملكه ما لا يشاؤه ويشاء ما لا يكون، وهو عاجز عما عليه العباد قادرون، المعادين لأهل بيت رسول الله ﷺ وصحابته، الطاعنين في أزواجه وأهل قرابته، السافكين لدماء عترته وأمته في القديم والحديث، المعاونين عليهم لكل عدو خبيث، الذين تعجز القلوب والألسنة عن الإدراك والصفة لمخازيهم، وما أحدثوا في الأمة من مساويهم.

وقد سفكوا من دماء الأمة المحمدية من لا يحصي عدده إلا الله، وفعلوا فيهم ما لم يفعله أعظم الناس معاداة، وأخذوا من الأموال ما لا يقوم ببعضه أثمن ما في الجبال، واستحلوا من الفروج وقتل الأطفال، وفرط الانتقام والاستحلال، ما يتبين به أنهم شر من التتار بطبقات وأطوار)[1].

---

(١) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٤- ٤٧٥، ٤٧٦).

وفي كتابه «منهاج السنة»[1] يذكر الشيخ جرائمَ هؤلاء الرافضة في حقِّ المُسلمين عَقِيب انكسارهم في وقعة وادي الخزندار؛ فيقول: (وقد عُلِم أنه كان بساحل الشام جبلٌ كبيرٌ، فيه ألوف من الرافضة يسفكون دماء الناس، ويأخذون أموالهم، وقتلوا خلقًا عظيمًا، وأخذوا أموالهم، ولما انكسر المسلمون سنة غازان، أخذوا الخيل والسلاح والأسرىٰ، وباعوهم للكفار النصارىٰ بقبرص، وأخذوا من مرَّ بهم من الجند، وكانوا أضر علىٰ المسلمين من جميع الأعداء، وحمل بعض أمرائهم راية النصارىٰ، وقالوا له: أيهما خير: المسلمون أو النصارىٰ؟ فقال: بل النصارىٰ! فقالوا له: مع من تُحشَر يوم القيامة؟ فقال: مع النصارىٰ! وسلَّمُوا إليهم بعض بلاد المسلمين).

وقال في «منهاج السنة»[2] أيضًا: (لما انكسر عسكر المسلمين سنة غازان، سنة تسع وتسعين وخمسمائة[3]، وخلت الشام من جيش المسلمين، عاثوا في البلاد، وسعوا في أنواع من الفساد، من القتل وأخذ الأموال، وحمل راية الصليب، وتفضيل النصارىٰ علىٰ المسلمين، وحمل السبي والأموال والسلاح من المسلمين إلىٰ النصارىٰ، أهل الحرب بقبرص وغيرها).

ويقول الشيخ في فتوىٰ له في قتال التتار سنة ٧١٥هـ: (الرافضة شر من الخوارج، فإنهم يعاونون اليهود والنصارىٰ، ...أعانوهم بالشام نوبة هلاوون وقازان، وغير ذلك، ولا ريب أن ضررهم علىٰ المسلمين أعظم من ضرر التتر)[4].

---

(١) (٥/ ١٥٨ -١٥٩).

(٢) (٦/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٣) كذا في المطبوع، وصوابه ستمائة.

(٤) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

وقد ذكر الشيخ أن بني العود -وهم من شيوخ الرافضة العراقيين- هم شيوخ جبل كسروان، الذين يلقنون الكسروانيين عقائد الرافضة، ويفتونهم بتلك الأفعال العداونية ضد المسلمين[1]، وأن عقائِدَهُم المُخزِية تعبر عنها تصانيفُ الشيخ أبي القاسم بن الحسين بن العود الحلِّي المتوفىٰ سنة ٦٧٩هـ[2]، أحد كبار علماء الرافضة، (الذي استحوذ عليهم بالباطل) بحسب تعبير الشيخ[3]، وذكر الشيخ أيضًا أن تلك التصانيف وقعت بأيدي المسلمين بعد فتح الجبل، في حين لم يُعثَرْ فيه علىٰ مصحف، ولا قارئ للقرآن[4]، وقد ذكر أبو عبد الله ابن رشيق، وابن عبد الهادي أن للشيخ مُصنَّفًا خاصًّا في الرد علىٰ أهل كِسْروان الرافضة، يقع في مجلدين[5].

هذا، وقد ذكر الشيخ أيضًا أن في الكِسْروانيين (خلقٌ كثير لا يقرون بصلاة، ولا صيام، ولا حج، ولا عمرة، ولا يحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار، من جنس الإسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارىٰ بإجماع المسلمين)[6].

إن الكشفَ عن الفساد الاعتقادي للطوائف الخارجة عن شرائع الإسلام، أمرٌ مهم لازم لدىٰ تفسير ما يقومون به من أذىٰ للمسلمين، وموالاة أعدائهم عليهم،

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٣٩).

(٢) ترجمته في «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٣٨١-٣٨٢).

(٣) «فتوى في قتال الرافضة» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٨١).

(٤) «العقود الدرية» (ص٢٣٩-٢٤٠).

(٥) «أسماء مؤلفات ابن تيمية» لابن رشيق ضمن «الجامع لسيرة ابن تيمية» (ص٢٩٥)، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٥٨).

(٦) «العقود الدرية» (ص٢٤٦).

ولا يصح اختزال تفسير تلك الأفعال بالدوافع الدنيوية المصلحية فقط، وهذا ما نبه له علماء الإسلام في القرون السالفة، حيث ذكر الإمام عبد الكريم بن محمد الرافعي عن أبيه قصة تتعلق بتفسير معاداة الإسماعيلية الحشاشين للمسلمين في إيران، يقول الرافعي الأب: (كنا في درس الإمام محمد بن يحيىٰ رحمهما الله فجرىٰ ذكر ملاحدة الروذبار، وما بين أهل قزوين وبينهم من المعاداة الشديدة، والمقاتلة، والمناهبة، فعلَّلَ بعض الحاضرين تلك المعاداة بتزاحُمِهم علىٰ الماء والأرض، لما بينهم من المُجَاوَرة، وزعم أنها غير مبنيَّة علىٰ أمر ديني، بل سبيلهم سبيل الشيعة، وسائر المبتدعة في البلاد، إلا أن أهل قزوين يقبحون أمرهم، فقلت في نفسي: هذا مجلس غاصٌّ بأهل العلم الواردين من الأقطار المختلفة، ولو اشتغلت بإيراد ما هم عليه من العقائد الخبيثة، والمقالات الشنيعة علىٰ ما هو مودع في كتب الكشف لم يتسع الوقت والمجلس، ثم لا يقع ذلك من الجاهل بحالهم والمرتاب موقع القبول، ولا سبيل إلىٰ الإهمال، فقلتُ: بم تعرفون اللعين الحسن المعروف بالصباح؟ فأطبقوا علىٰ أنهم يعرفونه بالزندقة، والإلحاد، والخروج عن دين الإسلام، فقلتُ: هؤلاء القوم يقولُون: نحن علىٰ عقيدته ومقالته، فهل يُتوقَّفُ في تكفير من هذا حاله؟ فقالوا: لا، وانقطع الكلام)[1].

---

(١) «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٤٠٥).

ثانيًا

ابن تيمية يُفتِي ولاة الأمور بمشروعية الغزوة

استشار ولاة الأمور الشيخَ في مشروعية هذه الحملة، وسجل ذلك بقوله: (فلمَّا استشار بعضُ ولاة الأمر في غزوِهم، وكتبتُ جوابًا مبسُوطًا في غزوهم..)[1].

ويذكرالإمام زين الدين ابن الوردي الشافعي خبر الحملة في تاريخه، ثم يعقب بأن (الذي أفتىٰ بذلك ابن تيمية..)[2]، وكان الشيخ قد شافه ابنَ الوردي بخبر هذه الحملة سنة ٧١٥هـ كما سيأتي.

كان الشيخ مسمُوعَ الكلمة لدىٰ الأمراء، وقد تقدم شواهد ذلك لدىٰ ذكر أخبار حملات قازان، كما سيأتي مزيد شواهد لذلك عند ذكر نتائج هذه الحملة، ولذا قال الذهبي في وصفه: (جَبَلَ الله قلوب الملوك والأمراء علىٰ الانقياد له - غالبًا - وعلىٰ طاعته)[3].

(١) «منهاج السنة» (٥/ ١٦٠).

(٢) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٤٦).

(٣) نقله ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٩٧) عن «معجم الشيوخ» للذهبي.

ثالثًا

ابن تيمية يقيم الحجة على الكِسْروانيين قبل الغزوة

يذكر ابن تيمية أنَّ جهادَ الكِسْروانيين تمَّ (بعد أن كُشِفت أحوالهم، وأُزِيحت عِلَلُهم، وأُزيلت شُبهُهم، وبُذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به، وبُيِّن لهُم أنَّ غزوَهم اقتداءً بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحرورية المارقين)[١].

ويقول في خبر هذه الحملة: (...وذهبنا إلىٰ ناحيتهم، وحضرَ عندي جماعةٌ منهم، وجرَتْ بيني وبينهم مناظراتٌ ومفاوضاتٌ يطول وصفُها...)[٢].

وقال البرزالي: (توجَّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلىٰ الجبليَّة الجرديين والكِسْراونيين، وصحبته الأمير قراقوش في مستهل ذي الحجة (١/ ١٢/ ٧٠٤هـ)[٣]، ثم توجَّه بعدهم[٤] إلىٰ الجهة المذكورة الشريف زين الدين ابن عدنان في نصف ذي الحجة)[٥].

وقال الصفدي: (وتردَّد الشيخ العلامة الإمام تقي الدين بينهم وبينهم، فلم يُفد فيهم)[٦].

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٤١).

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) خلافًا لما ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ٥٠) من أن خروج ابن تيمية كان في ثاني محرم. وانظر «العقود الدرية» (ص٢٣٣-٢٣٤).

(٤) خلافًا لما ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ٤٩) من أن ابن عدنان خرج مع ابن تيمية، وخلافًا لما ذكره النويري في «نهاية الأرب» (٣٢/ ٧٠) من أن خروج ابن عدنان كان متقدمًا على ابن تيمية وقراقوش.

(٥) (المقتفي على الروضتين) (٣/ ٢٨٤).

(٦) «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٩٢).

وقد ذكر بعض أصحاب الشيخ أنه جرت بين الشيخ وبعض كبراء كسروان مناظرات علمية، وحكاها له، فذكر (أَنَّهُ تجادل معه كبيرٌ من كبراء أهل جبل كِسْروان، له اطلاع علىٰ مذهب الرافضة، قال: وكان الجدل والبحث في عصمة الإمام وعدم عصمته، وفي أن أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه معصوم من الكبائر والصغائر، في كل قول وفعل -هذه دعوىٰ الجبلي- وأن الشيخ حاجَّهُ في أن العصمة لم تثبت إلا للأنبياء عليهم السلام، قال: وإنني قلتُ له إن عليًّا وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما اختلفا في مسائل وقعت، وفتاوىٰ أفتىٰ بها كل منهما، وأن تلك الفتاوىٰ والمسائل عرضت علىٰ النبي ﷺ، فصوب فيها قول ابن مسعود رضي الله عنه.

هذا معنىٰ كلام الشيخ في حديثه عن المجادلة مع الرافضي الجبلي، وإن اختلفت العبارة)[1].

---

(١) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣٣).

رابعًا

ابن تيمية في جبل كِسْروان.. مجاهدًا في سبيل الله

يقول بعضُ أصحابِ الشيخ: (لما حرَّكَ الله سبحانه عَزَمَات نفوس ولاة الأمر لقتال أهل جبل كسروان، وهم الذين بغَوا، وخرَجُوا على الإمام، وأخافوا السبل، وعارضوا المارِّين بهم من الجيش بكل سوء، فقام الشيخُ في ذلك أتمَّ قيام، وكتبَ إلىٰ أطراف الشام في الحثِّ علىٰ قتال المذكورين، وأنها غزاة في سبيل الله)[١].

قال البرزالي: (ووجَّه نائبُ السلطنة من تأخَّر من عسكر دمشق إلىٰ جبل كسروان والجرديين لغزوهم، واستئصال شأفتهم، في ثاني شهر المحرم (٢/ ١/ ٧٠٥هـ)[٢]، وكان قد توجَّه قبله العسكر طائفة بعد طائفة في ذي الحجة)[٣].

كتب الله النصر للجيش الإسلامي في هذه الغزوة، وفُتِح الجبل، وفي أول صفر كان (عامة بلدهم قد دثر، واستأمن عامة من فيه من البشر، وخرب الجُرْد والكِسْروان، ودخل في خبر كان...)[٤]، بحسب تعبير الشيخ.

وقال النويري بعد أن ذكر فشل المفاوضات مع الكِسْروانيين: (فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومملكة من الممالك الشامية، وتوجَّه نائب السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم، وجمع جمعًا كثيرًا من الرجال، فيُقال: إنه اجتمع من الرجالة

(١) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣٠).
(٢) يذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ٥٠) أن خروج الأفرم كان في هذا اليوم، وعبارة البرزالي لا تدل على ذلك.
(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٩٠).
(٤) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٨).

نحو خمسين ألفًا، وتوجهوا إلىٰ جبال الكِسْروانيين والجرديين، وتوجه الأمير سيف الدين أسندمر بعسكر الفتوحات من الجهة التي تلي بلاد طرابلس، وكان قد نُسِب إلىٰ مباطنتهم، فكتب إليه في ذلك، فجرَّد العزم، وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه أثر هذه الشناعة التي وقعت، وطلع إلىٰ جبل الكِسْروان من أصعب مسالكه، واجتمعت عليهم العساكر فقتل منهم خلق كثير، وتبدد شملهم، وتمزقوا في البلاد...)[1].

وقال ابن الوردي: (أحاطت عساكر الشام بجبال الظنينين المنيعة، وكانوا عصاة مارقين، وترجلوا عن الخيل، وصعدوا في تلك الجبال من كل جانب، وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين، وأُمِّنت الطرق بعدهم، وكانوا يتخطفون المسلمين، ويبيعونهم من الكفار)[2].

شارك الشيخ وأصحابُه المشاركة العملية في هذه الغزوة، قال ابن فضل الله: (وحُكِي من شجاعته في مواقف الحرب نوبةَ شقحب، ونوبةَ كسروان، ما لم يُسمَع إلا عن صناديد الرجال، وأبطال القتال، وأحلاس الحرب، تارةً يُباشر القتال، وتارة يُحرِّضُ عليه)[3].

ويذكر ابن الوردي في ترجمة الشيخ نور الدين الصائغ رحمه الله تعالىٰ -أحد كبار أصحاب ابن تيمية[4]- أنه كان حامل راية ابن تيمية في تلك الواقعة[5].

---

(١) «نهاية الأرب» (٣٢/ ٧٠)

(٢) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٤٦).

(٣) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٧٠١).

(٤) كذا وصفه ابن االوردي في «تاريخه» (٢/ ٣٤١)، والشيخ نور الدين رحمه الله أحد أصحاب شيخ الإسلام الذين وجه لهم الشيخ عماد الدين الواسطي رسالته «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار».

(٥) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٣٤١)،

وقال بعض أصحاب الشيخ: (ثم تجهز هو بمن معه لغزوهم بالجبل، صحبةَ وليِّ الأمر نائب المملكة المعظَّمة -أعزَّ الله نصره- (الأمير جمال الدين الأفرم)، والجيوش الشامية المنصورة، وما زال مع وليِّ الأمر في حصارهم وقتالهم حتىٰ فتح الله الجبل، وأجلىٰ أهله، وكان من أصعب الجبال وأشقِّها ساحة، وكانت الملوك المتقدمة لا تُقدِم علىٰ حصاره مع علمها بما عليه أهله من البغي، والخروج علىٰ الإمام، والعصيان، وليس إلا لصعوبة المسلك ومَشقَّة النزول عليهم،... ففتحه الله علىٰ يدي ولي الأمر نائب الشام المحروس -أعز الله نصره-)[1].

بعد أن استسلم الكسروانيون، وطلبوا الأمان، نهىٰ الشيخ ولاةَ الأمر عن سبيهم، وإنما حثهم علىٰ إجلائهم، وتفريقهم في قرىٰ المسلمين، يقول: (فلمَّا فتح المسلمون بلدَهُم، وتمكَّنَ المُسلمون منهم، نهيتُهم عن قتلِهم، وعن سبيهم، وأنزلناهم في بلاد المسلمين مُتفرِّقين؛ لئلا يجتَمِعُوا)[2].

يقول الشيخ: (فأعز الله دينه وجنده بفتح بلادهم، وإجلائهم منها بالذل والصغار: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٣]، وذلك بعد أن قتل الله منهم من لم يُحْصَ عدده إلىٰ الآن، وذل جماهيرهم وطلبوا الدخول في الأمان، فأومنوا علىٰ أن ينزلوا إلىٰ بلاد الإسلام، ويقوموا بالواجبات التي تجب علىٰ الأنام، ويلتزموا حكم الله ورسوله، الشاهد به كتابه وسنة رسوله، ويكونوا من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، ومن خرج عن ذلك أو عن شيء منه فقد برئت منه الذمة، التي حصلت من أهل السنة إليهم.

---

(١) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣٠-٢٣١).
(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨-١٥٩).

وفُرِّقُوا في البلاد بين أهل السنة والجماعة، بحيث لا يكون لأهل البدعة اجتماع علىٰ خلاف الطاعة، وخربت وحرقت مساكنهم والديار، وقطعت زروعهم والأشجار، من العنب الكثير، والتوت الغزير، والجوز واللوز، وغير ذلك، وكان ذلك بإذن الله من أبلغ المسالك؛ آيسهم من سكنىٰ الجبال، وأوجب استئمان من كان تخلف منهم راجيًا، لحسن الحال، وأخزىٰ الله بذلك الفاسقين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

واتبع في ذلك ما فعله رسول الله ﷺ ببني النضير، إذ كان بين هؤلاء وبينهم شبه كثير، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[الحشر: ٥]، ولهذا ذكر الله في هذه السورة ما يبين ما هم به من المارقين، وقد ثبت في الصحاح أن النبي ﷺ قطع نخل بني النضير، وحرق، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

وهـــان عـــلى سراة بـنــي لـؤي
حـريــق بـالـبـويـرة مـسـتـطـير)[1]

ويبين الشيخ وجه تقطيع أشجارهم فيقول: (وقطعت أشجارُهم؛ لأن النبي ﷺ لما حاصر بني النضير قطع أصحابُه نخلَهم، وحرَّقوه، فقال اليهود: هذا فساد، وأنت يا محمد تنهىٰ عن الفساد، فأنزل الله في القرآن: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥]، وقد اتفق العلماء علىٰ جواز قطع الشجر، وتخريب العامر عند الحاجة إليه؛ فليس ذلك بأولىٰ من قتل النفوس.

---

(١) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين عبد العزيز ابن تيمية في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٦-٤٧٧).

وما أمكن غيرُ ذلك؛ فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها، وأيسوا من المقام في الجبل إلا حين قطعت الأشجار، وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم، وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم؛ لأن التركمان إنما قصدهم الرعي، وقد صار لهم مرعىٰ، وسائر الفلاحين لا يتركون عمارة أرضهم، ويجيئون إليه)[1]. وحديث الشيخ عن عدم إضرار تقطيع الأشجار بالتركمان؛ لأن الجبال بعد الفتح أقطعت لجماعة من أمرائهم[2].

قال البرزالي: (وفي يوم الخميس سابع عشر صفر (١٧/ ٢/ ٧٠٥هـ) وصل نائب السلطنة الأمير جمال الدين الأفرم من جبال الجرد والكسروان إلىٰ مدينة دمشق المحروسة، بعد أن نصَرَهُم الله تعالىٰ علىٰ حزبِ الضلال من الرَّوافض والنُّصيرية وأصحاب العقائد الفاسدة، وأبادهم الله من تلك الأرض، ووطِئُوا أراضي لم يكن أهلُها يظنُّون أنَّ أحدًا يصلُ إليها، وأعانَ الله سُبحانه، وأذلَّ رقابهم، وبدَّدَ شملَهُم)[3].

ويذكر ابن كثير أن الشيخ عاد مع الأفرم فيقول: (...فنصرهم الله عليهم، وأبادوا خلقًا كثيرًا منهم، ومن فرقتهم الضالة، ووطئوا أراضي كثيرة من منيع بلادهم، وعاد نائب السلطنة إلىٰ دمشق في صحبة الشيخ تقي الدين ابن تيمية والجيش، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير، وأبان الشيخ علمًا وشجاعة في هذه الغزوة، وقد امتلأت قلوب أعدائه حسدًا له وغمًّا)[4].

---

(١) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٤٣-٢٤٤).

(٢) «نهاية الأرب» (٣٢/ ٧٠).

(٣) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٢٩٢-٢٩٣). ونقله عنه ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣٤).

(٤) «البداية والنهاية» (١٨/ ٥٠).

وقال بعض أصحاب الشيخ: (وكان فتحه إحدىٰ المكرمات والكرامات المعدودة للشيخ لسببين -علىٰ ما يقوله الناس-:

أحدهما: لكون أهل هذا الجبل بُغاة، رافضة، سبَّابة، تعيَّن قتالهم.

والثاني: لأنَّ جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه في حال استيلاء الطاغية قازان أشار بعض كبرائهم بنهب الجبل، وسبي أهله، وقتلهم، وتحريق مساكنهم، انتقامًا منهم لكونهم سُنيَّة -وسمَّاهم ذلك المُشير نواصب- فكان ما كان من أمر جبل الصالحية بذلك القول وتلك الإشارة. قالوا: (فكُوفِئ الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبيرٍ من كُبراء أهل السنة، وزنًا بوزن، جزاء علىٰ يد ولي الأمر وجيوش الإسلام).

والمُشير المذكور هو الشيخ المُشار إليه.

ولما فُتح الجبل، وصار الجيش بعد الفتح إلىٰ دمشق المحروسة، عكَفَ خاصُّ الناس وعامُّهم علىٰ الشيخ بالزيارة والتسليم عليه والتهنئة بسلامته، والمسألة له منهم عن كيفية الحِصَار للجبل، وصورة قتال أهلِه، وعمَّا وقع بينهم وبين الجيوش من المراسلات وغيرها، فحكىٰ الشيخ ذلك)[1].

وجَّهَ الشيخُ عقب فتح الكسروان رسالتين:

الأولىٰ: إلىٰ السُّلطان الناصر في القاهرة[2]، يحمد الله تعالىٰ فيها علىٰ ما أنعم به علىٰ المسلمين من النصر، ويصف حال الكسروانيين وما هم عليه من الخروج

---

(١) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣١-٢٣٢).

(٢) أثبتها ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٢٣٥-٢٤٧)، وابن قاسم في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٩٨-٤٠٩). وقد نقلت فقرات عديدة منها في هذا الفصل.

عن شرائع الإسلام، والعداوة للمسلمين، وعلىٰ أي وجهٍ شرعيٍّ تمَّ قتالُهم، وأشار عليه بخطة إصلاحية للكسروانيين بعد الجلاء، إذ كان من فقه الشيخ أن (المقصودَ بالجهادِ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هدايةُ العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله سعِدَ في الدُّنيا والآخرة، ومن لم يهتدِ كفَّ الله ضرَرَه عن غيرِه)[1].

وتلك الخطة تقوم علىٰ أمرين:

الأول: حسم مادة الشر والفساد: وذلك بالإمساك برؤوس الشرِّ الذين يضلونهم، كبني العود، حيث إن (هؤلاء القوم لهم من المشايخ والإخوان في قرىٰ كثيرة من يقتدون بهم وينتصرون لهم، وفي قلوبهم غلٌّ عظيم، وإبطان معاداة شديدة، لا يؤمنون معها علىٰ ما يُمكِنُهم)[2].

الثاني: إقامة الشريعة في العباد: وذلك بأن تقام في قُرَاهم -التي أُجلُوا لها- شرائعُ الإسلام، حيث اعتذر المقاتلون من الكسروانيين بعد القدرة عليهم بأنهم جهال، وإنما يضللهم مشايخهم، وقالوا: (كانوا يعلموننا ويقولون لنا: أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين، ومن قتل منكم فهو شهيد)[3].

يقول الشيخ مخاطبًا السلطان: (فتقدُّمُ المراسيم السلطانية بإقامة شعائر الإسلام: من الجمعة، والجماعة، وقراءة القرآن، وتبليغ أحاديث النبي ﷺ في قرىٰ هؤلاء، ونشر المعالم الإسلامية، وعقوبة من عرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شريعة الإسلام، مِنْ أعظم المصالح الإسلامية، وأبلغ الجهاد في سبيل الله، وذلك

---

(١) (مجموع الفتاوى) (٣٥/ ١٦٠).

(٢) «العقود الدرية» (ص٢٤٥).

(٣) «العقود الدرية» (ص٢٤٥).

سببٌ لانقماع من يُبَاطِنُ العدوَّ من هؤلاء، ودخُولِهم في طاعة الله ورسوله ﷺ، وطاعة أولي الأمر من المسلمين)[1].

والرسالة الثانية: إلىٰ ابن ابن عمِّه، وهو عز الدين عبد العزيز بن عبد اللطيف بن عبد العزيز بن عبد السلام ابن تيمية[2]، وسائر من تصل إليه الرسالة من الإخوة والأصحاب، يذكر فيها حصول النصر علىٰ الكسروانيين، ويعرض جرائمهم وعقائدهم، ويذكر ما جرىٰ لهم بعد القدرة عليهم، ثم يسلم علىٰ جميع الأصحاب والإخوان واحدًا واحدًا، وعلىٰ من قدم من الحجِّ واحدًا واحدًا، إذ كان هذا الفتح في وقت رجوع الحجيج إلىٰ بلادهم.

ولعل محورية دور ابن تيمية في هذه الحملة هو ما حمل ابن الوردي علىٰ تسميتها بـ(واقعته المشهورة في جبل كسروان)، حيث يذكر ابن الوردي خبر سهرة علميةٍ أخوية جرت بين الشيخ وبينه في دمشق بعد الفتح بسنوات، حدثه فيها عن هذا الفتح؛ فيقول: (وكنت اجتمعت به رحمه الله تعالىٰ بدمشق سنة خمس عشرة وسبعمائة بمسجده بالقصاعين، وبحثت بين يديه في فقه وتفسير ونحو، فأعجبه كلامي، وقَبَّلَ وجهي، وإني لأرجو بركة ذلك، وحكىٰ لي عن واقعته المشهورة في جبل كسروان، وسهرت عنده ليلة، فرأيت من فتوته ومروءته ومحبته لأهل العلم ولا سيما الغرباء منهم أمرًا كثيرًا، وصليت خلفه التراويح في رمضان، فرأيت علىٰ قراءته خشوعًا، ورأيت علىٰ صلاته رقة حاشية تأخذ بمجامع القلوب)[3].

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٤٦) -بتصرف-.

(٢) نشرها عمر عبد السلام تدمري في ملاحق كتاب «تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور: عصر دولة المماليك» (الملحق الثاني)، وعبد الرحمن قائد في «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٣-٤٧٩). وقد نقلت فقرات عديدة منها في هذا الفصل.

(٣) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٦).

خامسًا

الفتح المبين.. بقلم ابن تيمية

وصف الشيخ ما جرىٰ في عهد الناصر من جهاد التتار والكسروانيين بأنها (نِعَمٌ لم تُعهَد في القرون الخالية)، وأن ما جرىٰ (شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين)، ويدعو الله تعالىٰ (أن يتم نعمته بتمام النصر علىٰ سائر الأعداء المارقين)[1].

ويقول الشيخ في وصف هذ الفتح: (وكان هذا فتحًا أقام الله به عمود الدين، وقمع به طوائف أهل البدع والمنافقين، من جميع الأجناس والأصناف، في جميع النواحي والأطراف، سير فيه بسيرة الخلفاء الراشدين، الثابتة بالكتاب وسنة سيد المرسلين.

والحمد لله الذي ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، والله تعالىٰ يوزعُنَا وسائرَ المؤمنين شكرَ هذه النعمة التي لم تبلغها الظنون، ولم يطمع بها الطامعون، بل ظن المنافقون أن لن ينقلب المؤمنون إلىٰ أهليهم أبدًا، وزين ذلك في قلوبهم، وظنوا ظن السوء، وكانوا قومًا بورًا.

ففتح الله فتحًا مبينًا، ونصر نصرًا عزيزًا، ويسر من الأمور ما كان عسيرًا، وفتح من أبواب هدايته ونصره ورزقه ما يجل أن يقال: كان كثيرًا)[2].

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٣٥-٢٣٦).

(٢) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين عبد العزيز ابن تيمية في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٨).

وقد ذكر الشيخ من أسباب الفتح: غدر أهل البدع المارقين بما فعلوه بالمسلمين في أرمينيا الصغرىٰ؛ فإن الغدر من أسباب الهزيمة، يقول في ذلك: (فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض سيس نوع من غدرهم الذي به ينصر الله المسلمين عليهم، وفي ذلك لله حكمة عظيمة، ونصرة للإسلام جسيمة؛ قال ابن عباس: ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو، ولولا هذا وأمثالُه ما حصل للمسلمين من العزم بقوة الإيمان، وللعدو من الخذلان ما ينصر الله به المؤمنين ويذل به الكفار والمنافقين)[1].

وإذا كان الشيخ يعني في هذا النصِّ واقعةً في بلاد سيس قريبةً من واقعة الفتح، يكون هذا النصُّ دالًّا علىٰ أن الرافضة والنصيرية ونحْوَهم كانَتْ لهم مُشاركة في الوقيعة التي أوقع بها التتار بالعسكر الحلبي لما أغاروا علىٰ الأرمن، قبل أشهر من الفتح، وقد تقدم خبرها، والله تعالىٰ أعلم.

---

(١) «العقود الدرية» (ص٢٤٦).

الفصل الثاني

حملة مغول إيران على كيلان ٧٠٧هـ

أولًا

بين أهل كيلان.. وابن تيمية

ظلت ولاية گيلان الغنية خارج نطاق توسعات المغول منذ عهد جنكيز خان، وفشلت حملات هولاگو وخلفائه في السيطرة عليها، بسبب طبيعتها الجبلية الوعرة المسالك، وكثرة الغابات، ووجود الجبال الشاهقة، واستمرار الأمطار.

كانت الولاية تنقسم إلىٰ اثنتي عشرة مدينة، علىٰ كلٍّ منها أمير مستقل، تحت إمرته جيش جرار، ومن ملوكهم إذ ذاك: دوباج بن قطلي شاه بن رستم[1]، وتتوسط مملكة إيران، وكان أهلها من أهل السنة.

يقول ابن كثير: (وبلادهم من أحصن البلاد وأطيبها، لا تُستَطَاع، وهم أهل سنة، وأكثرهم حنابلة، لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم)[2].

وقد كان بين ابن تيمية وأهل گيلان تواصل علمي، وكانوا يرجعون إليه في شؤون الاعتقاد، وكتب لهم الشيخ الرسالة الگيلانية في مسألة القرآن، وهي: (جواب سؤال قدم من بلاد گيلان في مسألة القرآن إلىٰ دمشق في سنة أربع وسبعمائة، من جهة سلطان تلك البلاد، علىٰ يد قاضيها، لأجل معرفة الحق من الباطل، عندما كثر عندهم الاختلاف والاضطراب، ورغب كل من الفريقين في قبول كلام شيخ الإسلام أبي العباس أحمد ابن تيمية في هذا الباب، فأملاه

---

(١) كانت وفاته في دمشق في طريق حجّه سنة ٧١٥هـ، وترجمته في «أعيان العصر» (٢/ ٣٥٨).
(٢) «البداية والنهاية» (١٨/ ٧٣).

شيخ الإسلام في المجلس، وكتبه أحمد بن محمد بن مري الشافعي بخط جيد قوي)[1].

وحَضَر الشيخ شمس الدين محمد بن الرضي خطيب گيلان يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة خمس وسبعمائة (١٤/ ٢/ ٧٠٥هـ) بدمشق المحروسة، بعد قضاء نُسكه في عَوده إلىٰ بلده، إلىٰ بين يدي الشيخ، فسلَّم عليه، وفاتحه الشيخُ فيما يقولون عن أهل گيلان في نزول الربِّ عز وجل إلىٰ الأرض والطرقات؟

فقال: والله الذي لا إله غيره، هذا شيءٌ ما سمعته، لا من خواصِّ الناس، ولا من عامَّتهم.

ثم سأله عن النزول إلىٰ السماء الدنيا؟

فقال: سمعنا عن شيخ الإسلام الأنصاري أنه قيل له: ما تقول في النزول؟ فقال: نزولٌ لا يعرفه الكروبيُّون، أعرفه؟ وهذا جوابنا عن النزول.

فسأله الشيخ عن القول في المصحف؟

فقال: الورق مخلوق، وكلام الله غير مخلوق.

فقال: هذا اعتقادنا، نعم هكذا نقول.

فقال الشيخ: الصوت، ما تقولون فيه؟

فقال: نحن نقول: صوت القرآن غير صوت الناس.

فقال الشيخ: أنا إذا قلتُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، ما هو؟

---

(١) كذا عرف بالرسالة أبو الحسن بن عروة في مقدمة أوراق اختارها من ذلك الجواب وهي من محفوظات الظاهرية، وطبعها رشيد رضا في «مجموعة الرسائل والمسائل» (٣/ ٣٣٣-٣٤٨)، ونشر «الكيلانية» بتمامها ابنُ قاسم في «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٢٣-٥٠١).

فقال: كلام الله.

فقال الشيخ: بصوتي أم بصوت الله القائم بذاته سمعت ذلك في هذه الساعة؟

فقال: سمعت القرآن بصوت القرآن.

فقال الشيخ: بل سمعت القرآن بصوتي، الكلامُ كلام الباري، والصوتُ صوت القاري. هذا هو الحق، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم»[1].

كان تأثيرُ الشيخ في تلك الحقبة قد تجاوز الشَّامَ، وذلك بانتشار رسائِلِه وفتاويه، ونتَج عن ذلك -إضافة إلىٰ ما تقدَّم ذكره من تمكُّن الشيخ في الشام في تلك المدة- إثارة مخالفيه عليه، واشتدَّت الأمور لمَّا كان من هؤلاء المخالفين من هو صاحب نفوذٍ لدىٰ الدَّولة بمصر، وسرعان ما تحرَّكوا لإضعافه، وتمكَّنوا من طلبه إلىٰ مصر، وعقدت له محاكمة جائرة ادُّعي عليه فيها أنه يقول: (إن الله تكلم بالقرآن بحرفٍ وصوت، وإنه تعالىٰ علىٰ العرش بذاته، وإن الله يشار إليه الإشارة الحسية)[2]، ثم اعتُقِل في ٢٢/ ٩/ ٧٠٥هـ، ليدخل الشيخُ حينئذ في مرحلة الابتلاء والمحنة، بعد مرحلة التمكين[3].

في مدة وجود الشيخ في مصر، وتحديدًا يوم الخميس ٩/ ٥/ ٧٠٧هـ وصل إلىٰ دمشق رجل عجمي من العراق اسمه براق، ومعه جماعة من الفقراء نحو مئة، وفي رؤوسهم قرون لبابيد، ومعهم أجراس وكعاب، يحفون اللحىٰ، ويوفرون

---

(١) «جامع المسائل» (٧/ ٣٩١-٣٩٧).

(٢) كذا ذكر الذهبي نصَّ دعوى ابن عدلان. «الدرة اليتمية في السيرة التيمية» ضمن «تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية» (ص٤٥-٤٦).

(٣) راجع في تفاصيل ذلك كتاب «محنة ابن تيمية: التدافع العقدي في ظروف السياسة والقضاء والمجتمع المملوكي» للمؤلف.

الشوارب، ونزلوا بالمنيبع بدمشق، وخرج الناس للتفرج عليهم، وصلُّوا الجُمعة برواق الحنابلة في الجامع، ثم توجهوا إلىٰ القدس، وقصدوا دخول مصر، فلم يؤذن لهم، فعادوا إلىٰ دمشق، وأقاموا رمضان، وسافروا بعد العيد[1].

فما خبر براق هذا؟ وما صلتُه بـ(ابن تيمية وأهل گيلان)؟

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٢٤).

ثانيًا

حملة خربندا على كيلان ٧٠٧هـ

قال البرزالي: (براق المذكور هو رجل من أبناء الأربعين، رومي...، ودخل مرةً علىٰ غازان ملك التتار وحصل له منه كرامة، فإنه سلط عليه نمرًا ليؤذيه، فصاح فيه، فانهزم النمر، فصار له عنده بذلك مكانة، وأعطاه مرةً ثلاثين ألفًا ففرقها في يوم واحد.

ومما يُثنَىٰ عليه به أنه هو وجماعته يلازمون الصلاة، ومن فاتته صلاة في وقتها ضرب أربعين سوطًا، ولهم ذكر بين العشاءين، وكرمه زائد، وأما ما يفعله من حلق اللحية، ولبس القبع الذي هو خلاف العادة؛ فهو يجيب عن ذلك يقول: إنما قصدت أنه لا تبقىٰ لي حرمة عند الناس، فأنا مسخرة الفقراء! وما شاكل ذلك.

وأُنكر عليه غير مرة، في بلاد متعددة، فتارة يحتج بالقلندرية، ويهون هذا الأمر، ويقول: الظاهر لا اعتبار به، إنما المقصود إصلاح الباطن)[1].

ولابن تيمية فتوىٰ سئل فيها عن القلندرية -الذين احتج بهم براق- فقال: (أما هؤلاء القلندرية المحلقي اللحىٰ، فمن أهل الضلالة والجهالة، وأكثرهم كافرون بالله ورسوله، لا يرون وجوب الصلاة والصيام، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق؛ بل كثير منهم أكفر من اليهود والنصارىٰ وهم ليسوا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، وقد يكون فيهم من هو مسلم، لكن مبتدع ضال، أو فاسق فاجر...)[2].

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٣٢٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٦٣).

وقال اليوسفي: (كان الشيخ براق شيئًا عجيبًا، قد حلق ذقنه وترك شواربه، وعمل علىٰ رأسه من اللباد علىٰ صفة قرون البقر، وعلَّق في رقبته أجراسًا وكعاب الأبقار والأغنام، وفي رقبته سلاسل الحديد، وهو جبَّار من الجبابرة، ومعه مائتا نفس بهذه الصفة، وهؤلاء الذين يأكلون الحرام، وأكثرهم ما يصومون شهر رمضان، وقد جعل براق له منهم نائبًا، وقاضيًا، ووزيرًا، وحاجبًا، ومحتسبًا، وسلحدارية، وله طبلخاناة، وكان كلامه مقبولًا عند التتار، وأمره مسموعًا نافذًا خصوصًا عند الملك خربندا، وكان يقال عند التتار: إنه يركب السباع...)[1].

ولأن براقًا كان مسموع الكلمة لدىٰ خربندا؛ فقد كان لتحريضه إياه علىٰ أهل گيلان، بدعوىٰ أنهم علىٰ عقيدة ابن تيمية، أثر في تسيير حملةٍ عسكرية قوامها ستون ألفًا، يقودها قطلوشاه وجوبان.

(وكان السبب في تجريد خربندا نائبه قطلوشاه إلىٰ بلاد كيلان ما بلغه عنهم أنهم علىٰ مذهب يخالف مذهب المسلمين، فقال: لا بد لي أن أبعث إلىٰ كيلان، وأطلب أكابرهم، وأجمع بينهم وبين فقهاء تبريز، فيبحثون معهم في عقيدتهم، فإن لم يظهر لها صحة ضربت أعناقهم، فكتب إلىٰ ملوك گيلان، وكان أمر ملوكهم وغيرهم يرجع إلىٰ ثلاث أنفس، وهم: نوبرشاه ودوباج وزكايزن، فلما وصل إلىٰ نوبرشاه رسول خربندا، وناوله الكتاب وقرأه، قال: من أين لخربندا معرفة بهذا الأمر؟ فسألوا الرسول عن ذلك. فقال: قد بلغ الملك من الشيخ براق -وهو شيخ يعتقد فيه الملك اعتقادًا عظيمًا- بأنكم علىٰ مذهب شخص من أهل دمشق يقال له: ابن تيمية، وقد وقع عليه الإنكار من المسلمين، وقد ذكر عنكم أنكم مجسَّمون،

---

(١) نقله العيني في «عقد الجمان» (٩/ ٤٠٦).

وأن مذهبكم بطال، وما أنتم علىٰ شيء من الدين)[1].

وقد عزم أهل گيلان بعد مشاورات بينهم، ومراسلات مع التتار، أن يصدوهم، ويصابروهم، وتعاهدوا علىٰ ذلك، وتواثقوا، وثبتوا للتتار، حتىٰ كسروهم، وأسر قطلوشاه، ثم قتل بالخازوق[2]. وبذلك هلك القائد الجنكيزي الذي قتل الشهيد نوروز، وقاد الحملات العسكرية علىٰ بلاد الشام.

أرسل خربندا براقًا رسولًا إلىٰ أهل گيلان بعد أن بلغ التتار خبر أسر قطلوشاه، فلما مثل براق بين يدي دوباج سلم عليه، فقال له دوباج: أنت براق؟ فقال: نعم، فأمره بالجلوس، فجلس، وكان قد بلغه منه أنه هو الذي حرض المغل علىٰ الدخول إلىٰ بلادهم، ثم قال دوباج: الحمد لله الذي أتىٰ بك يا شيخ براق من غير تعب، فوالله لقد كان في قلبي نار من جهتك، ثم قال له: لماذا أتيت في هذا الوقت؟ فقال له: اعلم أن سلطان البلاد، ومالك رقاب العباد خربندا قد سيَّرني إليكم ناصحًا، لما علم أنني صادق، وكلامي للحق موافق، وهو يأمركم أن تحلوا قطلوشاه ومن معه من الأمراء وتبعثوا إليه ما عليكم من الأموال، وأن ترجعوا عما تعتقدون من مذهب المجسمة، وتعتقدوا بما قاله الأشعري، وإلا سار إليكم بعساكر تضيق لها الأرض.

فلما سمع دوباج بذلك قال له: أنت يا براق! ما جئت إلا في هذا الأمر؟ قال: نعم. فقال له: فكأنك تحب قطلوشاه؟ فقال: نعم، لأنه أخي، وصاحبي. فقال له: يا فقير، وأين الإسلام الذي عندك إذا كان مثل هذا أخوك؟ وإش هذه الحالة التي أنت

---

(١) «عقد الجمان» (٩/ ٣٨٥-٣٨٦)، ولم يصرح العيني بعزو النقل لليوسفي، وأغلب الظن أنه له، وسياق خبر الحملة عنده طويل جدًّا، في عشرين صفحة من المطبوع، وفي تفاصيل ما ذكره اختلاف مع سياق البرزالي.

(٢) وقيل: أصيب بسهم فقتل، وكان الذي رماه دوباج.

عليها؟ محلوق الذقن والرأس، وقد خليت شواربك كأنك شيطان، إش هذا الذي تعتقده من الأديان؟ اليوم أخلي منك الأوطان، وأفجع فيك أصحابك والخلان، ثم قال: ردوه إلىٰ أخيه قطلوشاه؛ فإنه يحبه، فأخذوه، وجاؤوا به إلىٰ قطلوشاه، وهو قاعد علىٰ الخازوق، وهو ميت قديد، فلما رآه علىٰ هذه الهيئة بكىٰ وصاح، ثم نظر؛ فإذا هم قد نصبوا له خازوقًا مثله بجنب قطلوشاه، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا له: هذا مجلسك الذي أُمِرنا بأن نجلسك عليه، فقال: يا قوم لا تفعلوا، فما أظن دوباج يفعل بهذا، لأنه صاحب دين ويقين صادق، وهو صالح من الصالحين، فقالوا له: لا تطول هذا الكلام، فلا بد لك من الجلوس علىٰ هذه الخشبة، ونصبوا مع خشبته ثلاثين خشبة لأصحابه، وأُقعِدُوا جميعهم علىٰ الخوازيق، ولم يتركوا منهم إلا واحدًا من غلمانهم ليروح بالخبر، ثم قطعوا أنفه وأذنيه، وقالوا له: اذهب وأعلِمْ خربندا بالذي رأيت[1].

إن حجم التناقض الذي انطوت عليه شخصية براق يُعبِّر بامتياز عن حجم التناقض لدىٰ مغول إيران بعد انتسابهم للإسلام، ذلك التناقض الذي كشفته الأحداث تباعًا.. ما جرىٰ في گيلان.. بعد ما جرىٰ في الشام، فهم يَدَّعُون حماية الإسلام والعقيدة، ثم يهاجمون أهل گيلان المسلمين علىٰ يد قائد عسكري كافرٍ، كما كانوا قد أطلقوا من قبل يد العاهل الأرميني النصراني في صالحية دمشق سنة ٦٩٩هـ في حملتهم علىٰ الشام التي حملت شعار حماية المسلمين، ثم إن ملكهم خربندا يقاتل أهل گيلان بدعوىٰ التجسيم، وكونهم علىٰ اعتقاد ابن تيمية، وينتصر للأشعري، ثم هو بعد ذلك يعتقد الرفض -أخبَثَ المذاهب- ويُظهره، ويُلزمه الناسَ.

---

(١) «عقد الجمان» (٩/ ٤٠٣-٤٠٤).

الفصل الثالث

خربندا على خطى أخيه قازان

(حملة التتار على بلاد الشام سنة ٧١٢هـ)

أولًا

إرهاصات الحملة

(السلطنة الثالثة للناصر.. ولجوء الأمراء إلى التتار)

أمر مهمٌّ لا يمكن إغفاله لدىٰ النظر في أسباب حملة خربندا علىٰ بلاد الشام سنة ٧١٢هـ، فقد كانت القاهرة عاصمة المماليك قد شهدت عودة السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلىٰ الحكم (السلطنة الثالثة له)، وإحكامه السيطرة علىٰ الدولة.

كانت سياسةُ السلطان الناصر في عهده الجديد في التعامل مع الأمراء تقوم علىٰ إمهال من رأىٰ في سيرته ما يستدعي المحاسبة أو رأىٰ فيه خطرًا علىٰ حكمه إلىٰ الوقت المناسب، حتىٰ إذا جاء ذاك الوقت؛ أخذه أخذًا شديدًا، ولذا؛ كان الأمراء الكبار في الدولة، كالأفرم وقراسنقر، يدركون هذا جيدًا، لكنهما اختارا أسوء الخيارات في التعامل مع هذه السياسة[1].

(١) اعتمدتُ في تلخيص قصة هروب قراسنقر على رواية مملوكه بيخان التي نقلها عنه سماعًا ابن أيبك الداوداري في تاريخه «كنز الدرر وجامع الغرر»، واعتمدتُ في تلخيص قصة لحاق الأفرم به على رواية شهاب الدين النويري التي أوردها في تاريخه «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وكان النويري قريبًا من الأفرم عندما كان نائبًا عن السلطنة بطرابلس، إذ كان ناظرًا للجيش الطرابلسي. وقد أمضى الأفرم في نيابة السلطنة بدمشق ما يقرب من أحدَ عشرَ عامًا، وُصِف فيها بأنّه كان (في أرغد عيش، وأعظم تمَكُّنٍ وتصرُّف)، وأن أهل دمشق (كانوا يبالغون في محبته). «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٩٥)، وقد ذكرتُ في كتاب «محنة ابن تيمية» شيئًا من العلاقة الحسنة بين الأفرم وبين ابن تيمية. وبعد زوال دولة بيبرس الجاشنكير، واستتباب الأمر للسلطان الناصر، أجرى تعديلات في المناصب في الشام، من شأنها أن تُبعد أمراء الشام عن المناطق التي وجد لهم فيها نفوذ وتمكُّن في السنوات الماضية، فولّى نيابة السلطنة بدمشق لقراسنقر، الذي كان نائبًا عن السلطنة بحلب لسنوات – وإن كان قد رجع إليها في أول سنة ٧١١هـ قبل أن يتمرّد على الناصر–، وولى الأفرم نيابة السلطنة بصرخد. لم يَطُل مقام الأَفْرم=

ففي نهاية سنة ٧١١هـ وصلت الأخبار إلىٰ الأمير شمس الدين قراسنقر[1] بأنَّ السلطان الناصر أرسلَ خمسةَ آلاف فارس إلىٰ الشام، وأُخبِر قراسنقر من جهة عيونه ومناصحيه بأن هذا الجيش إنما أُرسل للقبض عليه[2]، ترك قراسنقر حلب، التي كان نائبًا عن السلطنة فيها، وحاول الفرار إلىٰ الحجاز بدعوىٰ أنه يقصد الحجّ، إلا أن عيونه أخبروه بأن السلطان سيقبض عليه، ولو كان متعلقًا بأستار الكعبة، فكانت الطريق التي أمامه للنجاة بنفسه: اللجوء إلىٰ أمير بادية الشام حسام الدين مُهنًّا بن عيسىٰ، وكان صديقًا له[3]، ووصل خبر اللجوء إلىٰ دمشق في (١٠/ ١١/ ٧١١هـ)[4]. طلبَ قراسنقر من مُهنًّا بن عيسىٰ أن يُراسِل السلطان في إعطائه نيابة قلعة الروم، فأرسل مهنا ابنه موسىٰ بذلك إلا أن السلطان رفض طلبه[5]. أشار مهنا علىٰ قراسنقر بالرجوع إلىٰ حلب، إلا أنه مُنع منها لكونه لم يأت بمرسوم من السلطان يسمح له بدخولها، فطلَب أمواله وخزائنه ومماليكه فأُعطيها بعد شفاعةٍ من مهنا[6].

=في نيابة السَّلطنة بصرخد، إذ تُوفِّي نائب طرابلس الحاج بهادر، فنُقل الأفرم إليها نائبًا عن السلطنة في (١٨/ ٦/ ٧١٠ هـ) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٧٥).

(١) الأمير قراسنقر أحد قتلة السلطان الأشرف خليل، أخي السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وهذه من ذنوبه التي لم تُنسَ له. ومما يشار إليه أن قراسنقر هو الآخر كان من مُحبِّي ابن تيمية، وقد نقل ابن ناصر الدين الدمشقي في «الرد الوافر» (ص٢٢٢-٢٢٣) عن البِرزالي - فيما وجده بخطِّه - جُزءًا من رسالة بعث بها قراسنقر إلى ابن تيمية، يمدحُه فيها، ويعبر فيها عن شوقه للقائه، وأسفه على فوات ذلك، وتطلُّعه إلى أخباره، ويدعو الله له بطول البقاء.

(٢) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢١٨).

(٣) كما في «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٤٦٦).

(٤) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٤٨).

(٥) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٠-٢٢١).

(٦) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢١-٢٢٢).

شاعت الأخبار في جميع أقاليم الشام بما جرىٰ لقراسنقر، فتشوَّشَ الناسُ والنواب بجميع الممالك الشامية، وسيَّر الأفرم وكاتب الأمير مهنا بن عيسىٰ: إني أيضًا واصل إليك بجماعة من أصحابي[1].

أرسل السلطان إلىٰ قراسنقر بعض الهدايا وطلب منه أن يعُود إلىٰ حلب، لكن عيونه ومناصحيه أخبروه بأنَّ هذه إنما هي حيلةٌ للقبض عليه، فذكَّر قراسنقر مُهنًّا بجواره، فالتزم مُهنًّا بأنه لا يخفر جواره. ثم أجاب قراسنقر رسول الناصر فقال: (أما الخلعة والأرمغان[2] فقد قبلتُه علىٰ رأسي، وأما عودتي إلىٰ حلب، فلا والله ما أُقامِر بنفسي، والروح عزيزة، وأنا بقيت رجل كبير، ولا قدرة لي علىٰ تعذيب، ولو علمت أني إذا مثلت بين يديه قتلني في ساعتي وأراحني لما - والله - تأخرت، لكن أخشىٰ من تعذيبي)[3].

ثم أرسل الناصر إليه برسالةٍ يطلبُ منه أن يَقدُم إلىٰ القاهرة، ويحلف الناصر فيها الأيمَان أنه عنده في المكان الرفيع، فأشار مهنا عليه أن يمتثل لأمر الناصر، وأنه بعد هذه الأيمَان لن يكون هناك غدر، فاستثار قراسنقر حمية مهنا وعروبته، بأن الخطر ليس علىٰ نفسه إذا قتله السلطان، وإنما في أن يلزم مهنا العار بين العرب إذا حصل ذلك، وبكىٰ قراسنقر، فبكىٰ المهنا أيضًا، وقال: (لا والله، لا سمعت العرب بذلك)[4].

إلا أن قراسنقر أرسل مملوكه وولده إلىٰ الناصر، وصل الأول في (١٤/ ١٢/ ٧١١هـ)، والثاني في (١٩/ ١٢/ ٧١١هـ)[5].

---

(١) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٢).

(٢) الأرمغان: الهدية أو الهبة. «معجم مصطلحات العصر المملوكي» (ص١٤).

(٣) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢١-٢٢٢).

(٤) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٥) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٥١).

يقول النُّويَري: (وبعد أن أرسل قراسنقر ولدَه المذكور وأموالَه ونائبَه أظهر العصيان، وتجاهر به، وخلع الطاعة، وكاتب الأمراء، وراسل الأفرم، وبذلَ له الطاعة، وأن يكون هو صاحبَ الأمر دون قراسنقر، وبذل له المال مع ذلك ليُعينَه به، فأرسل إليه مرَّةً ثلاثة الآف دينار عينًا، ومرَّةً أخرىٰ، ومرَّةً ثالثة فوافَقه علىٰ ذلك، وباطَنَه، وكتب إلىٰ السلطان يُخبِره بما كاتَبَه به قراسنقر ومهنّا، وبقي في ذلك (يُسِرُّ حسوًا في ارتغاء)[1]، واستمرَّ الأمير جمال الدين يدافع الأيام، ويُقدِّم رجلا ويُؤخِّر أخرىٰ، ويُكاتب السلطان، ويرد عليه الأجوبة في بقية سنة إحدىٰ عشرة وسبعمائة.

وكنتُ [2] يوم ذاك ناظرَ الجيش الطرابلسي، وكان لي عليه إدلالٌ كثير، فشرع يكتم ذلك عنِّي وعن غيري، إلا من علم أنّه يوافقه علىٰ رأيه، ويُباطِنه علىٰ مقصده، وظهر لي من صفحات وجهه، وحركاتِه، واضطراب أمره، وشلش بعض مماليكه؛ ما دلّنيٰ علىٰ مراده، فدخلتُ عليه فىٰ أثناء ذي الحجة، وهو بطرابلس، وكاشفتُه، وتحدَّثتُ معه، وحذَّرتُه عاقبة هذا الأمر، وبذلتُ له النصيحة، فكاد يكشف لي عن باطنه، ويخبرني بما أضمرَه وعزَم عليه، فلحظتُ بعض أكابر مماليكه وهو يغمزه، ويشير إليه أن لا يفعل، فعدَل عمَّا أراد أن يُخبِرَني به، ثم قال لي: أنا أتحقَّقُ محبَّتك ونُصحك، وأنَّه ما حملك علىٰ أن ذكرت ما ذكرت إلا الشفقةُ عليَّ، وجزَّاني خيرًا، ثم قال لي: هذا الأمر الذىٰ لحظته وظننتَه قد طالعت السلطان مما وقع فيه، وأرسلتُ إليه ما ورد عليَّ من كتُب قراسنقر والعرب، وهذا الذىٰ يظهر لك أنني

---

(١) أي إنَّه يُوهم أنَّه يتناوَلُ رغوة اللَّبن، وإنما الذي يريدُه شُرب اللبن نفسِه، يُضرب ذلك لمن يمكُر، يظهر أمرًا وهو يريد غيره. «مقاييس اللغة» (٢/ ٥٨). والمقصود أن الأفرم كان يُطلِع الناصرَ على ما بينَه وبين قراسنقر ومهنا، ليوهمه بولائه له، وهو في باطن الأمر على غير ذلك.

(٢) يعني: شهاب الدين النويري.

أفعلُه هو عن أمر السلطان، وسوف يظهر لك. فما شككت في قوله! واستكتمني هذا الأمر فكتمتُه، ثم ظهر أن الأمر في باطنه بخلاف ما أظهر لي)[1].

بعدها أرسل السلطانُ بعض العسكر ونزلوا قرب حمص. يقول النويري: (فقلق الأمير جمال الدين الأفرم غايةَ القلق، وارتاع لنزولهم بالقُرب مِنه، وخشيَ أن يُقبض عليه، وكان قد حذر منذ قُبِض علىٰ الأمير سيف الدين كراي، والأمير سيف الدين قطلوبك، ورأىٰ أن السلطان قد قبض علىٰ من لم يُسلِف ذنبًا، ولا وقع منه مخالفة فيما مضىٰ، وإنما مُسكا احتياطًا، فكيف يكون حال من له ذنوبٌ قديمة، ومخالفة فىٰ ابتداء الأمر[2]؟!)[3].

ثم جاء جواب السلطان للأفرم علىٰ مراسلته بطلبه للقاهرة، ليُجدِّد العهد به، وليُعطيَه تقليدَ نيابة السلطنة بحلب، فخاف الأفرم أن تكون حيلةً للقبض عليه. وحينها قرّر اللَّحاق بقراسنقر، وكاتب الأمراء باللَّحاق به[4]، ووصل إليه بصحبة بعض الأمراء في (٥ / ١ / ٧١٢هـ)[5]، وعندما التقىٰ الأفرم بقراسنقر قال له: (أيش هذا التهاون بأرواحنا؟ اركب بنا، وخلِّص ذقوننا من الموت والعذاب! والله ما يقع منا له أحد إلا ويتنوَّع في تعذيبِه قبلَ قتلِه)[6].

كان من رأي الأفرم أن يعمل مع قراسنقر علىٰ جمع القوّة للقيام بمواجهة عساكر السلطان الناصر، إلا أن قراسنقر رأىٰ أنهم أضعف من ذلك[7]، وأنه

---

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ١٤١).
(٢) أي: ما تقدّم من وقوفه مع بيبرس الجاشنكير. وقد فصلت ذلك في كتابي «محنة ابن تيمية».
(٣) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ١٤٢).
(٤) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ١٤٢).
(٥) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٥٥).
(٦) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٦).
(٧) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ١٤٤).

لا يريد الخوض في دماء المسلمين، واقترح مراسلة السلطان ليعطيهما قلعة الروم والبيرة[1].

قبل أن يصلَ جوابُ السلطان، جاء رسول من عند ملك التتار خربندا، وقال لقراسنقر بعد لقائه به: (الملك القآن ملك البسيطة يُسلِّمُ عليك، وعلىٰ الأُمراء الحاضرين معك، ويقول: قد بلغه أنكم عديتم إلىٰ نحو بلادي، ودستم أرضي، وطلبتم بابي، فأهلًا بكم وسهلًا، وقد سيرت إليكم نسخة الأيمان مائة يمين، وأنا أعطيك بغداد، والأمير جمال الدين الأفرم سنجار وديار بكر، ومهما طلبتم عندي)[2].

وفي نفس الوقت، وصلت بعضُ جواسيس قراسنقر بأن السلطان الناصر أرسل جيشًا جديدًا للقبض عليهم، فعندها أجمعوا علىٰ الدخول في طاعة ملك التتار خربندا، ووصل إليهم سوتاي أحد أمراء التتار بعشرة آلاف من المغول للقائهم، فتوجهوا معه حتىٰ وصلوا العراق، التي كانت إذ ذاك تحت الحكم المغولي[3].

يذكر ابن فضل الله العمري رواية تصفُ الحالةَ النفسيَّة للأميرين لدىٰ فراقهما لبلاد الشام، فيقول: (حكىٰ لي سنجر البيروتي، وكان أكبر مماليك الأفرم، قال: لما فارقا أطرافَ البلاد التفتَ الأفرم إلىٰ جهة الشام وأنشدَ:

سيذكرُني قومي إذا جدَّ جدُّهم

وفي الليلة الظَّلماء يُفتقد البدرُ

وبكىٰ.

---

(١) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٦).

(٢) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٢٩).

(٣) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٣٠).

فقال له قراسنقر: روح بلا فشار[١]! نبكِي عليهم ولا يكون علينَا!

فقال: ما بي إلا فراق ابني موسىٰ.

فقال: أي بغاية بَصَقْتَ في رحمها جاء منها موسىٰ، وعلي، وخليل! وذكر أسماء)[٢].

بعد أن وصل الأفرم وقراسنقر ومن معهما إلىٰ بغداد، استُقبِلوا استقبالًا حافلًا، ومكثوا هناك ثلاثة أيام[٣]، ثم ذهبوا إلىٰ السلطانية، عاصمة ملك التتار خربندا في إيران.

قال الشيخ شمس الدين الأصبهاني: (لما جاؤوا؛ أمَرَ السُّلطان خربندا الوزيرَ أن يُبصِر كم كان لكُلِّ واحدٍ منهم من مبلغ الإقطاع ليُعطيَهُم نظيرَه، فأعطاهم علىٰ هذا الحكم، فأعطىٰ قراسنقر مراغة، وأعطىٰ الأفرم همذان، وأعطىٰ الزردكاش[٤] نهاوند، وتفقَّدَهُم بالإنعام حتىٰ غمرَهم.

ولقد كنت حاضرًا يومَ وصولِهم، واختبرهم في الحديث فقال عن قراسنقر: هذا أرجحهم عقلا، لأنَّه قال لكل واحد منهم: أيش تريد؟ فقال شيئًا، فقال قراسنقر: ما أريدُ إلا امرأةً كبيرةَ القَدْر أتزوَّجُ بها. فقال: هذا كلام من يُعرِّفُنا أنَّه ما جاء إلا مُستوطنًا عندنا، وأنَّه ما بقي له عودَةٌ إلىٰ بلاده، فعظُم عنده بهذا، وأجلَسه فوق الأفرم، وسنىٰ له العطايا أكثر منه، وزوَّجه بنت قطلوشاه)[٥].

---

(١) الفشار: الهذيان.

(٢) نقله الصفدي في «الوافي بالوفيات» (٩/ ١٩٣-١٩٤).

(٣) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٣٠).

(٤) أميرٌ ثالث، فرَّ مع الأفرم وقراسنقر.

(٥)نقله الصفدي في «الوافي بالوفيات» (٢٤/ ١٦٣) عن ابن فضل الله العمري عن الشمس الأصبهاني.

حظي قراسنقر بمنزلة كبيرة لدىٰ خربندا، حتىٰ صار مُدبِّرًا لمملكته، أمّا الأفرم (فإنه لم يشتغل بشيء مما اشتغل به قراسنقر من تدبير الأمور، وإنما اندرج في مُنادَمة الملك خدابنداه، وأخذ بقلبِه وملك لُبَّه، فإن هذا الأفرم عمر حريف طيبة، وصاحب لذة وفكاهة، طيب العشرة، حسن المحاضرة، فمال إليه خدابنداه)[1]. وقد ذكر ابن أيبك شُربَ الأفرم وقراسنقر الخمر مع ملك التتار في مجلسٍ للشرب والغناء[2].

وبحسب ما ذكره بعض المؤرخين: كان لجوء الأفرم وقراسنقر ومن معهما إلىٰ خربندا سببَ تسيير الحملة العسكرية التي قام بها خربندا علىٰ بلاد الشام سنة ٧١٢هـ، إذ إنهما قويّا عزمه علىٰ احتلال الشام، وضَمِنَا له أخذها[3]، واستجاب خربندا لذلك، وسيَّر الجُيوش لاحتلالها.

كان لجوء أمراء المماليك إلىٰ التتار مسلكًا من مسالك التعامل مع تأزُّمَاتِ الصراع السلطوي، كما تقدم في خبر لجوء الأمير قبجق ومن معه سنة ٦٩٨هـ، بل إن السُّلطَان الناصر نفسه، عندما ضيّق عليه بيبرس الجاشنكير وسلار، فترك مصر وذهب إلىٰ الكرك في سنة ٧٠٨هـ؛ كان يُفكّر باللحاق ببلاد التتار[4]، وذلك قبل أن يكسب ولاء أمراء الشام الذين أعانوه في إرجاع الحكم له في مصر.

وأنت ترىٰ أن الأميرين اللذين كانا من قادة المسلمين في صد هجوم التتار عن الشام قبل عقدٍ من الزمان، هما الآن يُحرّكان التتار لغزوها!

---

(١) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٣٥).
(٢) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٣٣).
(٣) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٤٥).
(٤) كما ذكره الأمير بيبرس الداوادار في «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» (ص٤١٦).

مما يشار إليه أن الشيخ في أجوبته المتعلقة بهذه الحملة كان قد تعرض لحكم من قفز من الأمراء المماليك للتتار فقال: (وكل من قفز إليهم (يعني: التتار) من أمراء العسكر وغير الأمراء فحكمُه حكمُهم، وفيهم من الردَّةِ عن شرائع الإسلام بقدر ما ارتدَّ عنه من شرائع الإسلام)[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٥٣٠).

ثانيًا

قلعة الرحبة.. من الحصار إلى الانتصار

تحرك الجيش التتري بقيادة خربندا إلىٰ الرحبة[1]، وضرب علىٰ قلعتها حصارًا خانقًا في شهر رمضان من سنة ٧١٢هـ.

عندما وصلت أنباء تحرك خربندا إلىٰ الشام، عادت أجواء الخوف والهلع إلىٰ مُدُنها، وبدأ أهل دمشق بالهرب إلىٰ القاهرة والحصون[2].

قال ملك حماة، الملقب بالملك المؤيد، في (تاريخه)[3]: (واستمرَّ خربندا مُحاصرًا للرحبة، وأقام عليها المجانيق، وأخذ فيها النُّقوب، ومعه قراسُنقر والأفرم ومن معهما، وكانا قد أطمَعَا خربندا أنَّه رُبَّما يُسلِّم إليه النائب بالرحبة قلعة الرحبة، وهو بدر الدين بن أزكشي الكردي، لأنَّ الأفرم هو الذي كان قد سعىٰ للمذكور في نيابة السلطنة بالرحبة، وأخذ له إمرة الطبلخاناه، فطَمِع الأفرم بسبب تقدُّم إحسانه إلىٰ المذكور أن يُسلِّم إليه الرحبة، وحفظَ المذكور دينه، وما في عُنُقِه من الأيمَان للسلطان، وقام بحفظِ القلعة أحسنَ قيام، وصبرَ علىٰ الحصار، وقاتلَ أشدَّ قتال.

ولما طال مقام خربندا علىٰ الرحبة بجمُوعه، وقع في عسكره الغلاء والفناء، وتعذَّرت عليه الأقوات، وكثُرت منه المقفزون إلىٰ الطاعة الشريفة، وضجروا من الحصار، ولم ينالُوا شيئًا، ولا وجد خربندا لما أطمعه به قراسنقر والأفرم صحةً، فرحل خربندا عن الرحبة راجعًا علىٰ عقبه، في السادس والعشرين من رمضان

---

(١) تقع الرحبة في الجزيرة الفراتية، وهي اليوم جزء من منطقة الميادين في دير الزور.

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٣).

(٣) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٦٩-٧٠).

من هذه السنة (٢٦/ ٩/ ٧١٢هـ)، بعد حصار نحو شهر، وتركوا المجانيق وآلات الحصار علىٰ حالها، فنزلت أهل الرحبة، واستَولَوا عليها، ونقلُوها إلىٰ الرحبة).

قال البرزالي: (وكان سببُ رحيل ملك التتار بجُيوشه عن الرحبة أمورًا:

منها: غلاء الأسعار، وقلة الغلال من القمح والشعير.

ومنها: موت الخيل، وموت طائفة منهم.

ومنها: خروج قاضي الرحبة ومن معه إلىٰ حضرته، وطلبهم منه الأمان والعفو في هذا الشهر الشريف، وإشارة الرشيد بذلك عليه، وموافقة جوبان نائب السلطنة علىٰ ذلك[1].

وهذه أمورٌ يسَّرَها الله تعالىٰ بكرمه، وأوقع في نفُوسهم الرحيل، ووقىٰ الله شرَّهم، وأعانَ الطائفة القليلةَ المحصُورةَ في هذا الحصن بغير حولٍ منهم ولا قوة، فله الحمد والشكر حمدًا كثيرًا علىٰ كل حال).

مما يذكر هنا أن إشارة رشيد الدولة علىٰ خربندا حفِظَها له مؤرخو المسلمين، حيث قال ابن كثير في ترجمته في «البداية والنهاية»[2]: (وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، صانع عن المسلمين، وأتقن القضية في رجوع ملك التتر عن البلاد الشامية سنة ثنتي عشرة). وهذا لا يُتعجَّب منه، فهو من إنصاف علماء المسلمين، وهو لا ينافي ما تقدَّم من ذم الرشيد، وقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد»[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لو قال لي فرعون: بارك الله فيك؛ قلتُ: وفيك، وفرعون قد مات).

---

(١) كان للأمير جُوبان تأثيرٌ مهم في إبطال حصار القلعة، شكَرَه عليه مؤرخو الدولة المملوكية، وأورد خليل بن أيبك الصفدي خبرَه مفصلًا في ترجمته من «الوافي بالوفيات» (١١/ ١٧٠).

(٢) (١٨/ ١٧٨).

(٣) برقم (١١١٣).

ثالثًا

ابن تيمية مُجِيبًا عن شبهات مانعي قتال الغزاة

تقدَّم أن ابن تيمية طُلب إلىٰ مصر سنة ٧٠٥هـ، ودخل في طور المحنة والابتلاء، حيث اعتُقل بُعيدَ ذلك في ٢٢/ ٩/ ٧٠٥هـ، وبقي في الحبس إلىٰ أن أُفرِج عنه في ٢٣/ ٣/ ٧٠٧هـ، ثم أُعيدَ اعتقالُه في شوَّال من السنة نفسها، وبقي في الحبس إلىٰ أن نُفِي إلىٰ الإسكندرية في ٣٠/ ٢/ ٧٠٩هـ، ثم طلبه السلطان الناصر، وأكرَمَه بُعيدَ إطاحته بخصم ابن تيمية الأمير بيبرس الجاشنكير، وسيطرِته علىٰ الحكم، وذلك في ٨/ ١٠/ ٧٠٩هـ، وبقي الشيخُ مُقيمًا في القاهرة مُتصدِّيًا لنفع الناس وإفادتهم.

وقد وردته في تلك المدة أسئلةٌ متعلقة بأحكام التتار الذين وصفهم السائل بأنهم (يقدمون إلىٰ الشام مرةً بعد مرة، وقد تكلَّموا بالشهادتين، وانتسبوا إلىٰ الإسلام، ولم يبقوا علىٰ الكفر الذي كانوا عليه في أول الأمر)[1].

وكان الموجب لهذه الأسئلة بحسب ما ذكره السائل أن (أمرهم -أي هؤلاء التتار- قد أشكل علىٰ كثير من المسلمين، بل علىٰ أكثرهم، تارة لعدم العلم بأحوالهم، وتارة لعدم العلم بحكم الله تعالىٰ ورسوله ﷺ في مثلهم)[2].

قال مقيده -عفا الله عنه-: وقد امتازت هذه الأسئلة، وأجوبة الشيخ عنها بأنها الأطول والأكثر تفصيلًا من بين فتاوىٰ الشيخ التي كتبها في شأن التتار في عهدي

---

(١) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٩).
(٢) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٩-٥١٠).

قازان وخربندا، بحسب ما وقفت عليه[1].

وهذه الأجوبة كتبها الشيخ في مصر، والأدلة على ذلك:

الدليل الأول: أنها من (الفتاوى المصرية)، وهو اسمٌ لمجموع ضمَّ فتاوى مما أفتى به الشيخ بمصر، جمعه بعض تلامذته.

ويتبين أنها من «الفتاوى المصرية» بأمرين:

الأول: مقارنة النصِّ الوارد في «مجموع الفتاوى» بالنصِّ الوارد في «مختصر الفتاوى المصرية» للبعلي فيظهر أن هذا النصَّ مختصرٌ من ذاك.

الثاني: نشر الفتوى فرج الله الكردي في المجلد الرابع من «مجموعة فتاوى ابن تيمية»، وما في هذا المجلد هو من «الفتاوى المصرية»، فقد كان فرج الله يطبع من «الفتاوى المصرية» ما يجدُ منها، ولو كانت غير مرتبة، كما نصحه بذلك الشيخ جمال الدين القاسمي[2].

الدليل الثاني: أنه تحدَّث فيها عن إظهار التتار الرفض، وهذا إنما كان في عهد خربندا، وقد سبق نقل نصِّ كلامه من هذه الفتوى.

الدليل الثالث: أنه سئل عن حكم من يفرُّ إلى التتار من أمراء المسلمين وعساكرهم، وهذا إنما حصل في عهد خربندا عندما فرَّ إليه قراسنقر والأفرم ومن معهما، ولا يمكن أن يقصد الشيخ فرار قبجق ومن معه الذي حصل قبل الحملة العسكرية الأولى سنة ٦٩٩هـ لأنه عندما دعا لجهاد التتار بعد الحملة الأولى كان

---

(١) وقد نشرها فرج الله الكردي في «مجموعة فتاوى ابن تيمية» (٤/ ٢٨٠-٢٩٨)، وابن قاسم في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٩-٥٤٣)، واختصرها البعلي في «مختصر الفتاوى المصرية» (ص٥٠٥-٥٠٩).

(٢) انظر «الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي» (ص٩٠).

قبجق ومن معه قد رجعوا إلىٰ الدولة المملوكية، فور رجوع التتار إلىٰ بلادهم، كما تقدَّم ذكره.

وإذا تقرر أن طرح هذه الأسئلة وجواب الشيخ عنها كان في وقت إقامته في مصر، علمنا أنها متعلقة بهذه الحملة التي سيرها خربندا نحو بلاد الشام، لأن هذه الحملة تمثل الاحتكاك الوحيد بين المسلمين والتتار في مدَّة إقامة الشيخ بمصر.

رابعًا

تحرك الجيش المصري إلى الشام.. ومشاركة ابن تيمية

تحرَّك يوم الثلاثاء ٤/ ١٠/ ٧١٢هـ السلطان الناصر، ومعه الجيش المصري بقصد حماية الشام وإرهاب الأعداء، فدُقَّت البشائر بقلعة دمشق فرحًا بذلك[١]، ثم وصلها يوم الثلاثاء ٢٣/ ١٠/ ٧١٢هـ، ونزل بقلعة دمشق، واحتفل الناس لدخوله، وزُيِّنَ البلد[٢]، ثم سافر السلطان الناصر يوم الخميس ٢/ ١١/ ٧١٢هـ إلىٰ الحجاز، وفرَّق الجيوش بالأراضي الشامية[٣]. وكانت حركة السلطان، ووصوله، ورجوعه بعد فشل حملة خربندا، ومغادرة التتار للأراضي الشامية.

رافق ابن تيمية السلطانَ الناصر والجيش المصري في مسيرهم إلىٰ الشام، إلىٰ أن وصلت أخبار رجوع التتار؛ ففارق الشيخُ الجيشَ المصري في عسقلان، وجعل طريقه علىٰ عجلون، ووصل دمشق بعد وصول السلطان الناصر لها، وذلك في ١/ ١١/ ٧١٢هـ[٤].

وهكذا، نجد عُمُرَ الشيخ ينقضي ما بين جهاد وآخر، فهو **أولًا** يجاهد الاتحادية، ويناظرهم، ويكشف باطلهم بدمشق، **ثم** يظهر خطر التتار محدقًا بالمسلمين فيتصدَّىٰ لجهاد قازان الخارج عن شرائع الإسلام، وأعوانه الأرمن النصارىٰ، ثم يتصدىٰ لجهاد الكسروانيين أهل البدع والضلال المُعينين للتتار، ثم

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٥).

(٢) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٦-٨٧).

(٣) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٩).

(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٩).

يُصابِر خصومه من الجهمية والاتحادية في الداخل المملوكي، فيخرج من المحنة عزيزًا، قد استحالت المحنة في حقه إلىٰ منحة، ولا تلين قناته، بل يرجع للتصدي للتتار في حملتهم الجديدة علىٰ بلاد الشام.

الفصل الرابع

فتح مَلَطْيَة سنة ٧١٥هـ

أولًا

مَلَطْيَة.. من الحصار إلى الانكسار

في نهاية سنة ٧١٤هـ سيَّر السلطان الناصر حملةً ضمَّت أمراء وعساكر من مصر والشام إلىٰ مَلَطْيَة، وعيَّنَ الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بدمشق قائدًا لها. ومَلَطْيَة من ديار بكر، التي كانت تحت الاحتلال التتري، وأما أهلُها فهم من النصارىٰ والمسلمين.

قال ملك حماة أبو الفداء، الملقب بالملك المؤيد في بيان سبب هذه الحملة: (وسبب ذلك أن المسلمين الذين كانوا بها، اختلطوا بالنصارىٰ، حتىٰ أنهم زوجوا الرجل النصراني بالمسلمة، وكانوا يُعدون الإقامة بالتتر، ويعرفونهم بأخبار المسلمين، وكانت الأجناد والرجالة الذين بالحصون مثل قلعة الروم وبهنسا وكختا وكركر وغيرها، لا ينقطعون عن الإغارة علىٰ بلاد العدو، مثل بلاد الروم وغيرها، وكانت طريقهم في غالب الأوقات تكون قريب ملطية، فاتفق أن أهل ملطية ظفروا ببعض الغياره المذكورين، فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين)[١].

يقول النويري في خبر هذه الحملة: (توجَّهت العساكر إلىٰ مَلَطْيَة في بكرة الأحد الحادي والعشرين من المحرم (٢١/ ١/ ٧١٥هـ)، وتقدمهم الجاليش وهو الأمير سيف الدين أركتمر ومن معه، وحاصر مَلَطْيَة، فتحصن أهلها وضايقها ثلاثة أيام، فلما وصلت العساكر صحبة الأمير سيف الدين تنكز خرج متولِّي مَلَطْيَة وقاضيها وسألوا الأمان، فأمِّنُوا.

---

(١) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٧٤).

وفي خلال ذلك فتح الأمير سيف الدين أركتمر البلد مما يليه عنوة، فسير إليه الأمير سيف الدين تنكز يأمره بكفِّ أصحابه عن النَّهب، وقال: إن البلد قد فُتِح بالأمان. فأجاب: إنني فتحتُه بالسيف، وحاصرتُه ثلاثةَ أيام، وقاتَلَني أهلُه قبلَ وصول العسكر، ومكَّن من معه من الدُّخول والنَّهب، ومنعهم من الازدحام علىٰ الباب، فكان يُمكِّنُهم من الدخول مرة بعد أخرىٰ، حتىٰ دخلوا البلد، فنهبُوا، وقُتل خلقٌ كثير من الأرمن والنصارىٰ، وأسرُوا خلقًا كثيرًا منهم حتىٰ تعدَّىٰ ذلك إلىٰ جماعة من المسلمين، واختفىٰ أكثر الأرمن بالمقابر، وخُرِّب قطعة من البلد، ورمىٰ النار فيه.

ورجع الجيش عنها في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من المحرم إلىٰ عينتاب، ثم إلىٰ مرج دابق)[1].

---

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ٢٢٠-٢٢١). وذكر البرزالي الخبر مختصرًا في «المُقتفي على الروضتين» (٤/ ٨٩).

ثانيًا
ابن تيمية مُجِيبًا عن الشبهات حول غزوة مَلَطْيَة

كان ابن تيمية وقت تسيير هذه الحملة قد عاد إلىٰ دمشق، ووردته أسئلة عن مشروعيتها، فأجاب عنها[1].

يقول السائل: (ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، ما النية في هذه الغزوة التي يخرج فيها عسكر المنصور إلىٰ الثغور الحلبية[2] سنة خمس عشرة، وذكر وليُّ الأمر أنها غزوة شرعية، فهل تكون النية سفر طاعة، فهل يستحب القصر فيه، أم لا؟ وهل يجوز الجمع في أوقات جدَّ السَّيرُ، بينوا لنا ذلك والحالة هذه؟)[3].

فأجاب الشيخ بأن هذا السفر سفر طاعة، يُشرع القصر فيه، ويُشرع الجمع إذا جدَّ السَّيرُ.

ثم بيَّنَ الشيخُ مشروعية هذه الغزوة وأنها من الأعمال الفاضلة: (وسَعْي المسلمين في قَهْر التتار والنصارىٰ والروافض مِنْ أعظم الطاعات والعبادات، فإنَّ هؤلاء محاربون لله ورسوله، خارجون عن شريعة الله وسبيله، وإن كان التتر

---

(١) لأجوبة الشيخ المتعلقة بمَلَطْيَة ثلاثة مواضع: **الأول**: جواب نشره الدكتور علي العمران ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٣-٤٤١). **الثاني**: «كتاب الفروع» لابن مفلح (١٠/ ٣١٦-٣١٧)، حيث ذكر أحكامًا متعلقة بأهل مَلَطْيَة من كلام الشيخ، بعضها لم يرد في المصدر الأول. **الثالث**: فتوى قصيرة جدًّا نشرها الشيخ محمد عزير شمس ضمن فتاوى متفرقة في «جامع المسائل» (٤/ ٣٥٥).

(٢) اجتمعت العساكر المصرية والشامية قبل غزو ملطية بحلب.

(٣) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٥).

والروافض يتكلَّمون بالشهادتين، ويتظاهرون ببعض الإسلام، فقد أمر الله ورسوله ﷺ بجهاد مَنْ هو خير منهم)[1]. وبين الشيخ أن عهد النصارىٰ من أهل مَلَطْيَة مع بعض ملوك المسلمين من غير أهل مصر والشام، لا يمنع من قتالهم إذا كانوا لا يعاملون أهل مصر والشام بموجب ذلك العهد: (ونصارىٰ مَلَطْيَة وأرض المشرق ويهودهم لو كان لهم ذمة وعهد من ملك مسلم يجاهدهم حتىٰ يسلموا أو يعطوا الجزية كأهل المغرب واليمن، ثم لم يعاملوا أهل مصر والشام معاملة أهل العهد، جاز لأهل مصر والشام غزوهم واستباحة دمهم ومالهم؛ لأن أبا جندل وأبا بصير حاربوا أهل مكة مع أن بينهم وبين النبي ﷺ عهدًا، وهذا باتفاق الأئمة، لأن العهد والذمة إنما يكون من الجانبين)[2].

وكان قد وقع من أوباش الجيش المملوكي -كما يصفهم الذهبي[3]- عدوانٌ علىٰ مسلمي تلك البلاد، فناسب أن ينبِّهَ الشيخُ في جوابه إلىٰ حرمة دماء المسلمين وأعراضهم، يقول الشيخ: (ولكن الواجب في جهادهم أن تُعصَم دماء المسلمين وأموالهم وحريمهم الذين في بلادهم، ولا يقاتل إلا من كان معاونًا لهم، ولا تجوز الإغارةُ علىٰ بلاد الشرق فإنَّهُم مُسلمون، كما أنَّ أهلَ الشام مسلمون، ولكن يشهدُهم العدوُّ، كما قهروا أهل الشام لما دخلوا عليهم...)[4]. وقال ابن مفلح: (وقيل لشيخنا عن سبي مَلَطْيَة مُسلميها ونصاراهم؛ فحرَّم مال المسلمين، وأباح سبي النصارىٰ وذريَّتهم ومالهم، كسائر الكفار)[5].

---

(١) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٦).
(٢) «الفروع» (١٠/ ٣١٧).
(٣) «دول الإسلام» (٢/ ٢٤٩).
(٤) «جامع المسائل» (٧/ ٤٤٠).
(٥) «الفروع» (١٠/ ٣١٦).

كرر الشيخ في أجوبته عن الأسئلة المتعلقة بمَلَطْيَة ما دعا إليه منذ حملات قازان علىٰ بلاد الشام؛ وهو تحرير بلاد المسلمين الواقعة تحت سيطرة التتار: (فالواجب إنقاذُهم من الدولة الخارجة عن الشريعة حتىٰ يكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، ويُعمَلَ بالكتاب والسنة بحسب الإمكان، كما خرج العسكر من مصر لإنقاذ بلاد الشام منهم لما استولوا عليها.

ومَنْ أغار علىٰ المسلمين وتعرَّض لدمائهم وأموالهم بغير حقِّها، فهو ظالمٌ معتد، ولا طاعة لمن يأمر بذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله)[1].

---

(١) «جامع المسائل» (٧/ ٤٤٠).

الفصل الخامس

الرافضة في مملكة إيران

أولًا

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾

(الرافضة والتتار.. بمنظار ابن تيمية)

سعىٰ الرافضة منذ أن نشأت مملكة إيران إلىٰ الاستعانة بالتتار في التمكين لمذهبهم، وفي إضعاف أهل السُّنَّة، واستطاعوا الوصول إلىٰ البلاط التتري منذ عهد هولاكو، إذ كان نصيرُ الدين الطوسي -أحدُ كبار شيوخ الرافضة عبرَ التاريخ- مُنجِّمًا لهولاكو، وهو الذي أشار عليه بقتل الخليفة العباسي في بغداد، وهي جريمة يذكرها الشيخ للطوسي عندما يعدد مثالبه[1].

يقول الشيخ: (وهم الذين أشاروا علىٰ التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد، ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر علىٰ المسلمين وكاتب التتار حتىٰ أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة ونهىٰ الناس عن قتالهم، وقد عرف العارفون بالإسلام: أن الرافضة تميل مع أعداء الدين)[2]. ويقول: (وأما دولة التتر؛ فقد علم الله أنَّ الذي دخل مع هولاكو ملك التتر، وعاونه علىٰ سفك دماء المسلمين، وزوال دولتهم، وسَبْي حريمهم، وخراب ديارهم، وأَخْذِ أموالهم، فهم الرافضة، وهم دائمًا مع اليهود والنصارىٰ أو المشركين)[3]، ويقول: (عاونوا اليهود والنصارىٰ مع هلاوون لما قدم إلىٰ بغداد، فأعانوه علىٰ قتل بيت النبوة العباسيين، وغيرهم من المؤمنين)[4].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) «فتوى في الكنائس» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٣٧).

(٣) «الرسالة في أحكام الولاية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢١١).

(٤) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٨).

ويقول: (والرافضة تحبُّ التتار ودولتَهم، لأنه يحصل لهم بها من العز ما لا يحصل بدولة المسلمين، والرافضة هم معاونون للمشركين واليهود والنصارىٰ علىٰ قتال المسلمين، وهم كانوا من أعظم الأسباب في دخول التتار قبل إسلامهم إلىٰ أرض المشرق بخراسان والعراق والشام، وكانوا من أعظم الناس معاونة لهم علىٰ أخذهم لبلاد الإسلام وقتل المسلمين، وسبي حريمهم، وقضيةُ ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة، وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب، مشهورةٌ يعرفها عموم الناس، وكذلك في الحروب التي بين المسلمين والنصارىٰ بسواحل الشام؛ قد عرف أهل الخبرة أن الرافضة تكون مع النصارىٰ علىٰ المسلمين، وأنهم عاونوهم علىٰ أخذ البلاد لما جاء التتار، وعز علىٰ الرافضة فتح عكة وغيرها من السواحل، وإذا غلب المسلمون النصارىٰ والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة، وإذا غلب المشركون والنصارىٰ المسلمين كان ذلك عيدًا ومسرَّةً عند الرافضة)[1].

بقي الوجود الرافضي في بلاط ملوك إيران من ذرية هولاگو، إلا أن ذلك الوجود كان يضعف في أوقات قوة الإسلام في تلك المملكة، كما كان في عهد الأمير نوروز رحمه الله[2].

وقد تقدَّمَ أن أصيل الدين الطوسي نجل النصير الطوسي كان مُقرَّبًا من قازان، وشارك في الحملة التترية الأولىٰ علىٰ بلاد الشام سنة ٦٩٩هـ[3]، ويقول الشيخ

---

(١) «الفتيا الثانية لابن تيمية في التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٧-٥٢٨).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٤٧).

(٣) يقول برتولد شبولر في «العالم الإسلامي في العصر المغولي» (ص٧٣): (ولكن الحقيقة أننا لا نعدو جادة الصواب إذا قلنا إن غازان كان في داخله يُضمر الصداقة والحب للشيعة، رغم إعلانه نفسَه من أهل السنة، فقد كان يؤيد بنشاط كثير من المؤسسات الشيعية، ويزور عتبات كربلاء...). وخبر زيارته لكربلاء في «جامع التواريخ».

في بيان معاونتهم لقازان في حملاته علىٰ الشام: (ولم يكن معهم في دولتهم إلا من كان من شر الخلق، إما زنديق منافق لا يعتقدُ دين الإسلام في الباطن، وإما من هو من شر أهل البدع كالرافضة والجهمية والاتحادية ونحوهم)[1]، ويقول: (ولا يُتصوَّر أن يصحب هذا العسكر علىٰ ما هم عليه مكره، إلا أراذل المنتسبين إلىٰ الإسلام من رافضي أخرق، أو اتحادي أحمق)[2]، ويقول: (وكثير من فساد التتر هو لمخالطة هؤلاء لهم، كما كان في زمن قازان وهولاكو وغيرهما)[3].

وبعد مُضيٍّ بضع سنوات من تولِّي خربندا الحكم، استطاع الرافضة تحويلَه إلىٰ مذهبهم، وقوِيَتْ شوكتُهم في دولتِه، وتمكَّنُوا[4].

يقول البرزالي: (وفي آخر ذي القعدة (٧٠٩هـ) بلغنا أن خربندا ملك التتر أظهرَ الرَّفضَ في مملكته، وأمَرَ خطباءَ بلادِه بإسقاط أسماء الخُلفاء الراشدين الثلاثة من الخُطَب، والاقتصارِ علىٰ عليٍّ وولديه وأهل البيت رضي الله عنهم، وأن خطيب باب الأَزَج[5] لما فعل ذلك بكىٰ ونزل عن المنبر، وعجَزَ عن إتمامِها، فصلَّىٰ غيرُه، وحصل وهنٌ عظيمٌ لأهل السنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله)[6].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠).

(٢) انظر الملحق.

(٣) «العقود الدرية» (ص٢٤٣).

(٤) انظر في ظروف تحوُّل خربندا للمذهب الرافضي: «المغول: التركيبة الدينية والسياسية» (ص٣٤٣-٣٤٤)، وفي تحليل أسباب تحوُّله: ما كتبته المستشرقة الألمانية كرافولسكي في «العرب وإيران» (ص٢٠٦-٢١٠) حيث لا تقصر أسباب التحوُّل على تأثير رجال البلاط. وتقول (ص٢٠٨): (الالتزام بعقيدتي الإمامة والعدل لم يكونا يكلفان الكثير، بحيث يبقى الإيلخان طليق اليدين، مستعدًّا للعمل مع النخبة الشيعية بالبلاط على بناء نظرية سياسية، والبدء بتجربة سياسية أيضًا في نطاق المذهب الجديد).

(٥) محلَّة ببغداد التي كانت خاضعة لدولة التتار.

(٦) «المقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٥٠).

ويقول الشيخ في فتواه في وجوب قتال التتار التي كتبها في مصر في عهد خربندا: (وقد أظهروا الرفض، ومنعوا أن تَذكُر علىٰ المنابر الخلفاءَ الراشدين، وذكروا عليًّا، وأظهروا الدعوة للاثني عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمة معصومون، وأن أبا بكر وعمر وعثمان كفار وفجار ظالمون؛ لا خلافة لهم ولا لمن بعدهم)[1].

ويصف الشيخ تعاظُمَ شرِّ الرافضة، وعَبَثهم، وإفسادَهم في عهد خربندا بقوله: (والرافضة إذا تمكَّنُوا لا يتقون، وانظر ما حصل لهم في دولة السلطان خدابندا، كيف ظهر فيهم من الشر الذي لو دام وقوي أبطلوا به عامَّةَ شرائع الإسلام! لكن: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢])[2].

ويقول: (فإنهم إذا كان لهم قوَّةٌ وعَدد في مكان، كانوا عدوًّا للمسلمين مجتمعين، يعادونهم أعظم من عداوة التتر بكثير، ولهذا يخبر أهل الشرق القادمون من تلك البلاد: أن الرافضةَ أضرُّ علىٰ المسلمين من التتر، **وقد أفسدوا مَلِك التتر وميَّلوه إليهم، وهم يختارون دولته وظهوره**)[3].

وقد عدَّ الشيخُ إظهارَ التتار للرفض وجهًا جديدًا من أوجه خروجهم عن شرائع الإسلام، فقال في الفتوىٰ التي كتبها في مصر في قتال التتار في موجبات قتالهم: (وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة، واتباع سلف الأمة وأئمتها؛ مثل أن يظهروا الإلحاد في أسماء الله وآياته، أو التكذيب بأسماء الله وصفاته، أو التكذيب بقدره وقضائه، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين

---

(١) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٧).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٣٧٥).

(٣) «الرسالة في أحكام الولاية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢١٠).

علىٰ عهد الخلفاء الراشدين، أو الطعن في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان)[1]. وقال في فتواه التي كتبها بشأن غزوة مَلَطْيَة سنة ٧١٤هـ: (والتتار فيهم من الخروج عن شريعة الإسلام أمورٌ كثيرةٌ، **حتىٰ إن مَلِكَهم قد أظهر الرَّفْض...**)[2].

يقارن الشيخ بين عداوة الرافضة لأهل الإسلام وعداوة التتار لهم من حيث باعث كلتا العداوتين، فيبين أن عداوة الرافضة قائمة علىٰ باعث ديني بخلاف عداوة التتار التي ينتفي منها ذلك الباعث، يقول في ذلك: (والتتريُّ إذا عَرَف الإسلام ودُعي إليه أحبَّه واستجاب إليه، إذ ليس له دين يقاتل عليه ينافي الإسلام، وإنما يقاتل علىٰ الملك.

وأما الرافضة فإن من دينهم السعي في إفساد جماعة المسلمين وولاة أمورهم، ومعاونة الكفار عليهم؛ لأنهم يرون أهل الجماعة كفارًا مرتدِّين، والكافر المرتدُّ أسوأ حالًا من الكافر الأصلي، ولأنهم يرجون في دولة الكفار ظهورَ كلمتهم وقيام دعوتهم ما لا يرجونه في دولة المسلمين، فهم أبدًا يختارون ظهور كلمة الكفار علىٰ كلمة أهل السنة والجماعة، كما قال النبي ﷺ في الخوارج: «يقتلون أهل الإسلام ويَدَعونَ أهلَ الأوثان»)[3].

---

(١) «الفتيا الثانية لابن تيمية في التتار» في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١١).

(٢) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

(٣) «الرسالة في أحكام الولاية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢١٠).

ثانيًا

«منهاج السنة النبوية»

(جولة ابن تيمية العلمية مع علماء البلاط الرافضة)

من الطرق التي سلكَها شيوخُ الرافضة في التمكين لمذهبهم في عهد خربندا: تصنيف الكتب وإهداؤها إليه، فصنَّف له ابن المطهر الحلي، أحد شيوخهم العراقيين، من تلاميذ النصير الطوسي، والملقب لديهم بالعلامة، صنف كتابًا في الاحتجاج للمذهب الرافضي، سماه «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة»[1]، وأحضر بعض أهل السنة هذا الكتاب لابن تيمية، وطلبُوا منهُ الردَّ عليه لئلا يُظنَّ العجزُ بأهل السنة، فامتنع الشيخ أولًا، لما كان يراه من ظهور بطلان ما يحتج به الرافِضة لمذهبهم، ثم أجابهم بعد إلحاحهم، وصنف كتابًا كبيرًا في نقض كتاب الحلي سماه: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»، وكان ذلك في مدة إقامته بدمشق، بعد رجوعه من مصر.

ويذكر ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» كيف كان الرافضة يعرضون مذهبهم أمام ملك التتار خربندا، فمما عرضوه عليه: ما يذكره شيوخ الرافضة القدماء في الجواب عن احتجاج أهل السنة بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] في إثبات فضيلة أبي بكر رضي الله عنه التي لم يشركه فيها أحد من الصحابة رضي الله عنهم، حيث لم يتمكن الرافضة

---

(١) من الكتب التي صنفها الحلي أيضًا لخربندا كتاب «نهج الحق وكشف الصدق».

من جحد نزولها في أبي بكر رضي الله عنه، فلجؤوا -مع إثبات كون الآية نزلت فيه رضي الله عنه- إلىٰ ما يجعلها مثلبةً له، لا منقبة، وجعل الصحبة لا تقتضي الموالاة! فزعموا أن أبا بكر رضي الله عنه كان عدوًّا للنبي ﷺ، وأنه اصطحبه في سفر الهجرة خوفًا منه.

فلما عرض الرافضة مقالة شيوخهم علىٰ خربندا الفاجر، صرَّح بلازمِ هذا القول، وهو القدح في النبي ﷺ، ولم يتورَّع عن التفوه بكلمة خبيثة في حق النبي ﷺ، تكشف فجوره، وتكشف حقيقة مذهب الرافضة. يقول ابن تيمية: (ولقد بلغني عن ملك المغول خُدَابنده الذي صنَّفَ له هذا الرافضي كتابَه هذا في الإمامة أنَّ الرافضة لما صارت تقول له مثل هذا الكلام إن أبا بكر كان يبغض النبي ﷺ، وكان عدُوَّه، ويقولون مع هذا إنه صحبه في سفر الهجرة الذي هو أعظم الأسفار خوفًا، قال كلمة تلزم عن قولهم الخبيث، وقد برأ الله رسوله منها، لكن ذكرها علىٰ من افترىٰ الكذب الذي أوجب أن يقال في الرسول مثلها، حيث قال: كان قليل العقل). يقول ابن تيمية مُعلِّقًا: (ولا ريب أن من فعل ما قالته الرافضة فهو قليل العقل، وقد برأ الله رسولَهُ وصِدِّيقَه من كذبهم، وتبيَّنَ أن قولهم يستلزمُ القدح في الرسول ﷺ)[1].

---

(١) «منهاج السنة النبوية» (٨/ ٤٣٠-٤٣١).

ثالثًا

حملة الدلقندي الفاشلة لاحتلال الحجاز.. وهلاك خربندا

في آخر سنة ٧١٦هـ لجأ حميضة ابن أبي نمي أحد أشراف مكة إلىٰ خربندا، علىٰ إثرِ نزاع بينه وبين أخيه، وطلب منه تسيير جيش لدعمِه في قتالِه لأخيه، وتوهَّمَ خربندا -والرافضة النافذون في الدولة- أن في ذلك فرصة لإقامة مذهب الرفض في الحجاز، فقام بتسيير رجلٍ يدعىٰ الدلقندي -وهو رجلٌ رافضي من أعيان دولة التتار- بجيش لاحتلال الحجاز، وكان مما نواه خربندا: نقل الشيخين من جوار النبي ﷺ، لكن الله عز وجل لم يمكنه من ذلك، وكان هلاكه أعجَل.

يقول البِرْزالي: (ووصل الخبرُ عَقِيبَ عيد الأضحىٰ بأن الشريف حميضة بن أبي نمي الحسني المكي كان قد لحق بخربندا، وأقام في بلادِه أشهُرًا، وطلب منه جيشًا يغزُو بهم مكة، وساعده جماعة من الرافضة علىٰ ذلك، وجهزوا له جمعًا من خراسان، وكانوا مُهتمِّين بذلك، فقدَّر الله تعالىٰ موتَ خربندا، وبطل ذلك بحمد الله تعالىٰ)(١).

ويقول النُّويري: (وفي ذي الحجة من هذه السنة وردت الأخبار إلىٰ الأبواب السلطانية بوفاة خربندا ملك التتار، وذكر أنه توفي في سادس شوال من السنة، وأنه كان قد أمر بإشهار النداء أن لا يذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان ذلك في يوم سبت فمات قبل أسبوع.

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٢٥٣).

وذكر أنه كان قد عزم علىٰ تجهيز ثلاثة آلاف فارس مع حميضة بن أبي نمي إلىٰ المدينة النبوية، لنقل أبي بكر وعمر من مدفنهما، فعجَّل الله هلاكه، وهذه عادة الله تعالىٰ فيمن طغىٰ وتجبَّر)[1].

ثم إن الأمير محمد بن عيسىٰ الذي كان مُقِيمًا في بلاد التتار، فارًّا من السلطان الناصر، ومعه جمعٌ من العرب: وقعوا علىٰ حميضة، وعلىٰ الدلقندي، وكان حميضة قد جمع للدلقندي الأموال والرجال علىٰ أن يأخُذَ له مكَّةَ ويقيمَه بها، وكان معهما جمعٌ وأموالٌ، فقهرهم، وغنم ما معهم، ثم كاتب السلطان الناصر، فأذن له بالحضور، وأكرمه السلطان الناصر كرامة كثيرة[2].

يقول النويري: (وقد حكي عن الأمير محمد بن عيسىٰ أخي مهنًّا أن الملك خربندا كان قد جهَّز دلقندي في جمع كثير مع عز الدين حميضة قبل وفاته إلىٰ الحجاز، لنقل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من جوار رسول الله ﷺ، وأن الأمير محمد المذكور جمَع من العربان نحو أربعة آلاف فارس، وقصد المقدم ذكره، وقاتله، ونهبه، وكسب العرب منه جملة عظيمة من الذهب والدراهم، حتىٰ إن فيهم جماعة حصل للواحد منهم نحو ألف دينار غير الدواب والسلاح، وغير ذلك، وأخذوا الفؤوس والمجارف التي كانوا قد هيَّؤُوها لنبش قبر الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما)[3].

وينقل ابن كثير في تأريخه لهذه الحادثة فتوىٰ لابن تيمية في المال الذي غنِمَهُ محمد بن عيسىٰ من الدلقندي، والذي كان مُعدًّا لغزو الحجاز، وإظهار مذهب الرافضة فيها، فيقول: (ثم إن محمد بن عيسىٰ استفتىٰ الشيخ تقيَّ الدين ابنَ تيمية،

(١) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ٣٤٥).
(٢) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٢٥٣).
(٣) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٢/ ٢٥٢).

وكذلك أرسل إليه السلطان يسأله عن الأموال التي أخذت من الدلقندي، فأفتاهم بأنها تُصرف في المصالح التي يعود نفعُها علىٰ المسلمين؛ لأنها كانت مُعدَّةً لعناد الحق، ونصرة أهل البدعة علىٰ السنة)[1].

وأما الدلقندي فلم يقتل في هذه الواقعة، وإنما قتله الأمير جوبان في عهد أبي سعيد بن خربندا سنة ٧١٨هـ بتهمة تدبير محاولة لقتله، وقتل الوزير علي شاه التبريزي[2].

وكان الشيخ قد تحدَّث في فتواه في وجوب قتال التتار التي كتبها في مصر عن الخطر الرافضي علىٰ بلاد الحجاز علىٰ جهة الخصوص، وذلك أن هذه البلاد كان يغلبُ علىٰ أهلها الرفض إذ ذاك، فلو انهزمَ المماليكُ أمام التتار الذين يدعمُون المذهبَ الرافضي؛ فإنَّهُ سيبلغ نفوذُ الرافضة هناك مداه، ويفسدُ الحال بالكلية.

يقول الشيخ: (وأما سكان الحجاز فأكثرهم أو كثير منهم خارجون عن الشريعة، وفيهم من البدع والضلال والفجور ما لا يعلمه إلا الله، وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون، وإنما تكون القوة والعزة في هذا الوقت لغير أهل الإسلام بهذه البلاد، فلو ذلَّـت هذه الطائفة[3] -والعياذ بالله تعالىٰ- لكان المؤمنون بالحجاز من أذل الناس؛ لا سيما وقد غلب فيهم الرفض، وملكُ هؤلاءِ التَّتَار المحاربين لله ورسوله الآن [مرفوض][4]، فلو غلبوا لفسَدَ الحجازُ

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٥٥).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٣) يعني: الدولة المملوكية.

(٤) كذا في «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٣)، وفي «الفتاوى الكبرى» (٣/ ٥٤٩): (مرفُوضُون)، وقد قرأها يحيى ميشو في ترجمته للرسالة القبرصية إلى اللغة الفرنسية بما معناه: (استُمِيل إلى الرفْض)، وهي وفق هذه القراءة تُفيد معنى مفهومًا. انظر مقال دونيز ايجل (الاجتياحات المغولية لبلاد الشام بقيادة غازان خان وفتاوى ابن تيمية الثلاثة المناهضة) في مجلة الدراسات المملوكية الصادرة عن جامعة شيكاغو باللغة الإنجليزية، العدد (١١/ ٢) (ص١١٧).

بالكُلِّيَّة)[1].

فلم يكن حديث الشيخ إذًا عن خطر الرافضة علىٰ الحجاز قد جاء من فراغ، بل كان عن وعي وبصيرة بمؤشراتٍ واقعية تدل عليه، وهكذا فليكن التعامل مع الأحداث والمنعطفات الخطيرة في واقع المسلمين.

---

(١) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٣).

رابعًا

عهد أبي سعيد.. المُصالحة وإبطال الرفض

انتقل الملكُ في مملكة إيران بعد هلاك خربندا لابنه أبي سعيد، الذي لم يكن في أول عهده مؤهلًا لقيادة المملكة والجيش، حيث لم يكن قد تجاوز لدىٰ جلوسه علىٰ العرش سنة ٧١٧هـ إحدىٰ عشرة سنة[١]، فولي القيادة الفعلية نائبُ أبيه الأمير جوبان، واستقرَّ في الوزارة علي شاه التبريزي، في حين عُزِل الوزير رشيد الدولة من مناصبه ووظائفه، إلىٰ أن انتهىٰ مصيره بالقتل علىٰ يد جوبان سنة ٧١٨هـ، بتهمة تسميم خربندا[٢].

حدث في عهد أبي سعيد تغيُّرات جذرية في المستويين الديني والسياسي، فعلىٰ المستوىٰ السياسي اتجهت العلاقات مع السلطان الناصر -في ولايته الثالثة، التي استتب فيها الأمر له بشكلٍ تام- نحو التحسُّن، يصفُ الصفدي العلاقة بين السلطان الناصر وأبي سعيد بقوله: (كانت الرُّسلُ لا تنقطع بينهما، وكلٌّ منهما يسمي الآخر أخًا، وصارت الكلمتان واحدة، والمملكتان واحدة، ومراسيم السلطان تنفذ في بلاد بو سعيد، ورسله تدخل البلاد بالأطلاب، والطبلخانات، والأعلام المنشورة)[٣].

ساهم في إبرام المصالحة بين مملكة إيران والمماليك في مصر ثلاثُ شخصيات:

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٢٦٨).
(٢) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٣١٨).
(٣) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٥/ ٩٦-٩٧).

الشخصية الأولىٰ: الأمير جوبان، نائب المَلِك، ومدبِّر المملكة الفعلي. يقول الصفدي في ترجمته: (هو أحد الأسباب الكبار في تقرير الصلح بين السلطان بو سعيد مخدومه، والسلطان الملك الناصر)[١].

وقد أشارت بعض كتب التاريخ إلىٰ ميل جوبان نحو المماليك منذ عهد خربندا، وحصول مراسلات بينه وبينهم[٢]، كما تذكر بعضها دورًا مهمًّا له في إبطال حصار الرحبة الذي جرىٰ في حملة خربندا علىٰ الشام سنة ٧١٢هـ[٣]، يقول ابن كثير في وصف جوبان: (وجوبان هذا هو الذي ساق القناة الواصلة إلىٰ المسجد الحرام، وقد غرم عليها أموالًا جزيلةً كثيرةً، وله تربة بالمدينة النبوية، ومدرستُه مشهورة، وله آثار حسنة، وكان جيِّدَ الإسلام، له هِمَّة عالية)[٤].

والشخصية الثانية: الوزير علي شاه التبريزي، يقول أبو الفداء: (هو الذي نسج المودة بين الإسلام والتتر، رحمه الله تعالىٰ)[٥].

والشخصية الثالثة: التاجر مجد الدين السلامي، واسمه إسماعيل بن محمد بن ياقوت، قال الصفدي: (كان رجُلًا عظيمًا داهية ذا عقل وافر، وحسن تلطُّفٍ، ومُداخلة للملوك، وهو كان السببَ في الصلح بين المسلمين والتتار أيام القان بو سعيد، وكانت له وجاهةٌ زائدةٌ عند السلطان الملك الناصر، وعند المغُل لحسن تأتِّيه)[٦].

---

(١) «الوافي بالوفيات» (١١/ ١٦٩).

(٢) «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٢٧١).

(٣) «الوافي بالوفيات» (١١/ ١٧٠) في ترجمة جوبان، وقال الصفدي بعد ذلك: (هذه الحركة تكفيه عند الله تعالى؛ حَقَن دماء المسلمين، ورفع الأذى عنهم).

(٤) «البداية والنهاية» (١٨/ ٣٠٣).

(٥) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٩٣).

(٦) «الوافي بالوفيات» (٩/ ٣١٢-٣١٣)، وانظر «كنز الدرر وجامع الغرر» (٩/ ٣١٢-٣١٣).

يقول البرزالي: (وفي يوم الأربعاء الحادي والعشرين من ذي الحجة (٢١/ ١٢/ ٧٢٠هـ) وصل إلىٰ دمشق مجد الدين إسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، التاجر من المدينة السلطانية، وخرج لتلقِّيه جماعة من الجند، ونزل بدار السعادة، فأقام يومًا، وتوجَّه إلىٰ القاهرة علىٰ البريد، واشتهر أنه ورد في صلح بين سلطان المسلمين وملك التتار، وأنه وصلت علىٰ يده هديَّة جليلة...)[1].

ويُعلِّقُ الذهبي بحمد الله تعالىٰ علىٰ انعقادِ الصُّلح، حيث قال في حوادث سنة (٧٢١هـ): (وجرىٰ الصلح بين السلطان وأبي سعيد، وأُبرِم ذلك، وتهادَوا، ولله الحمد)[2].

وأورد المقريزي بعض الشروط التي اتُّفق عليها بين المملكتين لإبرام الصلح؛ (منها ألا تدخل الفداوية إليهم، وأن من حضر من مصر إليهم لا يُطلَب، ومن حضر منهم إلىٰ مصر لا يعود إليهم إلا برضاه، وألا يبعث إليهم بغارة من عرب ولا تركمان، وأن تكون الطريق بين المملكتين مفسوحة تسير تجار كل مملكة إلىٰ الأخرىٰ، وأن يسير الركب من العراق إلىٰ الحجاز في كل عام بمحمل ومعه سنجق فيه اسم صاحب مصر مع سنجق أبي سعيد ليتجمل بالسنجق السلطاني، وألا يُطلَب الأمير قراسنقر)[3].

وعقبَ الصُّلحِ قام التتار بإبطال الخمور في عدد من مدنهم، منها السلطانية وتبريز والموصل[4].

---

(١) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٤٦١).

(٢) «دول الإسلام» (٢/ ٢٦١).

(٣) «السلوك لمعرفة دول الملوك» (٣/ ٢٩).

(٤) نقل هذا الخبر البرزالي في «تاريخه» (٤/ ٤٤٨-٤٤٩) عن تاجر موصلي. ونقله عنه النويري في «نهاية الأرب» (٣٢/ ٣٣٥-٣٣٦) مصرِّحًا بعزوه له.

وفي سنة ٧٢٦هـ أرادَ الأميرُ جوبان توثيق العلاقات بالناصر، ولأنَّ المُصاهرة تُعدُّ من الوسائل المؤثرة والمستعملة بين الملوك والقادة في ذلك، فقد طلب الأمير جوبان مصاهرة السلطان لابن جوبان علىٰ إحدىٰ بناته، وشفع ذلك بطلب آخر، وهو أن يكونَ الشيخُ -وهو إذ ذاك مُعتَقلٌ في قلعة دمشق- من يمشي في هذه الخطبة. يقول النويري: (ثم وصل من جهة الأمير جوبان المذكور في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر رمضان (٢٥/ ٩/ ٧٢٦هـ) ثلاثةٌ من أعيان الصوفية علىٰ خيل البريد برسالةٍ مضمونُها: السؤال في مصاهرة السلطان لابن الأمير جوبان علىٰ إحدىٰ بناته، فمثلوا بين يدىٰ السلطان، وكان من جملة سؤالهم عن مرسِلِهم: أن يكون الذي يمشي بينهم في الخطبة: الشيخ تقيُّ الدين ابنُ تيمية، وكان قد اعتُقل علىٰ ما نذكره، فأجيبُوا عن ذلك: أن المذكورَ في حبس الشرع[1] لأمورٍ صدرَت عنه.

ورسم السلطان للقاضي بدر الدين أن يسمع كلام الرُّسُل، فسمع كلامَهُم، ثم أعيدوا إلىٰ مرسلهم علىٰ خيل البريد)[2].

هذا ما كان من تغير في العلاقة بين مملكة إيران والمماليك علىٰ المستوىٰ السياسي في عهد أبي سعيد، أما علىٰ المستوىٰ الديني فقد أبطل أبو سعيد في عهده الرفض الذي تبناه أبوه، وأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

يقول ابن كثير: (ولعب كثير من الناس به في أول دولته، ثم عدل إلىٰ العدل وإقامة السنة، فأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين أولًا، ثم عثمان، ثم علي،

---

(١) هذا لسان حال الدولة -إذ ذاك-، فالنويري قريب من رجالاتها، لا لسان حال العلم والعلماء، وستأتي الإشارة إلى مناصرة علماء بغداد للشيخ في هذه المسألة.

(٢) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣٣/ ١٥٥).

رضي الله عنهم، ففرح الناس بذلك، وسكنت بذلك الفتن والشرور والقتال الذي كان بين أهل تلك البلاد بهراة، وأصبهان، وبغداد، وإربل، وساوة، وغير ذلك)[1].

تجدُّدُ المِحَن علىٰ ابن تيمية.. ووفاتُه:

خلال مدة ولاية أبي سعيد، وسلطنة الناصر الثالثة، والصلح الذي تم بين المملكتين، تجددت علىٰ الشيخ المحن، فاعتُقِل مَرَّتين:

المرة الأولىٰ: بسبب فتواه في مسألة الطلاق، التي حُبِس بسببها خمسة أشهر، وثمانية عشر يومًا. (٢٢/ ٧/ ٧٢٠هـ-١٠/ ١/ ٧٢١هـ)[2]. وفي حبسته تلك قدم مجد الدين السلامي، وجرىٰ الصلح بين المماليك والتتار.

والمرة الثانية: بسبب فتواه في منع شد الرحال لزيارة القبور، وكان قد أفتىٰ بذلك قديمًا، لكن خصومه نشروا فتواه تلك وشنعوا عليه، وسعوا لدىٰ الدولة، حتىٰ حُبِس بسببها في قلعة دمشق يوم الاثنين ٦/ ٨/ ٧٢٦هـ.

وقد ناصر بعض عُلماء بغداد -التي كانت تحت سيطرة التتار- الشيخ في حبسته الأخيرة، وكتبوا عدة خطابات وجهوها للسلطان الناصر، مُعظِّمينَ ومُفخِّمين له، طالبين منه الإفراج عن الشيخ[3]، غير أن الشيخ بقي في الحبس، إلىٰ أن توفي يوم الاثنين ٢٠/ ١١/ ٧٢٨هـ.

وهكذا، تصرَّم عمر الشيخ في الدفاع عن الإسلام، والتنقل من جهاد لآخر، ويعبر الشيخ عن هذا المعنىٰ في رسالةٍ له كتبها في حبسته الأخيرة إذ يقول: (وأنا

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٥٤).

(٢) «المقتفي على الروضتين» (٤/ ٤٤٢). «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٠٦).

(٣) أوردها ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٤١٢-٤٣٤).

-ولله الحمد- لست في شدَّة ولا ضيقٍ أصلًا، بل في جهاد في دين الله وسبيله ونصر دينه، مثلَ ما كنت أخرج إلىٰ قازان، وأغزو الجَبَليَّة.

والجهاد لا بد فيه من اجتهاد: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]»[1].

(١) «جامع المسائل» (٩/ ٢٥٧-٢٥٨).

القسم الثاني

المناقشات

أولًا

كشف ما وقع لبعض مؤرخي التتار والمستشرقين والشيعة من أخطاء في بعض موضوعات البحث

١- نقد ثناء بعض مؤرخي التتار علىٰ الياسا:

جاء في كتاب (تاريخ جهانكشاي) لصاحب الديوان في دولة التتار في عهد آباقا ومؤرخ التتار: عطا ملك الجويني، والذي أرخ فيه للتتار من عهد جنكيز خان إلىٰ عهد آباقا ما يأتي: (وأمَّا الياسة، وأحوالها كثيرة، فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية.

وليُعلم أن هذا الرجل -أي: جنكيز خان- لم يقف علىٰ سيرة ملوك، ولا طالع كتابًا، وجميع ما يُنسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه وحسه، واستدراك الأصلح من قبل نفسه، فإنه استخرج لكل مهمٍّ وقع قاعدةً مفردة، ولكل ذنب عقوبةً مقدرةً، وعين حدودًا، لا إمهال له عندهم ولا مغير، وأوعز أن يتعلم ذلك صغار أهله، ويسرىٰ امتثاله عن عقب الرجل منهم ونسله، بعد أن أثبتها في كتاب سماه الياسا الكبيرة، وأمر أن يوضع في خزانته، ويتوارثها أقارب عصبته وذريته. ونسخ ما كان لهم من قديم عوائد مذمومة بتسليكات محمودة مفهومة...)[1]. ثم ذكر الجويني عددًا من الأحكام المثبتة في الياسا.

قال مقيده -عفا الله عنه-: قارن بين حديث عطا ملك الجويني عن الياسا وجنكيز خان وحديث علماء الإسلام عنهما. يقول ابن تيمية في وصف جنكيز خان: (ذلك الملك الكافر المشرك المشابه لفرعون أو النمروذ ونحوهما؛ بل هو

---

(١) «مسالك الأبصار» (المخطوطة، ص٣٤).

أعظم فسادًا في الأرض منهما، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وهذا الكافر علا في الأرض: يستضعف أهل الملل كلهم من المسلمين، واليهود، والنصارىٰ، ومن خالفه من المشركين؛ بقتل الرجال، وسبي الحريم، وبأخذ الأموال، وبهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ويرد الناس عما كانوا عليه من سنن الأنبياء والمرسلين إلىٰ أن يدخلوا فيما ابتدَعَه من سُنَّتِه الجاهلية، وشريعته الكفرية)[1].

وقال: (وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات؛ أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم.

لكن هذا قد يكون المقصود في أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من أتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم، مثل قوم نوح، ونمرود، وجنكيزخان، وغيرهم، فإن كل طائفة من بني آدم محتاجون إلىٰ التزام واجبات وترك محرمات يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية، وربما جعلوا مع ذلك ما يستولون به علىٰ غيرهم من الأصناف ويقهرونه، كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيزخان.

فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا، ودفع المضرة فيها، فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق، ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به علىٰ غيرهم من بني آدم ويقهرونهم كفعل فرعون وجنكيزخان

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥٢).

ونحوهما؛ فهؤلاء من أعظم الناس عذابًا في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٣-٤])[١].

ولا عَجَبَ من مدح عطا ملك الجويني لجنكيز خان والياسا، فهو من مؤرخي البلاط، وقد قال الذهبي رحمه الله في التعليق علىٰ ثناء الظهير الكازروني علىٰ هولاگو: «وهل يسع مؤرخًا في وسط بلاد سلطان عادل أو ظالم أو كافر إلا أن يُثني عليه، ويكذب؟ فالله المستعان»[٢]. وقال أيضًا: (وفي الخلفاء وآبائهم وأهلهم قومٌ أعرض أهل الجرح والتعديل عن كشف حالهم خوفًا من السيف والضرب، وما زال هذا في كُلِّ دولةٍ قائمة يصفُ المؤرِّخ محاسِنَها، ويُغضي عن مساوئها، هذا إذا كان المُؤرخ ذا دينٍ وخير، فإن كان مدَّاحًا مُداهنًا لم يلتفت إلىٰ الورع بل ربما أخرج مساوئ الكبير وهناته في هيئة المدح والمكارم والعظمة، فلا قوة إلا بالله)[٣].

ولو قيل ما قيل في الثناء علىٰ الأوضاع المخالفة للشريعة، فإن من المعلوم أن الله لا يقبل من أحد غير شريعة الإسلام، وبها يحكم عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان.

٢- نقد نسبة بعض المستشرقين الثناء علىٰ الياسا إلىٰ مؤرخي المسلمين:

كان ابن فضل الله في «مسالك الأبصار» في الباب المعقود لـ(ممالك جنكيز خان) تحت عنوان (نبذة من عقيدته وياسته وقاعدته وسيرته)، قد نقل الفقرة

---

(١) «قاعدة في المحبة» (ص١٠٩).

(٢) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ١٠٥).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٣/ ٦٤٢).

المتعلقة بالياسا والتي سبق إيرادها بنصِّها من كتاب عطا ملك الجويني، ثم جاءت المستشرقة الألمانية دوروتيا كرافولسكي في مقالتها «الدولة المملوكية: البنية والمشروعية من خلال كتاب «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري» فأخذت هذه الفقرة من «مسالك الأبصار» لابن فضل الله ونسبتها إليه، وحذفت تصدير ابن فضل الله لتلك الفقرة بمصدرها وعزوه إياها لكتاب (تاريخ جهانكشاي) لعطا ملك الجويني، ثم وصفت كلام ابن فضل الله عن الياسا بأنه حديث هادئ محايد، وبنت علىٰ ذلك ثلاث نتائج:

الأولىٰ: جعلَتْ هذا الموقف الهادئ المحايد المزعوم مفسرًا لنقد ابن فضل الله لهولاگو خان وتحميله مسؤولية الآثار المفجعة للهجمة المغولية عن العالم الإسلامي.

الثانية: زعمَتْ أن هذه النزعة الموضوعية في النظرة إلىٰ المغول وشرائعهم كانت نتيجة لتحول بركة خان ومغول الفقجاق إلىٰ الإسلام، إذ لما كان هذا التحول نتيجةً لموافقة بعض شرائع الياسا للإسلام، صار للياسا مكانة لدىٰ مؤرخي المماليك ومنهم ابن فضل الله!

الثالثة: زعمت أن دفاع ابن فضل عن الياسة لأن فيها ما يوافق الشريعة ويشكل دفاعًا مستترًا عن المماليك بمصر الذين كانوا يطبقون بعض أحكام الياسة في أوساطهم[1].

وهذه الدعاوىٰ كلها دعاوىٰ واهية، لأنها لا تقوم علىٰ أساسٍ صحيح، ذلك أن المستشرقة أغفلت -قصدًا، أو دون قصد- حقيقةً مهمة، وهي أن هذه الفقرة ليست من كلام ابن فضل الله أصلًا، وإنما هي من كلام مؤرخ التتار عطا ملك الجويني، فكانت دعاواها باطلة من هذا الوَجه.

---

(١) «العرب وإيران» لكرافولسكي (ص١١٠-١١١).

كما أن دعوىٰ انتفاء ذم ابن فضل الله لجنكيز خان في كتابه، دعوىٰ غير صحيحة، وكذلك دعواها أن مغول القفجاق كان تحولهم للإسلام بسبب موافقة الياسا لبعض أحكامه.

٣- نقد دعوىٰ بعض المستشرقين ترك قازان للعمل بالياسا:

ذهب عدد من المستشرقين إلىٰ القول باتباع قازان للشريعة الإسلامية، وتركه العمل بالياسا، منهم المستشرق الفرنسي برتولد شبولر في «العالم الإسلامي في العصر المغولي»[١]، والمستشرق الألماني كارل بروكلمان في «تاريخ الشعوب الإسلامية»[٢]، والباحثة الإيرانية شيرين بياني في «المغول: التركيبة الدينية والسياسية»[٣].

وما ذكره هؤلاء المستشرقون مخالف لما ذكره مؤرخو المماليك ومؤرخو التتار من حال قازان:

فأما مؤرخو المماليك:

١ - فقال العز الإربلي الطبيب ما معناه: (إن غازان لما ملك استضاف نساء أبيه إلىٰ نسائه علىٰ (ياسا) المغول في ذلك...)[٤].

٢- وقال الصفدي: (ويَفهمُ -أي قازان- أكثر ما يقال قُدَّامَه بالعربي، ولا يُظهِر أنَّه يفهمه تعاظُمًا، لأجل (ياسا) جنكزخان الخالصة، ولما مَلَك أخذَ نفسه بطريق جنكزخان، وأقام (الياسا) المغولية)[٥].

---

(١) (ص٧٥).
(٢) (ص٣٩٢).
(٣) (ص٣١٣).
(٤) نقله الصفدي في «أعيان العصر» (٤/ ٩).
(٥) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ٩).

٣- وقال ابن تيمية في وصف المغول زمن قازان: (لا يلتزمُون الحكم بينهم بحكم الكتاب والسنة؛ بل يحكمون بأوضاعٍ لهم تُوافق الإسلام تارةً، وتُخالفه أخرىٰ)[١]، وقال: (ولو قالوا: يُحْكَم بيننا بـ(اليًاساق)، ولا يحكم بيننا الله ورسوله ﷺ، قوتِلُوا علىٰ ذلك)[٢]، ويقول: (وقد أجمع المسلمون علىٰ وجوب قتال الخوارج والروافض ونحوهم إذا فارقُوا جماعة المسلمين كما قاتلهم علي رضي الله عنه، فكيف إذا ضموا إلىٰ ذلك من أحكام المشركين [كياسا جنكسخان] مَلِك المشركين: ما هو من أعظم المضادة لدين الإسلام؟)[٣].

وأما مؤرخو التتار:

فإن رشيد الدولة لما ذكر في «جامع التواريخ»[٤] المحاكمات التي أجراها قازان لأمراء المغول المنهزمين بعد واقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ؛ ذكر أنها تمت وفقًا للياسا، ونفذت بناء عليها أحكام الإعدام في عدد من الأمراء.

لكن نقل فؤاد الصياد في مقدمته لكتاب «جامع التواريخ»[٥] عن ذبيح الله صفا، أن قازان وضع ياسا جديدة بدلًا من ياسا جنكيز خان عُرفت بـ(الياسا الغازانية)، وقد يلتقي هذا مع ما نقله الصفدي عن قازان أنه قال -عندما اعتَرَض عليه بعض التتار في مخالفته الياسا التي وضعها جنكيز خان-: (الياسا ما أُقرِّره أنا)[٦]. وفي «جامع

---

(١) انظر الملحق.

(٢) «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

(٣) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٣٠)، وهذا النص والذي قبله يرجعان لعهد خربندا وهو امتداد لقازان في هذا.

(٤) (ص١٨٦).

(٥) (ص٣٦).

(٦) «أعيان العصر وأعوان النصر» (٤/ ١١).

التواريخ»[1] فرمان فيه إلغاء قازان لبعض الضرائب القاسية التي كانت تفرضها الياسا.

وهذا غاية ما يدل عليه أن قازان قام بتعديل بعض أحكام الياسا التي وضعها جنكيز خان، وفق ما يراه هو، لا أنه أبطل العمل بالياسا مطلقًا، أو عمل بالشريعة الإسلامية، كما ذهب إليه أولئك المستشرقون.

٤- نقد إغفال مؤرخي التتار لدور الأمير نوروز الشهيد في إقامة شرائع الإسلام:

مؤرخو التتار يذكرون القيام بتحطيم الأصنام وإبطال الديانة الوثنية في إيران بالإشادة، إلا أنهم يعزون تلك الأفعال لقازان، لا للأمير نوروز، حيث يذكر وزير قازان رشيد الدين الهمذاني أنه علىٰ إثر مقتل (بايدو) ووصول قازان إلىٰ الحكم، نُفِّذ المرسوم الذي يقضي بتخريب كل معابد البوذيين، ودور الأصنام، والكنائس، والبيع، في تبريز وبغداد وسائر بلاد الإسلام[2]، ويذكر في حكايات قازان: (الحكاية السابعة في تحطيم الأصنام وإبطال الديانة الوثنية)[3].

والذم والمدح عند رشيد الدولة بحسب هوىٰ متبوعيه من الملوك، لا بحسب ما يقتضيه دين الإسلام، ولذا نجده في «جامع التواريخ»[4] يُثنِي علىٰ انتصار أرغون البوذي -والد قازان- علىٰ السلطان المسلم أحمد بن هولاگو، ويعدُّه انتصارًا من الله تعالىٰ، في حين يذم رشيد الدولة الأمير نوروز[5] القائم الحقيقي بإبطال الديانة

---

(١) (ص٣٤١).
(٢) «جامع التواريخ» (ص١٢٧).
(٣) «جامع التواريخ» (ص٢٢٥).
(٤) (ص٨٤).
(٥) في تفصيل واقعة قتل نوروز كما رواها رشيد الدولة يُنظَر «جامع التواريخ» (ص١٤٢-١٤٨).

الوثنية وتحطيم الأصنام، فكيف يكون ثناء رشيد الدولة علىٰ تحطيم الأصنام ثناءً دينيًّا؟ إنما هو تصفيق سياسي، وعزو للفضل لغير أهله.

ويقول ابنُ الفوطي -تلميذ رشيد الدولة- في «مجمع الآداب»(١) في ترجمة قازان: (وأظهر ملَّة الاسلام، وقرَّب الأئمَّة، وقتل البخشيَّة، وكسر الأصنام).

وهذا أيضًا كسابقه، عزو للفضل لغير أهله، فالذي قام بذلك حقيقة هو الأمير نوروز، وقد قال الذهبي في وصف ابن الفوطي: (ومَع سعة معرفته لم يكن بالثَّبت فيما يُترجمه، ولا يتورَّع في مدح الفُجَّار، ولم يكن بالعدل في دينه، وهو معدودٌ في علماء التتار، يأخذ جوائزهم، ويجاوز في إطرائهم)(٢).

٥- صحة تسمية خربندا بهذا الاسم خلافًا للشيعة المعاصرين:

يسمىٰ أولجايتو بن أرغون، الإيلخان الثامن لمملكة إيران بخدابنده أي: عبد الله، ويقال له أيضًا: خربندا، والرافضة المعاصرون يحبون هذا الملك، ويعدون تسميته بخربندا في المصادر التاريخية لأهل السنة من البذاءة والفحش، لأن معناه غلام الحمار(٣).

والرد علىٰ هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن تسميته بخربندا ثابتة في مصادر مؤرخي التتار، كرشيد الدولة، وانظر في ذلك «كتاب السلطانية» لرشيد الدولة ضمن «المجموعة الرشيدية»(٤).

---

(١) (٥/ ٤٠).

(٢) «المعجم المختصُّ بالمحدِّثين» (ص١٤٤-١٤٥).

(٣) انظر كلام الشهاب المرعشي النجفي في مقدمة محقق«إرشاد الأذهان لأحكام الإيمان» للحلي (١/ ١٢٧-١٢٨).

(٤) مخطوطة (ص٢٠٩- أ).

الثاني: أن التشبيه بالحمار لمستحقه واردٌ في القرآن، وقد وصف ابن تيمية في «منهاج السنة»[1] شيخَهُم الحلي بالحمار الرافضي لاستحقاقه ذلك.

الثالث: أن البذاءة والفحش هي بذاءة وفحش من سب السلف من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم الذين زكاهم الله في كتابه، كما هو ديدن الرافضة ودينهم.

---

(١) (٧/ ٢٩٠-٢٩١).

ثانيًا

نقض دعوى تقلب ابن تيمية في موقفه من الرافضة

تعد قضية الموقف من الآخر في التراث الإسلامي، والتي يندرج في ضمنها مسائل جهاد الطلب، والجزية، وعقوبة المرتد، وعقوبة المبتدع، واشتراط الإسلام في الإمام، إلىٰ غير ذلك، تعد تلكم القضية من القضايا التي وُجِّهَت إليها سهام الحداثيين والتنويريين، ولأن تراث شيخ الإسلام ابن تيمية يعدُّ تراثًا حاضرًا ومؤثرًا في الفكر الإسلامي المعاصر، فقد ناله من تلك السهام ما ناله.

وكان من بين تلكم السهام ما جاء في كتاب (حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوىٰ ابن تيمية)، الذي صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالدوحة سنة ٢٠١٧م، وقد تناول الكاتب في كتابه هذا موقف ابن تيمية من الفرق المخالفة لأهل السنة، كالنصيرية، والإسماعلية، والدروز، والرافضة (وكان معظم تركيزه علىٰ موقف ابن تيمية منهم)، والاتحادية (الذين يسميهم الكاتب الفرق الصوفية العرفانية)، بل وتحدث عن موقفه من الطوائف التي هي أقرب إلىٰ السنة، كالأشعرية.

❖ أولًا: التعامل مع فتاوى ومواقف ابن تيمية من الرافضة في سياق صراع المسلمين مع مغول إيران.. بين اتجاهين:

ادعىٰ الكاتب أن (فتاوىٰ ابن تيمية الأساسية المتصلة بالشيعة، لا تزال حية فاعلة اليوم، في حين ينتمي زمانها التاريخي الاجتماعي -السياسي إلىٰ تلك

الأعوام الحرجة المرتبطة بالصراع المملوكي -الإيلخاني)[1]، وأن: (ابن تيمية جعل الطائفة الممتنعة مصطلحًا مفهومًا قائمًا بذاته لتوظيفه سياسيًّا ضد التتار والفرق العرفانية والشيعية بدرجة رئيسة في مرحلة تجدد الصراع المملوكي -التتاري، لكن المنطق الفتوي أظهر الموقف في صورة القاعدة الفتوية العامة المجردة عن الشروط الزمكانية، لأن الحكم هو الحكم، فأخذت هذه مع الزمن خصائص القاعدة العامة المجردة اللازمة، علىٰ الرغم من تزايل الشروط السياسية التي حكمتها)[2]، وأن (فتاواه ذات الصلة التي أنتج أكثرها في مرحلة الصراع المملوكي -التتاري الإيلخاني ما زالت حية فاعلة، وكأنها صدرت اليوم، مقتلعة من شروطها ومعطاة طابعًا مرجعيًّا مطلقًا، علىٰ المستويين الاعتقادي والسلوكي، وفي تناول أكثر تشدُّدًا مما انطوت عليه مجمل فتاوىٰ ابن تيمية الثالث في تلك المرحلة)[3]، وأنه أعاد صوغ الصراع المملوكي -الإيلخاني التتاري علىٰ المستوىٰ المذهبي كصراع سني -شيعي، وبانتهاء ذلك الصراع يرىٰ الكاتب أن الشروط السياسية التي حكمت فتاوىٰ ابن تيمية من الشيعة وغيرهم (وَلَّتْ وانتهت حتىٰ في حياة ابن تيمية دون أن يعلق علىٰ ذلك بشيء، بل تخلىٰ عن قصة الصراع المملوكي -التتاري بعد السلام بين المماليك والتتار كليًّا في فتاواه، أو ما عاد يؤكد ذلك فيها بعد مرحلة السلام)[4]. وكانت النتيجة التي وصل إليها الكاتب هي أننا (علىٰ مستوىٰ المفاهيم تجاه الآخر المسلم وغير المسلم ما زلنا نعيش علىٰ مستوىٰ التفكير الإسلامي في الزمن المملوكي)[5].

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٤٧).
(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٣٤).
(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٥٣).
(٤) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٥٣).
(٥) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٥٤).

وبالنظر في مواقف وفتاوىٰ ابن تيمية المتعلقة بالرافضة في سياق صراع المسلمين مع مغول إيران استنادًا للمصادر الموثوقة نجد ما يأتي:

١- تحدث ابن تيمية عن تقديم الوزير في عهد قازان رشيد الدولة الهمذاني لبعض الشخصيات الرافضية كالأصيل نجل النصير الطوسي[١]، كما حاور بعض قادة التتار المتأثرين بالدعاية الرافضية ضد أهل دمشق احتلالها سنة ٦٩٩هـ[٢]، كما ذكر ضعف وجود الرافضة في أوقات قوة الإسلام في مملكة إيران، كما جرىٰ في عهد نوروز الشهيد[٣].

٢- تحدث ابن تيمية عن مشاركة طوائف من أهل البدع من بينهم الرافضة في حملات التتار العسكرية علىٰ بلاد العراق والشام منذ عهد هولاكو، ودورهم في احتلال بغداد، وسقوط حلب، ونهب الصالحية[٤]، وتحدث عن حُبِّ الرافضة لدولة التتار، واختيارهم لظهورهم علىٰ المسلمين.

٣- تحدث ابن تيمية في عدد من المواطن عن دور الرافضة في بلاد الشام (الكِسْروانيين ونحوهم) في خيانة المسلمين عقب هزيمة المماليك في معركة وادي الخزندار سنة ٦٩٩هـ[٥].

٤- شارك ابن تيمية في حملة المماليك العسكرية التأديبية للرافضة والدروز

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٥٢٥).

(٢) نص الحوار في «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٨٧ -٤٨٨).

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٤٧).

(٤) «فتوىٰ في قتال الرافضة» ضمن «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٧٨)، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٥٢٠).

(٥) انظر «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٥٨ -١٥٩)، (٦/ ٣٧٤-٣٧٥)، «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٤٧٨)، «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

والنصيرية في جبل الكسروان بعد احتلال دمشق سنة ٦٩٩هـ[١]، كما شارك في حملة المماليك عليهم سنة ٧٠٤-٧٠٥هـ، بتقديم المشورة لنائب السلطنة بدمشق، وبإقامته الحُجَّة علىٰ الكسروانيين، والإفتاء بقتالهم، ثم التحريض علىٰ قتالهم، ثم مشاركته -هو وأصحابه- العملية في ذلك القتال.

٥- تحدث ابن تيمية عن إظهار الرفض وسب الصحابة في عهد ملك التتار خربندا[٢]، وعد ذلك وجهًا جديدًا من أوجه خروجهم عن شرائع الإسلام الموجبة لقتالهم[٣]، كما تحدث عن تعاظُم شرِّ الرافضة، وعَبَثهم، وإفسادِهم في ذلك العهد، وبين أن ضررهم يفوق ضرر التتار[٤]، ونقل ابن كثير فتوىٰ لابن تيمية في المال الذي غنِمَهُ محمد بن عيسىٰ من الدلقندي -أحد أعيان الرافضة في دولة التتار-، والذي كان مُعدًّا لغزو الحجاز، وإظهار مذهب الرافضة فيها في نهاية عهد خربندا سنة ٧١٦هـ[٥].

٦- قارن ابنُ تيمية في (الرسالة في أحكام الولاية)[٦] التي كتبها في عهد خربندا بين عداوة الرافضة لأهل الإسلام وعداوة التتار لهم من حيث باعث كلتا العداوتين، وبين أن عداوة الرافضة قائمة علىٰ باعث ديني بخلاف عداوة التتار التي ينتفي منها ذلك الباعث: (والتتريُّ إذا عَرَف الإسلام ودُعي إليه أحبَّه واستجاب إليه، إذ ليس له دين يقاتل عليه ينافي الإسلام، وإنما يقاتل علىٰ الملك، وأما

(١) انظر «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٥)، و«البداية والنهاية» (١٧/ ٧٣٠).
(٢) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٣٧٥)، و«الرسالة في أحكام الولاية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢١٠).
(٣) « الفتيا الثانية في قتال التتار » في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١١).
(٤) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٧).
(٥) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٥٥).
(٦) ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢١٠).

الرافضة فإن من دينهم السعي في إفساد جماعة المسلمين وولاة أمورهم، ومعاونة الكفار عليهم؛ لأنهم يرون أهل الجماعة كفارًا مرتدِّين، والكافر المرتدُّ أسوأ حالًا من الكافر الأصلي، ولأنهم يرجون في دولة الكفار ظهورَ كلمتهم وقيام دعوتهم ما لا يرجونه في دولة المسلمين، فهم أبدًا يختارون ظهور كلمة الكفار علىٰ كلمة أهل السنة والجماعة، كما قال النبي ﷺ في الخوارج: «يقتلون أهل الإسلام ويَدَعونَ أهلَ الأوثان»).

٧- تحدَّث ابن كثير عن إبطال أبي سعيد -ملك التتار- الرفض الذي تبناه أبوه خربندا لما آل الحكم إليه فقال: (ولعب كثير من الناس به في أول دولته، ثم عدل إلىٰ العدل وإقامة السنة، فأمر بإعادة الخطبة بالترضي عن الشيخين أولًا، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم، ففرح الناس بذلك، وسكنت بذلك الفتن والشرور والقتال الذي كان بين أهل تلك البلاد بهراة، وأصبهان، وبغداد، وإربل، وساوة، وغير ذلك)[١].

وهذه التفاصيل تدلُّ علىٰ أن صراع المسلمين مع مغول إيران كان ظَرْفًا تاريخيًّا لعدد من مواقف ابن تيمية وفتاواه المتعلقة بالرافِضَة، وهذا أمرٌ معلوم، كما أن من المعلوم أن عددًا منها لم يكن في تلك الظروف، ومن المعلوم أيضًا أن عددًا من الملابسات السياسية والاجتماعية شكلت ظروفًا لمواقف وفتاوىٰ أخرىٰ له في هذا الشأن، أو في شؤون أخرىٰ.

وثمة اتجاهان في التعامل مع تلك الملابسات:

الاتجاه الأول: ينظر أصحابه في تلك الملابسات للاستفادة منها في فهم تلك الفتاوىٰ والمواقف الفهم الصحيح، مما يُعينُ علىٰ الاهتداء بتلك الفتاوىٰ

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ١٥٤).

والمواقف في أزمنة وأمكنة أخرىٰ، وهذا هو الاتجاه الذي يقتضي النظر العلمي المنصف سُلوكَه.

والاتجاه الثاني: يرىٰ في تلك الملابسات شروطًا وقيودًا لتلك المواقف والفتاوىٰ، بحيث تزول بزوالها، فهي اليوم فاقدة لصلاحية التأثير، كما ذهب إليه الكاتب.

وعقوبة الخارجين علىٰ شرائع الإسلام سواء من الرافضة أو التتار أو غيرهم لها في تراث ابن تيمية من الضوابط والشروط ما لا يخفىٰ علىٰ المُحصِّلين، وقد بين الشيخ من أوجه الخروج عن الكتاب والسنة (أن يعتقد أنَّه لا يجب عليه اتباعهما، أو أنَّه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما، ونحو ذلك، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما)، وبين أن تلك الأوجه قد (أ- توجب الكفر، ب- وقد توجب القتل دون الكفر، ج ـ وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه)[1]، وبين في فتوىٰ له في الرافضة أن قتل الواحد المقدور عليه إنما يكون إذا كان مُفسدًا مضرًّا بدين المسلمين كالداعية لمذهبه[2]، وبين في فتوىٰ أخرىٰ في النصيرية أن من كان منهم داعية إلىٰ الضلال لا ينكف شره إلا بالقتل قُتِل[3].

إن من الأوجه التي تكشف فساد القول بتوقفِ حديث ابن تيمية عن الرافضة والفرق المخالفة للسنة؛ قول الشيخ في بيان أثر ظهور البدع -التي تشمل الرفض والتجهم وغيرهما- في انحلال الدول في كتاب (الفرقان بين الحق والبطلان) الذي صنفه في حبسته الأخيرة، والتي كانت في زمن المصالحة بين المماليك

---

(١) (مجموع الفتاوى) (١١/ ٤٦٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٩٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥٥).

والتتار: (فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملَكُوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم، وهو حقيقة قول فرعون إنكار الصانع وإنكار عبادته، وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض، فكان خيارهم وأقربهم إلىٰ الإسلام الرافضة، وظهر بسببهم الرفض والإلحاد، حتىٰ كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان الغالية ونحوهم متشيعين، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق، وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم قال: وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولىٰ المقتدر، ولم يكن بلغ بعد وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية.

...فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصارىٰ إلىٰ الشام والجزيرة مرة بعد مرة، وأخذوا الثغور الشامية شيئًا بعد شيء، إلىٰ أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصارىٰ والمنافقين الملاحدة، إلىٰ أن تولىٰ نور الدين الشهيد، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره والجهاد لأعدائه، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد علىٰ النصارىٰ فأنجدهم، وجرت فصول كثيرة إلىٰ أن أخذت مصر من بني عبيد أخذها صلاح الدين يوسف بن شادي وخطب بها لبني العباس، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة.

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام كانوا منصورين علىٰ الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور سلط عليهم الكفار... وكان بعض المشايخ يقول: هولاكو

للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبني إسرائيل، وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين ظهور الإلحاد والنفاق والبدع...)[1].

❖ ثانيًا: نصوص الفتاوى والمواقف.. والتأويلات الموجهة:

نورد هنا عددًا من النصوص المتعلقة بفتاوىٰ ومواقف ابن تيمية من الرافضة في سياق صراع المسلمين مع مغول إيران، والتي رجع إليها الكاتب، وأوَّلَها بما يسند الدعاوىٰ التي ادعاها، ثم نتبعها بالمناقشة.

• النص الأول:

نقل الكاتب من فتيا ابن تيمية الثانية في التتار قوله: (فقد سَلبوا[2] من ذراري المسلمين ما يُقال إنه مائة ألف أو يزيد عليه، وفعلوا ببيت المقدس، وبجبل الصالحية، ونابلس، وحمص، وداريًّا وغير ذلك من القتل والسبي ما لا يعلمُه إلا الله، حتىٰ يُقال: إنهم سبوا من المسلمين قريبًا من مائة ألف، وجعلُوا يفجُرون بخيار نساء المُسلمين في المساجد وغيرها، كالمسجد الأقصىٰ، والأموي، وغيره، وجعلوا الجامع الذي بالعقيبة دكًّا)[3]، ونقل من تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) أنَّه أسر من الصالحية نحو الأربعة آلاف، وقتل نحو الأربعمئة، وهذا مما ذكره ابن كثير نقلًا عن البرزالي[4]، وقال: (أثَّرَ ذلك الموقف في ابن تيمية من التتار تأثيرًا جذريًّا، إذ كانت منطقة الصالحية الحنبلية من أكثر مناطق دمشق ضحايا لعبث التتار... ويبدو أن بعض قادة التتار الذين حملوا علىٰ الصالحية وعذبوا الحنابلة

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٧٧-١٧٩).
(٢) كذا، وفي «مجموع الفتاوى»: (سبوا).
(٣) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٩-٥٢٠).
(٤) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ٤٢).

فيها بوصفها مركزهم كان من الشيعة)[1].

المناقشة: يركز الكاتب في بيان المؤثرات الجذرية في موقف ابن تيمية من التتار علىٰ ما فعله التتار في الصالحية بالحنابلة، مُهمِلًا الأوجه العديدة التي ذكرها ابن تيمية في فتاويه لخروج التتار علىٰ شرائع الإسلام، وهي المؤثر الجذري في إفتائه بوجوب قتالهم، ومن تلك الأوجه التي ذكرها: عدم التزامهم بتحريم دماء المسلمين وأموالهم، إلا أن ينهاهم ملكهم عن تركها[2]، وقد نتج عن ذلك ما فعلوه بالصالحية وداريًّا وبيت المقدس ونابلس وغير ذلك مما ذكره ابن تيمية، وعدم التزامهم تحريمَ المحرمات التي لا عذر لأحدٍ في جحود تحريمها، كالخمر، أو الزنا، أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم[3]، وعدم التزامهم إقامة الفرائض التي لا يعذر أحدٌ بجحد وجوبها، فهم لا يلتزمون حج بيت الله، والغالب عليهم عدم التزام إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة[4]، وهم يقاتلون علىٰ ملكهم وطاعتهم، ولا يلتزمون قتال الكفار، ولا يوجبون الجزية[5]، وهم يحكمون بالياسا وبحكم الجاهلية، ولا يلتزمون الحكم بما أنزل الله[6]، كما عد الشيخ إظهار خربندا للرفض وجهًا جديدًا من أوجه خروجهم عن شرائع الإسلام الموجبة لقتالهم، وذلك فيما كتبه من فتاوىٰ بشأنهم في عهده[7].

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٢-١٣٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٠٣، ٥١٠).

(٤) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٠)، وانظر في نفس المعنى «فتوى ملطية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩).

(٥) انظر في نفس المعنى «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٠-٥١١، ٥٢٠-٥٢١)، و«جامع المسائل» (٧/ ٤٣٩)، و«الفروع» لابن مفلح (١٠/ ٣١٦-٣١٧).

(٦) «الفتيا الثانية في قتال التتار» ضمن «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢٣).

(٧) «الفتيا الثانية في قتال التتار» في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١١)، «فتوى ملطية» ضمن «جامع المسائل»(٧/ ٤٣٩).

• **النص الثاني:**

نقل من رسالة ابن تيمية التي كتبها بعد حملة قازان الثانية سنة ٧٠٠هـ قوله في التتار: (أصابوا من البليدات بالشمال مثل تيزين، والفوعة، ومعرة مصرين وغيرها ما لم يكونوا وطئوه في العام الماضي، وقيل: إن كثيرًا من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم، بسبب الرفض وأن عند بعضهم فرامين منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالمًا بلي به). وقال: (لا يطمس ابن تيمية واقعة أن شيعة الشمال كانوا ضحايا لغازان...، وهذا الموقف الذي عبَّر عنه ابن تيمية في لحظة التحشد لطرد التتار كان امتدادًا لابن تيمية الأول الذي ميز موقفه الوسطي من الشيعة بالاستقلال عن الروافض والنواصب)[١]، وهذا الموقف الوسطي يعبر عنه لدىٰ الكاتب كلامه في (العقيدة الواسطية) الذي (تبرأ فيه من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة، ومن طريقة النواصب الذي يؤذون أهل البيت بقول أوعمل)[٢]، في حين يرىٰ الكاتب أن لابن تيمية كلامًا بعد ذلك بدأت تفوح منه رائحة الناصبية[٣].

وسمات ابن تيمية في مرحلته الأولىٰ التي يذكرها الكاتب، ويسميه فيها: (ابن تيمية الأول)، إضافة إلىٰ تبرُّئِه من النواصب، أنه كان واعظًا ومُدَرِّسًا للتفسير، ومُنشَغِلًا بتأصيل العقيدة السلفية، والرد علىٰ الأشاعرة فقط، وغاب عنه الانشغال بالردِّ علىٰ الشيعة، فلم يكن عداؤه للشيعة عداء تكوينيًّا وعلىٰ طول الخط[٤].

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٩).
(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٥).
(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٦).
(٤) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٦-١٣٧).

المناقشة: أكبر ما كتبه الشيخ في الرد علىٰ الأشاعرة كـ«بيان تلبيس الجهمية»[1]، و«الرد علىٰ الاعتراضات المصرية»، و«التسعينية»، و«النبوات»، و«الصفدية»، و«درء تعارض العقل والنقل»، و«الإيمان»، إنما كان في مرحلة تلي تاريخيًّا المرحلة التي يسميها الكاتب مرحلة ابن تيمية الأول، فكلها بعد طلبه إلىٰ مصر سنة ٧٠٥هـ، وللتعرف علىٰ نشاطات ابن تيمية وأصحابه المتنوعة قبل ذلك بدمشق يحسن مراجعة رسالة «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار» للشيخ عماد الدين الواسطي رحمه الله تعالىٰ.

والقول بأن (ابن تيمية الأول) لم يشتغل بالرد علىٰ الشيعة، وإنما انشغل بالرد علىٰ الأشاعرة[2]؛ فإذا كان ابن المطهر الحلي قد صنف كتاب «منهاج الكرامة» لخربندا بعد إظهاره التشيع، فهل يُعقَلُ أن يرد عليه ابن تيمية في عهد قازان قبل أن يؤلفه، وقبل أن يأتي خربندا ويتشيع؟ فلا مدلول لتأخر تصنيفه لمنهاج السنة علىٰ تقلب أو تبدل، فإنما كان الشيخ فيما يكتبه يعالج مشكلة كل وقت بحسبه.

وموقف ابن تيمية المتوسط بين طريقة الروافض والنواصب هو الذي بقي عليه طيلة عمره، سواء لما كتب الواسطية، أو لما كتب تلك الرسالة بعد حملة قازان سنة ٧٠٠هـ، والتي تحدث فيها عن بعض البليدات في الشمال السوري التي قيل إن لدىٰ أهلها ميلًا للرفض يختارون بناء عليه دولة التتار ويباطنونهم، أو بعد ذلك، أو قبله، وليس لهذا النص أي خصوصية بين نصوص ابن تيمية في الرافضة،

---

(١) ادعى الكاتب (ص٢٣٢) أن ابن تيمية ربط بين الصوفية والشيعة وبين التتار في مرحلة استعار الصراع المملوكي الإيلخاني، ثم أدخل ابن تيمية -بزعمه- في ذلك الربط الأشاعرة المتصوفة بتأليفه «بيان تلبيس الجهمية» الذي كان ردًّا على الفخر الرازي الصوفي الأشعري، والواقع أن سبب تأليف ابن تيمية لهذا الكتاب ذكره في مقدمته (١/ ٦-٩)، وهو متعلق بسجالاته مع مخالفيه في وقت محنته، ولا صلة لسبب تأليفه بالصراع المملوكي الإيلخاني أصلًا.

(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٧).

أعني أنه لا يحمل أي دلالة علىٰ تغير وتقلب موقف ابن تيمية منهم، ولم يأتِ الكاتب بحرف واحد يعارض ما جاء في العقيدة الواسطية، أو يدل علىٰ ناصبية، أو ميل إليها[1]، وما دراية الكاتب بحقائق المذاهب في مسألة الصحابة واختلاف الناس فيها؟ فمن يرمي ابن تيمية بالناصبية إما أنه لا يعرف ابن تيمية، وإما لا يعرف ما هو النصب.

- **النص الثالث:**

نقل الكاتب نصوصًا من فتوىٰ ابن تيمية الأولىٰ في التتار، سواء فيما يتعلق بسؤال: كيف يُقاتَلُ التتارُ مع نُطقِهم بالشهادتين؟ أو سؤال: كيف يُقاتَل مع المماليك مع وجود فجورٍ في أمرائهم وعساكرهم؟ وهما السؤالان اللذان أجاب عنهما ابن تيمية في فتياه هذه، وتحدث الكاتب عن ملابسات إصدار هذه الفتوىٰ فقال: (لا يمكن تحديد الزمن الدقيق لإصدار فتوىٰ الطائفة الممتنعة، لكن يمكن ترجيح أن ابن تيمية أصدرها بين تلك الفترة، والفترة التي وقعت فيها المراسلات بين السلطان غازان -الذي تحدث بوصفه مسلمًا غيورًا علىٰ المسلمين- والسلطان الناصر بعد صد العودة الثانية علىٰ التتار، وجرىٰ جدل حولها بين أمراء الناصر وأعيانه وفقهائه، وانتهىٰ بالرد علىٰ غازان، والاستعداد للقتال، وفي هذه الحالة تكون فتوىٰ الطائفة الممتنعة قد جاءت لشرعنة رد السلطان الناصر ومنحها مضمونًا شرعيًّا، فمن وجهة النظر الشرعية في هذه الفتوىٰ يمكن تطبيق بعض جوانب الطائفة الممتنعة علىٰ السلطان الناصر وأمرائه أنفسهم في نظر غازان كذلك، ولهذا سارع ابن تيمية في نص الفتوىٰ إلىٰ القول: (ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو من كل إمامٍ برًّا كان أو فاجرًا؛ فإن الله يؤيد هذا الدين

---

(١) انظر كتاب «موقف ابن تيمية من النواصب» نشر مركز التأصيل.

بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار، أو مع عسكرٍ كثيري الفجور؛ فإنه لا بد من أحد أمرين:

إما ترك الغزو معهم؛ فيلزمُ من ذلك استيلاء الأفجَرين الذين هم أعظم ضررًا في الدين والدنيا.

وإما الغزو مع الأمير الفاجر؛ فيحصل من ذلك دفع الأفجرين، وإقامة أكثر شرائع الإسلام، وإن لم تكن إقامة جميعها، وهذا هو الواجب في هذه الصورة)[1].

كما تحدث الكاتب عن البنية الفقهية لهذه الفتوىٰ، فبعد أن سرد نصوصًا يتحدث فيها ابن تيمية عن أوجه خروج التتار عن شرائع الإسلام ذهب إلىٰ أنه (من الواضح أن بلورة مفهوم الطائفة الممتنعة هو بديل من التكفير الذي يتسم بقواعده التمييزية بين تكفير المطلق وتكفير المعين)[2].

وهذه الفتوىٰ لدىٰ الكاتب كانت في مرحلة (ابن تيمية الثاني) الذي يصفه بالمشارك بفاعلية في الحياة الاجتماعية والسياسية، والمتطلع إلىٰ العلاقة العضوية بين الفقيه والسلطان.

المناقشة: كانت علاقة ابن تيمية بولاة الأمور من أمراء المماليك في وقته - ممن كانت له علاقة بهم- سواء في تقديم المشورة لهم، أو الإفتاء لهم، أو في المشاركة معهم في القتال، أو مراسلتهم، أو مخاطبتهم المباشرة، أو حثهم وتحريضهم علىٰ الجهاد؛ تلك العلاقة كانت قائمة علىٰ التعاون والمشاركة علىٰ الطاعة في تلك الشؤون وغيرها، إذ كان من فقهه أنَّ (وجود الظلم والمعاصي من

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤١).
(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٢).

بعض المسلمين، وولاة أمورهم، وعامَّتِهم؛ لا يمنع أن يُشارَكَ فيما يعمله من طاعة الله، وأهل السنة لا يأمرون بموافقة ولاة الأمور إلا في طاعة الله، لا في معصيته، ولا ضرر علىٰ من وافق رجلًا في طاعة الله، إذا انفرَدَ ذلك عنه بمعصيته لم يَشْرُكْه فيها، كما أن الرجل إذا حج مع الناس، فوقف معهم، وطاف؛ لم يضره كونُ بعض الحجاج له مظالم وذنوب ينفرد بها، وكذلك إذا شهد مع الناس الجمعة، والجماعة، ومجالس العلم، وغزا معهم؛ لم يضره أن يكون بعض المشاركين له في ذلك ذنوب يختص بها.

فولاةُ الأمور بمنزلة غيرهم: يُشارَكون فيما يفعلونه من طاعة الله، ولا يُشارَكون فيما يفعلونه من معصية الله)[1].

وفي أكثر من موطن كان الشيخ يُذكِّر بأساس مشروعية المماليك السياسية، وهو حماية حوزة الدين والذب عن بيضة الإسلام، إذ سطع نجم جهادهم بصدهم التتار في عين جالوت، فيقول مخاطبًا السلطان الناصر: (فمن تَركَ الجهادَ عذَّبه الله عذابًا أليمًا بالذُّلِّ وغيرِه، ونَزَعَ الأمرَ منه فأعطاه لغيره، فإنَّ هذا الدِّين لمن ذَبَّ عنه)[2]، ويخاطب السلطان وأعيان دولته في القاهرة بقوله: (إن كُنتُم أعرضتُم عن الشام وحمايَتِه، أقمنَا له سُلطانًا يحوطُه، ويحميه، ويستغلُّه في زمن الأمن)[3]، ويقول لهم: (إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله، والذب عنهم، فإن الله تعالىٰ يقيم لهم من ينصرهم غيركم، ويستبدل بكم سواكم)[4].

---

(١) (منهاج السنة النبوية) (٤/ ١١٣ - ١١٤).
(٢) «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ضمن «جامع المسائل» (٥/ ٣٠٠).
(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٧/ ٧٣٨).
(٤) «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٤/ ٥١٠).

قال ابن رجب: (وقد عُرِض عليه قضاء القضاة قبل التسعين، ومشيخة الشيوخ، فلم يقبل شيئًا من ذلك، قرأت ذلك بخطه)[1]، ولو كان متطلعًا لعلاقة عضويَّةٍ بالسلطان لسارع للاستجابة لهذا العرض، وكان غاية ما يرجوه.

وفتيا ابن تيمية في التتار لم تكن وفق الملابسات التي افترضها المؤلف، وبيان ذلك من أوجه:

الأول: أن تاريخ الفتوىٰ ليس بالضرورة هو الوقت الذي رجحه الكاتب، وغاية ما يمكن قوله إنها كتبت في عهد قازان، بعد احتلال دمشق سنة ٦٩٩هـ، فلم يكن ما ذكره الكاتب من أنها كتبت في ظروف المراسلات بين قازان والناصر صحيحًا بالضرورة.

الثاني: أن التناغم مع جواب الناصر لقازان في تلك المراسلات لا يصلح أن يكون غاية للفتوىٰ، إذ الناصر لم يقُل لقازان: إنني سأقاتلك لأنك خارج عن شرائع الإسلام، ليجيبه قازان: وأنت كذلك خارج عن شرائع الإسلام، فيقع الناصر في مأزق، ويحتاج لترقيع؛ يَفترض الكاتب أن ابن تيمية هو من سيتولىٰ مهمته، لكونه إذ ذاك يسعىٰ أن يكون مفتيًا للسلطان -بحسب زعمه-، والوثائق تدل علىٰ أن المسألة التي دارت حولها تلك المراسلات بين الناصر وغازان لم تكن متعلقة بقضية الامتناع عن إقامة شرائع الإسلام التي أناط بها ابن تيمية وجوب قتال التتار، وإنما تتعلق بمهاجمة المماليك لماردين سنة ٦٩٨هـ، والتي كانت ذريعة التتار لاحتلال الشام، كما هو موثق محفوظ[2].

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٤٩٨).

(٢) انظر رسالة قازان في «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» لبيبرس الداودار (ص٣٥٢)، وجواب الناصر عليها فيه (ص٣٥٧).

الثالث: خاطب ابن تيمية التتار مباشرة لما غَزَوُا الشام، وأقام عليهم الحجة في عدد من المسائل، حين بين لقازان مناقضة ما يفعله لدعوىٰ انتسابه للإسلام، وحين خاطب بولاي القائد العسكري التتري، وبين له غلطه في فهم موقف أهل الشام من أهل البيت، وحين خاطب من خاطبه من التتار حين اعتقدوا أحقية قازان بالأمر من السلطان الناصر لكون أجداده ملوكًا، وكون أجداد السلطان عبيدًا، فلو افتُرض أن ابن تيمية سيمارس الشرعنة والتبرير لرد الناصر علىٰ قازان، فالأحرىٰ أن يرسله الناصر رسولًا مباشرًا إلىٰ قازان، يكلمه في ذلك، وإلا فلا فائدة لجواب في فتوىٰ لا تصل قازان أصلًا.

أما قول الكاتب إن فتيا الطائفة الممتنعة بديل عن التكفير، فإن كان لا بد من توصيف فتيا الطائفة الممتنعة بالبديلة، فهي بديلة عن فتيا البغاة، أي إن الامتناع عن شرائع الإسلام الذي جاءت النصوص بإناطة القتال به كخبر قتال الصديق للمرتدين، وأخبار قتال الخوارج، ذلكم المناط الذي نزله ابن تيمية علىٰ من نزله من الطوائف الممتنعة من التتار والكسروانيين والنصيرية وغيرهم، يقابِلُه مناط الامتناع عن طاعة الإمام، والذي لا يستقل بالتأثير في وجوب القتال، كما قال ابن تيمية: (وأما القتال لمن لم يخرج إلا عن طاعة إمام معين فليس في النصوص أمر بذلك)[1]. وقد ركز ابن تيمية كثيرًا علىٰ التفريق بين المناطين.

وقد أفتىٰ الشيخ في بعض الطوائف الذين يكفرهم رأسًا بأنهم طوائف ممتنعة، يُقَاتَلُون لامتناعهم عن إقامة شرائع الإسلام، كفتواه في النصيرية في

(١) الفتوى في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥٣-٥٥٥)، وخبر تلك الحادثة في «تاريخ البرزالي» (٤/ ٢٩٨-٣٠٠)، و«نهاية الأرب» للنويري (٣٢/ ٢١١-٢١٣).

إِثر ادعاء بعضهم المهدية سنة ٧١٧هـ[١]، فدعوىٰ أن فتيا الطائفة الممتنعة بديل للتكفير باطلة من هذا الوجه.

• **النص الرابع:**

نقل الكاتب من رسالة ابن تيمية إلىٰ ملك قبرص قوله: (عند المسلمين من الرجال الفداوية الذين يغتالون الملوك في فرشها وعلىٰ أفراسها، مَنْ قد بلغ الملك خبرهم، قديمًا وحديثًا، وفيهم الصالحون الذين لا يردُّ الله دعواتِهم، ولا يُخيِّبُ طلباتِهم، الذين يغضب الرب لغضبهم، ويرضىٰ لرضاهم)[٢]، ووصفه بأنه نص يعبر عن موقف إيجابي من فداوية الإسماعيلية[٣]، وذهب إلىٰ أن ابن تيمية الثاني لم يكن يذم الفرق المخالفة للسنة علىٰ أساس الموقف من طبيعة مذاهبهم الاعتقادية بالضرورة، وإنما علىٰ أساس مدىٰ استعدادهم لمواجهة التتار)[٤]، وقال في موضع آخر: (موقف ابن تيمية من الإسماعيلية مفهوم من زاوية موقفه من الفرق العرفانية، لكن لم يكن مستقلًّا عن تدخلات السياسة واستبطان ابن تيمية لها في موقفه الفتوي، إذ أدت تغيرات العلاقة المملوكية الإسماعيلية في تلك الأعوام المحددة من مرحلة ابن تيمية الثالث دورًا أساسًا في موقفه من الإسماعيلية، فابن تيمية الثاني كان قد أهمل الخلافات البنيوية الاعتقادية بين أهل السنة والإسماعيلية لأسباب سياسية، وقبل حملة الكسروان الثالثة، كان ابن تيمية

---

(١) نشرها الشيخ ابن قاسم رحمه الله في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٥٣-٥٥٥)، وخبر الحادثة في «المقتفي على الروضتين» للبرزالي (٤/ ٢٩٨-٣٠٠)، و«نهاية الأرب» للنويري (٣٢/ ٢١١-٢١٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٢٢-٦٢٣).

(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٤).

(٤) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٥).

الثاني حتىٰ قبيل حملة كسروان الثالثة يعد الإسماعيلية فداوية المسلمين ذاكرًا إياهم قبل ذكره الصالحين الذين يرضىٰ الله لرضاهم ويغضب لغضبهم...)[1].

المناقشة: كان إنكار ابن تيمية علىٰ الفرق التي يسميها الكاتب العرفانية من الاتحادية واليونسية والسبعينية وغيرهم، علىٰ تعدد مراتب ذلك الإنكار، كان إنكارًا دينيًّا، وليس لمجرد عدم استعدادهم لمواجهة التتار، وهو من الناحية التاريخية إنكارٌ قديم، سبق سنة ٧٠٠هـ، التي يجعلها الكاتب بدايةً لمرحلة ابن تيمية الثاني.

أما الفداوية فهم بقايا الإسماعيلية القرامطة، يقول ابن خلدون: (ولما استفحل أمر التتر سار هولاكو أعوام الخمسين والستمائة من بغداد وخرَّب قلاعهم -يعني الإسماعيلية-، وزحف الظاهر بعد ذلك إلىٰ قلاعهم التي بالشام، فخرَّب كثيرًا منها، وطوَّع ما بقي منها، وصارت مصيات وغيرها في طاعته، وانقرَض أمرُهم، إلَّا مُغتَالينَ يستعملهم الملوك في قتل أعدائِهم علىٰ البعد غدرًا، ويسمون الفداويَّة، أي الذين يأخذون فدية أنفسهم علىٰ الاستماتة في مقاصد من يستعملهم، والله وارث الأرض ومن عليها)[2].

وحديث الكاتب عن الموقف الإيجابي لابن تيمية من الفداوية، والذي تلاه موقف سلبي، ليصل بذلك إلىٰ تقلب ابن تيمية في موقفه من الفرق الباطنية، فالرد عليه من جهات:

الأول: أن الحديث عن طوائف الباطنية قبل القدرة عليها ليس كالحديث عنها بعد ذلك، فهم بعد القدرة عليهم كانوا لا يبقون إلا بإظهارهم الإسلام والتزامهم شرائعه، فلو حصل موقف إيجابي منهم فإنما يكون في حالهم الثانية لا الأولىٰ.

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٢٩).

(٢) «تاريخ ابن خلدون» (٤/ ١٢٦).

الثاني: أن ابن تيمية لم يسمِّهم فداوية المسلمين -كما يقول الكاتب-، وإنما ذكر أنهم عند المسلمين، أي: مستعملون لمقاصد المسلمين.

الثالث: أن مرجع الضمير في قوله: (وفيهم الصالحون الذين لا يردُّ الله دعواتِهم...) إنما هو للمسلمين، لا للفداوية.

أما دعوىٰ استبطان ابن تيمية للتدخلات السياسية فالرد عليها من وجهين أيضًا:

الأول: مرَّ معك كلام ابن خلدون فيما حصل للإسماعيلية، وأيُّ علاقات تلك التي بقيت بعد قضاء المماليك عليهم وتطويع من بقي منهم؟ فهي دعوىٰ مبنية علىٰ تصور وهمي عن العلاقات الإسماعيلية المملوكية.

الثاني: أنها مبنية علىٰ القول بأن تلك العلاقات المتوهمة كانت مستبطنة لدىٰ ابن تيمية عند حديثه عن الفداوية، فالفداوية كما رأيت في قول ابن خلدون في وصفهم: (يأخذون فدية أنفسهم علىٰ الاستماتة في مقاصد من يستعملهم)، فهم محض مرتزقة، وأدوات لمن يستعملهم، ثم إن تسمية ابن تيمية للفداوية باسمهم في هذه الرسالة هو كتسميته قازان بغازان، وتسميته بولاي بمولاي، لا يقتضي مدحًا ولا ثناء، ولا إهمالًا للخلافات البنيوية الاعتقادية.

- **النص الخامس:**

نقل الكاتب من تاريخ ابن كثير مما يتعلق بحملة المماليك علىٰ جبل كسروان في نهاية سنة ٦٩٩هـ، قولَه: (فلما وصلوا إلىٰ بلادهم جاء رؤساؤهم إلىٰ الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستتابهم وبين للكثير منهم الصواب، وحصل بذلك خير كثير، وانتصار كبير علىٰ أولئك المفسدين، والتزموا ردَّ ما كانوا أخذوه من أموال

الجيش، وقرر عليهم أموالًا كثيرة يحملونها إلىٰ بيت المال، وأقطعت أراضيهم وضياعهم، ولم يكونوا قبل ذلك يدخلون في طاعة الجند، ولا يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله)[1]، وقال: (ما حَكَم الحملة هو المتغير المستقل المتعلق بدواعٍ أمنية سياسية إستراتيجية من أجل إخضاع الكسروان للسيطرة المملوكية، وصد الغارات الصليبية المحتملة، وجبي الضرائب منها، في شروط الشح المالي لتمويل الخزانة، ولمواجهة العودة الثانية للتتار التي أخذت علاماتها تتبدىٰ، يشير ابن كثير الذي كتب سرديته في وقت لاحق، وهو من تلامذة ابن تيمية، إلىٰ ثانوية التركيبة المذهبية الرافضية في الحملة، وأنه كان -بلغة المتغيرات- متغيرًا تابعًا بسيطًا وليس متغيرًا مستقلًا...)[2]. وقال: (إن المؤرخين الكبار المعاصرين للحملة -كالذهبي- لم يقولوا إنها حصلت لأن أهل الكسروان روافض جهلة)، والكاتب في ذلك يقصد دفع معارضة ما افترضته من أن ابن تيمية في هذه المرحلة (ابن تيمية الثاني) لم يكن يذم الفرق المخالفة للسنة علىٰ أساس الموقف من طبيعة مذاهبهم الاعتقادية بالضرورة، وإنما علىٰ أساس مدىٰ استعدادهم لمواجهة التتار[3].

المناقشة: نصَّ مُؤرِّخ الشام علم الدين البرزالي علىٰ أساسية المذهبية الفاسدة في أسباب الحملة، فقال: (وتوجه نائب السلطنة الأمير جمال الدين الأفرم بعسكر دمشق في العشرين من شوال يوم الجمعة (٢٠/ ١٠/ ٦٩٩هـ) وانضاف إليهم جمع من الفلاحين ورجالة القرىٰ وتوجهوا بأجمعهم إلىٰ جبال الجرد والكسروان لغزوهم وقتالهم لما كانوا أجرمُوه من أذىٰ الجيش عقيب الكسرة، وأخذِ عُدَدِهم،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٧/ ٧٣٠).

(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٥٠).

(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٥).

وقتلِ بعضِهم، والتعرُّض لهم، **ولِمَا هُمْ عليه من العقائد الفاسدة والضلالات القبيحة**، فحصل بحمد الله تعالىٰ إذلالُهم والانتصارُ عليهم)[١].

أما قول ابن كثير: (ولم يكونوا قبل ذلك... يلتزمون أحكام الملة، ولا يدينون دين الحق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله)، فليس فيه النظر إلىٰ العامل الديني علىٰ أنه تابع، ولا يقتضيه كلامه بوجه من أوجه الدلالة اللغوية أو العرفية. ولا يلزم لنفي التابعية أن ينص علىٰ أن قتالهم كان لأنهم روافض أو دروز، لأن عدم التزام أحكام الملة وصف أعمُّ، يدخل فيه إظهار الرفض وغيره. علىٰ أن الكاتب حذف الجملة الأخيرة من كلام ابن كثير وهي قوله: (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله).

• **النص السادس:**

نقل من «العُقُود الدُرِّيَّة» قولًا يقوله بعض الناس في ذلك الوقت في المقارنة بين نهب الصالحية وفتح كسروان: (جبل الصالحية لما استولت الرافضة عليه في حال استيلاء الطاغية قازان أشار بعض كبرائهم بنهب الجبل، وسبي أهله، وقتلهم، وتحريق مساكنهم، انتقامًا منهم لكونهم سُنيَّة -وسمَّاهم ذلك المُشير نواصب-، فكان ما كان من أمر جبل الصالحية بذلك القول وتلك الإشارة، فكُوفِئ الرافضة بمثل ذلك، بإشارة كبيرٍ من كُبراء أهل السنة، وزنًا بوزن، جزاء علىٰ يد ولي الأمر وجيوش الإسلام)[٢]. وقال: (انفرد ابن عبد الهادي بهذه الرواية -أعني مشورة ابن تيمية بغزو كسروان-، في حين لا ترد في كتابات تلامذة ابن تيمية وأصحابه المباشرين، إذًا؛ يحدد ابن عبد الهادي علىٰ مستوىٰ العوامل أو الدوافع المباشرة سببًا انتقاميًّا مذهبيًّا دمشقيًّا أساسًا لانخراط ابن تيمية في الحملة، هو الاستجابة

---

(١) «المُقتفي على الروضتين» (٣/ ١٠١).

(٢) «العقود الدرية» (ص٢٣٢).

لبعض كبراء دمشق للانتقام من شيعتها بالرد علىٰ الشيعة في كسروان لما حصل لهم في جبل الصالحية إبان سيطرة التتار علىٰ دمشق، ويقلب المتغير التابع الأيديولوجي المذهبي إلىٰ متغير مستقل)[1].

المناقشة: جواب ما ذكره من وجوه:

الوجه الأول: النص ليس فيه أن ابن تيمية انخرط في الحملة استجابة لبعض كبراء دمشق للانتقام من شيعتها بالرد علىٰ الشيعة في كسروان لما حصل لهم في جبل الصالحية، وإنما فيه أن الرافضة كوفِئُوا بمثل ما فعلوه بالصالحية، بإشارة كبيرٍ من كُبراء أهل السنة، والمقصود بهذا الكبير هو ابن تيمية، فليس في النص حديث عن كبير آخر يستجيب له ابن تيمية، ولا حديث عن سبب انخراطه في الحملة.

الوجه الثاني: إشارة ابن تيمية علىٰ المماليك بتبديد شمل الكسروانيين بعد القدرة عليهم ذكرها هو بنفسه، حيث يقول: (...نهيتُهم عن قتلِهم، وعن سبيهم، وأنزلناهم في بلاد المسلمين مُتفرِّقين؛ لئلا يجتَمِعُوا)[2]، (وفُرِّقُوا في البلاد بين أهل السنة والجماعة، بحيث لا يكون لأهل البدعة اجتماع علىٰ خلاف الطاعة، وخربت وحرقت مساكنهم والديار، وقطعت زروعهم والأشجار، من العنب الكثير، والتوت الغزير، والجوز واللوز، وغير ذلك)[3]، وهذه هي المكافأة التي تحدَّث عنها الناس في النقل الذي يورده الحافظ ابن عبد الهادي، فهو لم ينفرد بشيء.

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٦٦).

(٢) «منهاج السنة» (٥/ ١٥٨ -١٥٩).

(٣) «رسالة ابن تيمية إلى عز الدين عبد العزيز ابن تيمية في شأن غزوة الكسروان» ضمن «جامع المسائل» (٩/ ٤٧٦).

الوجه الثالث: الحكم في الباطنية والرافضة بعد القدرة عليهم بما يضعفهم ويبدد شملهم معلوم من فتاوىٰ الشيخ، وهو متكرر[١]، وفيه الاقتداء بسيرة أبي بكر رضي الله عنه في المرتدين[٢]، فلو سلمنا للكاتب ما ادعاه -في موطن لاحق[٣]- من أن ابن تيمية أفتىٰ في النصيرية بنحو هذا بدافع سياسي، تناغمًا مع إجراءات الناصر، فما جوابه عن سائر المواطن التي ذكر فيها ابن تيمية هذا الحكم، ومنها هذا الموطن؟

• **النص السابع:**

قال الكاتب تحت عنوان (تطور معرفة ابن تيمية بالفرق الباطنية، وإعادة تعريف مذهبية كسروان نصيريًّا)، بعد أن ذكر أن تركيز ابن تيمية علىٰ النصيرية بدأ بعد سنة ٧١٢هـ: (أعاد ابن تيمية -وفق ما يورد تلامذته- تعريف البنية الكسروانية إبان الحملة المملوكية الثالثة بأنها لم تكن إلا بنية نصيرية، وليست مجرد بنية إمامية إثنىٰ عشرية رافضية، وهذا ما يبرز لدىٰ تلميذه ابن عبد الهادي...)، ثم نقل من «العُقُود الدُّرِّيَّة» قول ابن عبد الهادي في فتح الكسروان سنة ٧٠٥هـ: (نصَرَهُم الله تعالىٰ علىٰ حزبِ الضلال من الرَّوافض والنُّصيرية وأصحاب العقائد الفاسدة، وأبادهم الله من تلك الأرض)، ثم قال: (بعد أن كان ابن تيمية يعد النصيرية من جملة القاطنين بين الرافضة في كسروان)[٤]، وهو يعني بذلك قول ابن تيمية في رسالته للسلطان الناصر أن من الكسروانيين (خلقًا كثيرًا لا يقرون بصلاة، ولا

---

(١) «الرسالة في أحكام الولاية» ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٢٠٩-٢١٠)، «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٥٨).

(٢) انظر «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/ ٣٠٣).

(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢١٣).

(٤) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٢٠).

صيام، ولا حج، ولا عمرة، ولا يحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير، ولا يؤمنون بالجنة والنار، من جنس الإسماعيلية والنصيرية والحاكمية والباطنية، وهم كفار أكفر من اليهود والنصارىٰ بإجماع المسلمين)[١].

المناقشة: الرد علىٰ دعوىٰ التعارض بين هذين النصين، وجعله دليلًا علىٰ مرور الشيخ في مرحلتين في معرفته بالفرق الباطنية من وجوه:

الأول: أن النص الأول لابن عبد الهادي، والثاني لابن تيمية، والتناقض إنما يكون في كلام الشخص نفسه، لا بين كلامه وكلام تلميذه.

الثاني: أن النص الذي نقله عن ابن عبد الهادي هو للإمام البِرْزالي[٢]، وابن عبد الهادي كثيرًا ما ينقل منه.

الثالث: لا دليل علىٰ تأخر كتابة البرزالي لهذا النص عن سنة ٧١٢هـ، بل الظاهر لمن طالع تاريخ البرزالي أنه كان يدوِّن الأحداث في وقتها.

الرابع: أن النص لو افترض أنه كتب بعد تلك السنة، وأن كاتبه ليس ابن عبد الهادي، ولا البرزالي، وإنما ابن تيمية، فلا دلالة فيه علىٰ هيمنة النصيرية كهيمنة الرافضة علىٰ الجبل، وغاية ما فيه وجود الفئتين، وهذا مذكور في رسالة ابن تيمية للسلطان الناصر، فمدلول الموضعين غير متنافٍ ولا متعارض أصلًا.

• **النص الثامن:**

قال: (أعاد ابن تيمية -وفق ما يورد تلامذته- تعريف البنية الكسروانية إبان الحملة المملوكية الثالثة بأنها لم تكن إلا بنية نصيرية، وليست مجرد بنية إمامية إثنىٰ عشرية رافضية...، وهذا أساس التنميط أو الصورة الذهنية الاعتقادية الصلبة

(١) «العقود الدرية» (ص٢٤٦).

(٢) (المقتفي على الروضتين) (٣/ ٢٩٢-٢٩٣).

التي ستبقىٰ في كتب بعض المؤرخين والمصنفين اللاحقين مثل القلقشندي الذي أشار في صبح الأعشىٰ إلىٰ أن ابن تيمية كان يرىٰ أن: قتالَ النُّصيرية أولىٰ من قتال الأرمن، لأنهم عدو في دار الإسلام، وشر بقائهم أضر)[1].

المناقشة: الكاتب بتر هذا النص الذي نقله من القلقشندي، وأدىٰ بتره له إلىٰ خللين:

الأول: خلل في نسبة النص: حيث نسبه إلىٰ ناقله لا إلىٰ قائله، فالقلقشندي مجرد ناقل، وليس الكلام له، وإنما ينقل من كتاب (التعريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله العمري.

الثاني: خلل في مضمون النص: وتمام النص علىٰ هذا النحو: ذكر ابن فضل الله الدروز ثم قال: (ومن هؤلاء أهل كسروان ومن جاورهم، وكان شيخُنَا ابن تيمية -رحمه الله- يرىٰ أن قتالَهُم وقتالَ النُّصيرية أولىٰ من قتال الأرمن، لأنهم عدو في دار الإسلام، وشر بقائهم أضر)[2].

وبعد كشف الخلل، فالرد علىٰ القول بأن إعادة تعريف مذهبية كسروان نصيريًّا هي التي حُفِظت عن الشيخ في كتب المؤرخين من بعده يكون من وجهين:

الوجه الأول: ما صلة كلام ابن فضل الله بـ(تطور معرفة ابن تيمية بالفرق الباطنية، وإعادة تعريف مذهبية كسروان نصيريًّا)؟ فالذي يُعرِّفُ بمذهبية الكسروانيين هو صاحب النص ابن فضل الله، ولم ينسب لابن تيمية في ذلك شيئًا، وإنما نقل عنه مسألة الموازنة بين قتال النصيرية والدروز وبين قتال الأرمن فحسب.

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٢٢-٢٢٣).

(٢) «التعريف بالمصطلح الشريف» (ص١٦١).

الوجه الثاني: أن ابن فضل الله عرَّف بمذهبية أهل الكسروان علىٰ أنهم دروز، ولم يذكر أنهم نصيرية أصلًا، فلو سلمنا جدلًا أن النص لابن تيمية، أو أنه يأخذ قوة كونه له لكونه صادرًا من تلميذه؛ فيكون ابن تيمية أعاد تعريف مذهبية الكسروانيين درزيًّا لا نصيريًّا.

• **النص التاسع**:

يقول الكاتب لدىٰ حديثه عن فتح الكسروان: (ظل ابن تيمية مسكونًا كما يبدو لنا بمشكلات انخراطه في الحملة ونتائجها من الإبادة والترحيل، طوال عقد كامل علىٰ الأقل، بعد نهاية الحملة، كما نفهم من إشارة ابن الوردي والتقىٰ ابنَ تيمية في عام ٧١٥هـ/ ١٣١٦م، أي بعد نحو أحد عشر عامًا من الحملة الثالثة، أن ابن تيمية حكىٰ له (عن وقعته المشهورة في جبل الكسروان)، يبدو أن ابن تيمية كان مسكونًا بذلك لهواجسه، أو لنفسه بوصفه تقويًا...)[١].

المناقشة: قال ابن الوردي: (وكنت اجتمعت به رحمه الله تعالىٰ بدمشق سنة خمس عشرة وسبعمائة بمسجده بالقصاعين، وبحثت بين يديه في فقه وتفسير ونحو، فأعجبه كلامي، وقَبَّلَ وجهي، وإني لأرجو بركة ذلك، وحكىٰ لي عن واقعته المشهورة في جبل كسروان، وسهرت عنده ليلة، فرأيت من فتوته ومروءته ومحبته لأهل العلم ولا سيما الغرباء منهم أمرًا كثيرًا، وصليت خلفه التراويح في رمضان، فرأيت علىٰ قراءته خشوعًا، ورأيت علىٰ صلاته رقة حاشية تأخذ بمجامع القلوب)[٢].

واستدلال الكاتب بتحديث ابن تيمية لابن الوردي عن مشاركته في فتح الكسروان بعد سنوات من وقوعه علىٰ أنه كان مسكونًا بهواجس حول مشروعية ما قام به، الرد عليه من وجهين:

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٤٤).
(٢) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٢٧٦).

الأول: أن ذلك التحديث جرىٰ في سهرةٍ أخوية علمية، كما يظهر من سياق حديث ابن الوردي، يحدثه فيها بأخباره وما جرىٰ له، وهو دليل رضا بما جرىٰ، لا ضد ذلك، إذ هذا مقتضىٰ مجالس المؤانسة والمذاكرة والملاطفة.

الثاني: يقول الشيخ في رسالةٍ له كتبها في حبسته الأخيرة التي توفي فيها: (وأنا -ولله الحمد- لست في شدَّة ولا ضيقٍ أصلًا، بل في جهاد في دين الله وسبيله ونصر دينه، مثل ما كنت أخرج إلىٰ قازان، **وأغزو الجَبَلِيَّة**.

والجهاد لا بد فيه من اجتهاد: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٨])[1]، فإذا كان الشيخ يقول هذا قبيل وفاته، فأين تلك الهواجس التي يتحدث عنها الكاتب؟ لا ريب أن تلك الهواجس لم يكن لها وجود إلا في ذهنه.

❖ ثالثًا: التعامل مع مصادر ووثائق الفتاوى والمواقف.. العبث في ثوب التحقيق:

١- لا يدقق الكاتب في تواريخ الأحداث التي يتناولها، ولذا فهو يؤرخ لعبور التتار الفرات غازِيْن الشام للمرة الثانية بسنة ٦٩٩هـ[2]، في حين كان ذلك العبور سنة ٧٠٠هـ، ولو رجع لتاريخ أبي الفداء الذي عزا إليه في الموضع نفسه، لتبين له غَلَطُه[3].

٢- ثم يورد الكاتب كلام ابن كثير في تساؤل الناس عن كيفية قتال التتار من أي قبيل هو، وإجابة ابن تيمية عن ذلك في سياق حديثه عن حملة التتار الثانية علىٰ

---

(١) «جامع المسائل» (٩/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٨).

(٣) «المختصر في أخبار البشر» (٤/ ٤٥).

بلاد الشام سنة ٧٠٠هـ[1]، في حين كان ابن كثير قد أورده في سياق حديثه عن الحملة الثالثة، ووقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ، لا الحملة الثانية[2].

٣- لابن تيمية بشأن حملة التتار العسكرية علىٰ الشام سنة ٧٠٠هـ رسالةٌ خاصَّةٌ كتبها فرحًا بنصر الله تعالىٰ لعباده المؤمنين؛ بردِّه التتارَ بغيظهم لم ينالوا خيرًا، ويدور الكتاب علىٰ استخلاص العبر من تلك الحادثة، بمقارنتها بغزوة الأحزاب، وهذه الرسالة أثبتها ابن عبد الهادي في «العُقُود الدُرِّيَّة»[3]، ونشرها ابن قاسم في «مجموع الفتاوىٰ»[4]، والكاتب ينقل منها ما يدل علىٰ اعتدال موقف ابن تيمية من الشيعة[5]، عازيًا النقل إلىٰ «العُقُود الدُرِّيَّة»، وتلك المرحلة التي يسميها: ابن تيمية الأول، ثم ينقل منها ما يدل علىٰ تشدد ابن تيمية في موقفه من الشيعة والإسماعيلية[6]، عازيًا النقل إلىٰ «مجموع الفتاوىٰ»، وتلك المرحلة التي يسميها: ابن تيمية الثاني، وقد عرَفتَ أن الرسالةَ التي في «مجموع الفتاوىٰ» هي هي التي في «العُقُود الدُرِّيَّة»، فهل تغيُّر النشرات للكتب والرسائل يجعل كلًّا منها كتابًا مستقلًّا أو رسالة مستقلة؟ فيكون ما يفعله الكاتب -من هذا الوجه- عبثًا في ثوبِ التحقيق، وتكون حقيقة ما يدعيه الكاتب هنا أن ابن تيمية يتقلَّبُ بين موقفين من الشيعة في رسالة كتبها في وقت واحد.

٤- لا يعتمدُ الكاتب لدىٰ ذكره تاريخ كتابة بعض كتب وفتاوىٰ ابن تيمية علىٰ مُستندَاتٍ علمية دقيقة، وإنما يرجح بحسب رأيه، وقد تكرر ذلك في أكثر

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٠).
(٢) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٣).
(٣) (ص١٧٣-٢٢٦).
(٤) (٢٨/ ٤٢٤-٤٦٧).
(٥) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٣٩).
(٦) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٤٣-١٤٤).

من موطن، فمن ذلك: ترجيحه تصنيف ابن تيمية لكتاب الرد علىٰ الكسروانيين بعد الحملة علىٰ كسروان سنة ٧٠٤هـ، وهذا الكتاب مفقود ذكره ابن عبد الهادي وابن رشيق في مصنفات ابن تيمية، ما يعني ضعف احتمال العثور علىٰ أدلة لزمن كتابته لا من نصوصه نفسها، ولا من مخطوطته، ويبقىٰ إمكان تحديد زمان كتابته بواسطة كتاب آخر لابن تيمية معلوم التاريخ، وهذا ما لم يعتمد عليه الكاتب أيضًا.

٥- ومن ذلك أيضًا: أن ابن عبد الهادي ذكر في مصنفات ابن تيمية جواب سؤال ورد من الرحبة، فذكر الكاتب أن هذا الجواب هو الفتيا الثانية لابن تيمية في التتار، بناء علىٰ ظهور (اعتبارات نصية وحدثية)[١]، وكون الفتيا الثانية كتبت في ظروف حملة التتار علىٰ بلاد الشام التي حاصروا فيها قلعة الرحبة سنة ٧١٢هـ ليس دليلًا علىٰ أن أهل الرحبة هم من وجهوا لابن تيمية هذا السؤال، وقد وردت لابن تيمية مسائل من أهل الرحبة في قضايا مختلفة، وهي مطبوعة[٢]، وليس لها علاقة بحصار الرحبة، ولا بالصراع مع مغول إيران أصلًا.

٦- ومن ذلك أيضًا: أنه أرخ لفتوىٰ ابن تيمية في ماردين بظروف حملة الناصر علىٰ ملطية سنة ٧١٥هـ[٣]، دون أي دليل، إلا كون ماردين في ديار بكر التي غزاها المماليك في تلك الغزوة، ولابن تيمية في حملة ملطية فتوىٰ خاصة، ونصوص نقلها ابن مفلح أيضًا لم يرجع إليها الكاتب، مع كونها مطبوعة[٤].

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص١٩٩).

(٢) «جامع المسائل» (٧/ ٥-١٢١).

(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٠١).

(٤) نشره الدكتور علي العمران ضمن «جامع المسائل» (٧/ ٤٣٣-٤٤١)، والنصوص التي عند ابن مفلح في «الفروع» (١٠/ ٣١٦-٣١٧)

٧- لابن تيمية فتوىٰ تتعلق بحادثة وقعت سنة ٧١٧هـ ادعىٰ فيها بعض النصيرية أنه المهدي، وتبعته طائفة ممتنعة، سبقت الإشارة إليها، وقد اضطرب الكاتب اضطرابًا بينًا في تحديد الظروف السياسية لهذه الفتوىٰ، فبعد أن قرر أنها وقعت في عهد أبي سعيد، الذي يمثل مرحلة السلام المملوكي التتاري[١]، فإنه نقض قولَه الأول بعد صفحة واحدة فقط، وذهب إلىٰ أن الفتوىٰ جاءت في سياق الصراع بين المماليك (السنة)، والتتار (الشيعة)[٢]، ولو بقي علىٰ قوله الأول فإنه ينقض ما ذكره في هذا الكتاب من أن مرحلة ابن تيمية الثالث الأشد في عنفيته الفتوية ضد الفرق انتهت بالسلام المملوكي الإيلخاني[٣]، فإن هذه الفتوىٰ لدىٰ الكاتب من فتاوىٰ ابن تيمية العنفية، وكتبت بعد السلام المملوكي الإيلخاني.

❖ رابعًا: اغتيال شخصية ابن تيمية (ابن تيمية الضعيف):

من نافلة القول أن أعقب علىٰ تلك الصورة التي رسمها المؤلف لشخصية ابن تيمية في هذا الكتاب، وهي الشخصية الهشة الضعيفة، فهو شيخ استخدمه سلطان عصره أذكىٰ استخدام، ثم رماه جانبًا مع تلامذته مع انتهاء الدور الذي لعبه[٤]، وهو شيخ متردد متشكك فيما يقوم به، بحيث يشارك في الحملات العسكرية التي ينظمونها، ثم يبقىٰ سنوات بعد ذلك مسكونًا بهواجس حول مشروعية تلك المشاركة[٥]، إلىٰ غير ذلك مما ذكره، مما يُعلم بطلانه بديهةً.

---

(١) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢١٣).
(٢) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢١٤).
(٣) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٥٢).
(٤) «حملات كسروان في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية» (ص٢٥٢).
(٥) سبق إيراد كلام الكاتب في هذه النقطة آنفًا.

إن الشيخ قد شهد له الكبار في عصره... الموافق، والمخالف... بجرأته، وإقدامه، وثبات جَنَانه، وصار في ذلك نموذجًا يُحتذىٰ، ونجمًا به يُهتدىٰ، وهاك في ذلك طائفة من الشهادات:

١- يقول الشيخ أبو محمد ابن قوام رحمه الله تعالىٰ في وصف الشيخ: (وجرت له مع قازان، وقطلوشاه، وبولاي، أمور ونُوَب، قام ابن تيمية فيها كلِّها لله)[1].

٢- ويقول الذهبي في ترجمة الشيخ: (وأما شجاعته؛ فبها تُضرب الأمثال، وببعضها يتشبَّهُ أكابرُ الأبطال، فلقد أقامه الله في نوبة غازان، والتقىٰ أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد، وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبخطلوشاه، وببولاي، وكان قفجق يتعجب من إقدامه وجرأته علىٰ المغول)[2]، ويقول: (وأما شجاعته وجرأته وإقدامه؛ فأمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت)[3].

٣- كما أن شجاعة الشيخ في مخاطبة التتار مما سيستحضِرُه خصوم الشيخ في زمن امتحانهم إياه، حيث قالوا في وصفه: (هذا رجلٌ مِحجاجٌ خَصِم، وما له قلبٌ يفزعُ من الملوك، وقد اجتمع بغازان ملك التتر وكبار دولته وما خافهم)[4].

٤- ويقول ابن فضل الله: (وحُكِي من شجاعته في مواقف الحرب نوبةَ شقحب، ونوبةَ كسروان ما لم يُسمَع إلا عن صناديد الرجل، وأبطال القتال، وأحلاس الحرب، تارةً يُباشر القتال، وتارة يُحرِّضُ عليه)[5].

---

(١) نقله ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٨/ ١٨٢).

(٢) «الدرة اليتيمية في السيرة التيمية» ضمن «تكملة الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص٤٣-٤٤).

(٣) نقله ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» (ص٣٣).

(٤) ذكر ذلك خادم الشيخ إبراهيم الغياني الذي رافقه في حبسته في مصر انظر رسالته ضمن «الجامع لسيرة ابن تيمية خلال سبعة قرون» (ص١٤٦).

(٥) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (٥/ ٧٠١).

٥- ويقول ابن رجب بعد أن ذكر خبر استصراخ ابن تيمية للسلطان والأعيان في القاهرة لنصرة الشام وبعض استنباطاته من الآيات في ذلك: (وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد -وكان هو القاضي حينئذٍ- فاستحسن ذلك، وأعجبه هذا الاستنباط، **وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام**)[1]. وحسبك من تعجب رجل مقدام كابن دقيق العيد دليلًا علىٰ إقدام ابن تيمية وشجاعته.

أراد الكاتب التهوين من قيمة الشيخ، ومواقفه وفتاويه، لأنه يقلل بذلك من قيمة الشريعة التي يحملها، والتي يراها فُعِّلت ضمن شروط زمانية ومكانية، لا تصلح بغيرها، وهو في سبيل تحقيق ذلك الغرض السيئ لا يعبأ في موافقة ما يكتبه للحقائق التاريخية أو مخالفته.

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٤/ ٥١٠).

الملحق

«فتيا في قتال التتار»

لشيخ الإسلام

تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام
ابن تيمية الحراني الدمشقي
رحمه الله تعالى

❖ الإشكالية التي عالجتها «فتيا في قتال التتار»:

يتضمن هذا الملحق تحقيقًا لنصِّ «الفتيا الأولىٰ في قتال التتار» للشيخ رحمه الله، وهي تمثل حلًّا فقهيًّا لإشكالين:

الأول: كيف يُقاتَلُ التتارُ مع نُطقِهم بالشهادتين؟

والثاني: كيف يُقاتَل مع المماليك مع وجود فجورٍ في أمرائهم وعساكرهم؟

وهذان الإشكالان قد ورد في المصادر ما يشير إلىٰ إثارتهما في أوقات مختلفة في سنوات حرب المماليك في مصر والشام مع مملكة إيران في عهدي قازان وخربندا:

ففيما يتعلق بالإشكال الأول وهو: (كيف يُقاتَلُ التتارُ مع نُطقِهم بالشهادتين؟)؛ يقول ابن تيمية واصفًا الحال بعد وقعة وادي الخزندار: (وفي هذه المدة لما شاع عند العامَّة أن التتار مسلمون؛ أمسك أكثر العسكر عن قتالهم، ولم يقاتلهم إلا طائفة قليلة...)[1]، وقال اليونيني: (وشرع الناس بدمشق يذكرون خيرًا عن ملك التتار، وأنه مسلم، وأن غالب جيشه علىٰ ملَّة الإسلام، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحدًا، ومن وجدوه إنما يأخذونَ سلاحَه ومركوبَه ويُطلقونه، وكثرت الحكايا من هذا النوع، وأن من جملة رِفْقهم أنهم لم يتبعوا الناس إلىٰ دمشق)[2]، وقال ابن تيمية: (فلما انصرَف العسكر إلىٰ مصر -يعني:

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٥٨).

(٢) «ذيل مرآة الزمان» (١/ ٢٥٢).

بعد هزيمته في معركة وادي الخزندار- وبلغه ما عليه هذه الطائفة الملعونة من الفساد، وعدم الدين، خرجَت جُنُود الله وللأرض منها وئيد قد ملأت السهل والجبل...)[1]، وقال في رسالته للناصر بعد احتلال دمشق: (وانكشَفَ لعامَّة المُسلمين شَرْقًا وغَرْبًا حقيقةُ حالِ هؤلاء المفسدين الخارجين عن شريعة الإسلام، وإن تكلَّمُوا بالشهادتين، وعَلِمَ مَن لم يكن يعلمُ ما هم عليه من الجهل والظلم والنفاق والتلبيس والبُعد عن شرائع الإسلامِ ومناهجه...)[2]، وقال ابن كثير في تأريخه لأحداث حملة قازان الثالثة سنة ٧٠٢هـ: (وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتر من أي قبيل هو، فإنهم يظهرون الإسلام، وليسوا بغاة علىٰ الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه...)[3]، وقد أجاب ابن تيمية عن أسئلة تتعلق بالتتار في مدة إقامته بمصر، وهي متعلقة بحملة خربندا سنة ٧١٢هـ، وأجاب عن أسئلة تتعلق بالتتار أيضًا في حملة المماليك علىٰ ملطية سنة ٧١٤هـ، كما تقدَّم.

أما ما يتعلق بالإشكال الثاني وهو: (كيف يُقاتَل مع الأمراء والعَساكِر المملوكية مع وجود فجورٍ فيهم؟)، فمما يدل علىٰ وجود نفرة لدىٰ بعض المسلمين من العساكر المملوكية قولُ الذهبي عن حال الناس بعد هزيمة وادي الخزندار: (...وكثرت الحكايات من هذا النمط، حتىٰ قال إنسان كبير: اسكت! هؤلاء خير من عسكرنا، وانخدع الناس)[4]، وقال ابن تيمية في رسالته للناصر بعد احتلال دمشق: (وحَنَّتْ إلىٰ العساكر الإسلامية نفوس كانت مُعرِضة عنهم،

(١) «الرسالة القبرصية» (ص٥٩).
(٢) «جامع المسائل» (٥/ ٢٩٨).
(٣) «البداية والنهاية» (١٨/ ٢٣).
(٤) «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٧٠٤).

ولانَتْ لهم قلوبٌ كانت قاسية عليهم)[1]، ومما يدل علىٰ وقوع فجور من العساكر المملوكية قبل هزيمة وادي الخزندار، واحتلال دمشق قول ابن تيمية: (وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة: من فساد النيات، والفخر، والخيلاء، والظلم، والفواحش، والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة علىٰ فرائض الله، والبغي علىٰ كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم)[2]، وفي عهد خربندا أيضًا كان قد وقع من أوباش الجيش المملوكي -كما يصفهم الذهبي[3]- عدوانٌ علىٰ مسلمي ملطية، وقد ذكر ابن تيمية في جوابه المتعلق بحملة المماليك علىٰ ملطية حرمةَ دماء المسلمين من أهلها: (ومَنْ أغار علىٰ المسلمين وتعرَّض لدمائهم وأموالهم بغير حقِّها، فهو ظالمٌ معتدٍ، ولا طاعة لمن يأمر بذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله)[4].

❖ تاريخ «فتيا في قتال التتار»:

ظهر مما تقدَّم أن هذين الإشكالين كان طرحُهُما متكررًا طيلة مدة الحرب مع مملكة إيران، في عهدي قازان وخربندا، وكتب ابن تيمية في أوقات متعددة فتاوىٰ في الجواب عنهما.

واستنادًا إلىٰ ما ورد في نص السؤال من ذكر جرائم التتار في وقت احتلالهم لدمشق سنة ٦٩٩هـ، فإن تاريخ الفتوىٰ سيكون بعد تلك السنة.

---

(١) «جامع المسائل» (٥/ ٢٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣١).

(٣) «دول الإسلام» (٢/ ٢٤٩).

(٤) «جامع المسائل» (٧/ ٤٤٠).

ومما يقوي أن هذه الفتوىٰ كتبت في عهد قازان لا خربندا، أن الشيخ ذكر إظهار الرفض وجهًا من أوجه خروج التتار عن شريعة الإسلام فيما كتبه من فتاوىٰ في عهد خربندا، ولم يرد ذلك في هذه الفتوىٰ.

❖ النسخ الخطية المعتمدة في تحقيق «فتيا في قتال التتار»:

قال مقيده -عفا الله عنه-: وقفت علىٰ ثلاث نسخ خطية لهذه الفتوىٰ:

الأولىٰ: ضمن فتاوىٰ للشيخ رحمه الله، من محفوظات مكتبة تشستربيتي في إيرلندا، في مجموع رقمه (٤٧٣٣)، وقد نُسخت في القرن الثامن الهجري، بخطٍّ واضح، جاء في أولها: (فصل.. فتاوي شيخنا الفاضل، الكامل، فريد دهره، ووحيد عصره، الشيخ تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية أمتعنا الله بحياته، ونفعنا ببركته، إنه علىٰ كل شيء قدير). وقد وردت هذه الفتوىٰ في الصفحات (١٥-١٩) من المجموع المذكور.

النسخة الثانية: جاءت ضمن مجموع عنون له بـ(رسائل في العقائد) للشيخ، نسخ في القرن التاسع الهجري، محفوظ في جامعة السند في باكستان، وقد عُنوِنَ لهذه الفتوىٰ في قائمة المحتويات المثبتة في أول المجموع بـ«فتيا في قتال التتار».

النسخة الثالثة: جاءت ضمن مجموع مخطوط، فيه فتاوىٰ لابن تيمية، من محفوظات دار الإفتاء بالسعودية، رقمه (٥/ ٦٨٠)، وقد جاءت هذه الفتوىٰ في الصفحات (٤٦-٥٠)، وفي آخرها إشارة لمقابلتها علىٰ أصلها.

والنسخة الأولىٰ هي أعتق النسخ وأجودها، وهي التي اعتمدتها في التحقيق.

❖ النسخة المطبوعة لـ «فتيا في قتال التتار»:

نشر الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رحمه الله تعالىٰ هذه الفتوىٰ في «مجموع الفتاوىٰ»[1]، ويظهر بالمقابلة بين نشرته وبين نسخة دار الإفتاء، أنه اعتمد عليها، ووقع في نشرته أخطاء عديدة مؤثِّرة في المعنىٰ.

وقد قابلت النسخة الأصل (نسخة تشستربيتي) علىٰ نشرة الشيخ ابن قاسم الواردة في «مجموع الفتاوىٰ»، ورمزت لهذه النشرة بـ«م»، ولم أثقل الهوامش بإثبات الفروق غير المهمة، أو غير المؤثرة بينهما، وإنما أثبتُّ الفروق المهمة فقط، أما ما تراه من عبارات وكلمات بين معقوفين فهي العبارات والكلمات التي سقطت من «م»، ووردت في الأصل.

---

(١) (٢٨/ ٥٠١-٥٠٨).

النص المحقق

وسئل أيضًا[1]: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين، أيدهم الله تعالىٰ، في هؤلاء التتار الذين قدموا في سنة تسع وتسعين وستمائة، وفعلوا ما اشتهر من قتل بعض المسلمين، وسبي الذراري بجبل الصالحية وغيره، واستنصروا بالمشركين والأرمن وغيرهم، وانتهكوا حرمات الدين من إذلال العلماء وإهانة المساجد، لا سيما بيت المقدس، وإفسادهم فيه، وأخذوا من أموال المسلمين وأموال بيت المال الجمل العظيمة، وأسروا من رجال المسلمين الجم الغفير، وأخرجوهم من أوطانهم، وادَّعَوا مع ذلك التمسك بالشهادتين، وادَّعَوا تحريم مقاتلتهم لما زعموا من اتباع أصل الإسلام، ولكونهم عفوا عن استئصال المسلمين؛ فهل يجوز قتالهم أو يجب؟ وأيًّا ما كان فمن أي وجه جوازه أو وجوبه؟

أجاب ﷺ: الحمد لله، كل طائفةٍ ممتنعةٍ عن التزام شرائع الإسلام[2] الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم؛ فإنهُ يجبُ قتالهم حتىٰ يلتزموا شرائعهُ، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلىٰ ذلك اتفق [الصحابة و] الفقهاء بعدهم بعد سابقة مُناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما [في ذلك، وقوله: «كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني

---

(١) جاءت هذه الفتوى في المجموع المخطوط ضمن عدة فتاوى للشيخ، كما تقدم، فالعطف على المسألة التي قبلها.

(٢) «م»: «عن التزام شريعة من شرائع الإسلام».

دمائهم وأموالهم إلا بحقها؟» فقال له أبو بكر الصديق: «فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتهم علىٰ منعها»[1]]، فاتفق الصحابة علىٰ القتال علىٰ حقوق الإسلام عملًا بالكتاب والسنة.

وكذلك قد ثبت عن النبي ﷺ من عشرة أوجهٍ الحديث في الخوارج، [وأمر بقتالهم]، وأخبر أنهم شرُّ الخلق والخليقة، مع قوله: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم»[2]، فعُلِم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقطٍ للقتال، بل القتال واجب حتىٰ يكون الدين كله لله، وحتىٰ لا تكون فتنة، فمتىٰ كان [بعض] الدين لغير الله؛ فالقتال واجب.

فأيما طائفة [ممتنعة] امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء والأموال، [أ]و الخمر، [أ]و الزنا، [أ]و الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام مُجاهدة الكفار، أو ضرب الجزية علىٰ أهل الكتاب، أو غير ذلك من واجبات الدين ومُحرماته، التي لا عذرَ لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها[3]؛ فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها، وإن كانت مُقرَّةً بها.

وهذا لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء.

وإنما اختلفتِ الفقهاء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت علىٰ ترك بعض السنن [الرواتب]؛ كـ[ترك] ركعتي الفجر، [أ]و الأذان والإقامة -عند من لا يقول

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ٢٩٤٦، ٦٩٢٤، ٧٢٨٤) ومسلم (٢٠، ٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٠، ٦١٦٣، ٦٩٣٣) ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) «م»: «التي يكفر الجاحد لوجوبها».

بوجوبها-، ونحو ذلك من الشعائر: هل تُقاتَل الطائفة الممتنعة علىٰ تركها أم لا؟ فأما الواجبات والمحرمات المذكورة ونحوها؛ فلا خلاف في القتال عليها.

وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين علىٰ الإمام، أو الخارجين عن طاعته؛ كأهل الشام مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإن أولئك خارجون عن طاعة إمامٍ مُعين، أو خارجون عليه لإزالة ولايته، وأما المذكورون فهم خارجون عن [شريعة] الإسلام؛ بمنزلة مانعي الزكاة، وبمنزلة الخوارج الذين قاتلهم علي رضي الله عنه.

ولهذا افترقت سيرة علي رضي الله عنه في قتاله لأهل البصرة ولـ[أهل] الشام، وفي قتاله لأهل النهروان؛ فكانت سيرته مع البصريين والشاميين سيرةُ الأخ مع أخيه، ومع الخوارج بخلاف ذلك.

وثبتت النصوص عن النبي ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال [من قاتله] الصديق وقتال الخوارج، بخلاف الفتنة الواقعة مع أهل الشام و[أهل] البصرة؛ فإن النصوص دلت فيها بما دلت، والصحابة والفقهاء بعدهم[1] اختلفوا فيها، حتىٰ إن من الفقهاء الأئمة من يرىٰ أهل البغي الذين يجب قتالهم هم الخارجون علىٰ الإمام بتأويل سائغ، لا الخارجون عن طاعته، وآخرون يجعلون القسمين بغاةً، وبين العبارتين فرقٌ بيِّن[2]، فأما الذين لا يلتزمون شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛ فما أعلم في وجوب قتالهم خلافًا.

فإذا تقررت هذه القاعدة؛ فهؤلاء القوم المسؤول عنهم عسكرُهم مُشتمل علىٰ قوم كفار من النصارىٰ والمشركين، وعلىٰ قوم مُنتسبين إلىٰ الإسلام، وهم جمهور

---

(١) «م»: «والصحابة والتابعون».

(٢) «م»: «وبين البغاة والتتار فرق بين».

العسكر، ينطِقون بالشهادتين إذا طُلبت منهم، ويعظِّمون الرسول، وليس فيهم من يصلي إلا قليل جدًّا، وصوم رمضان أكثر فيهم من الصلاة، والمسلم عندهم أعظم من غيره، وللصالحين من المسلمين عندهم قدر، وعندهم من الإسلام بعضُه، وهم متفاوتون فيه.

لكن الذي عليه عامتهم، والذي عليه يقاتِلون الناس مُتضمِّنٌ لترك كثير من شرائع الإسلام أو أكثرها؛ فإنهم -أولًا- [لا] يُوجبون الإسلام، ولا يُقاتلون من تركه، بل [كل] من قاتل علىٰ دولة المغول عظَّمُوه وأقروه[1]، وإن كان كافرًا عدوًّا لله ورسوله، وكل من خرج عن دولة المغول أو عليها استحلوا قتاله، وإن كان من خيار المسلمين، فلا يجاهدون الكفار، ولا يُلزِمون أهل الكتاب الجزيةَ والصغار، ولا يَنهون أحدًا من عسكرهم أن يعبد ما شاء من شمسٍ أو قمرٍ أو غير ذلك، بل الظاهرُ من سيرتهم أن المسلم عندهم بمنزلة العدل، أو الرجل الصالح، أو المتطوع في المسلمين، والكافر عندهم بمنزلة الفاسق من المسلمين، أو بمنزلة تارك التطوع.

وكذلك عامتهم لا يحرمون دماء المسلمين وأموالهم، إلا أن ينهاهم عنها سلطانهم، أي لا يلتزمون تركها، وإذا نهاهم عنها أو عن غيرها أطاعوه لكونه سلطانًا لا لمجرد الدين[2].

وعامتهم لا يلتزمون [اجتناب المحرمات من الخمر، والربا، والميسر، ولا يلتزمون] أداء الواجبات لا من الصلاة، ولا من الزكاة، ولا من الحج، ولا غير ذلك، ولا يلتزمون [أيضًا] الحكم بينهم بحكم الكتاب والسنة، بل يحكمون بأوضاعٍ لهم توافق الإسلام تارةً، وتخالفُه أخرىٰ.

---

(١) «م»: «وتركوه».

(٢) «م»: «لا بمجرد الدين».

وإنما كان الملتَزِمُ بشرائع الإسلام الشهيد نيروز[1]، وهو الذي أظهر من شرائع الإسلام ما استفاض عند الناس، وأما هؤلاء فدخلوا فيه وما التزموا شرائعه.

وقتال هذا الضرب واجب بإجماع المسلمين، ولا يشك في ذلك من عرف دين الإسلام، وعرف حقيقة أمرهم؛ فإن هذا المسلك[2] الذي هم عليه ودين الإسلام لا يجتمعان أبدًا.

[ولا يُتصوَّر أن يصحب هذا العسكر علىٰ ما هم عليه مكره، إلا أراذل المنتسبين إلىٰ الإسلام من رافضي أخرق، أو اتحادي أحمق، أو منافق عليم اللسان، أو مُراءٍ ظاهر الإدهان، وإلا فالمسلم العدل لا يتمكن من ذلك أبدًا، بل عامة الزنادقة المنتسبة إلىٰ الإسلام من المُتفلسفة الداخلين في المتفقهة أو المتصوفة، والمُدخلين في دين الإسلام ما ليس فيه، والمُخرجين منه ما هو منه، لا يتمكَّنون من ذلك إلا في دولة هؤلاء القوم المسؤول عنهم لفرط جهلهم وظلمهم، وبُعدِهم عن القيام بالإسلام علمًا وعملًا].

بل إذا كان الأعراب والأكراد وغيرهم من أهل البوادي الذين لا يلتزمون شريعة الإسلام يجب قتالهم، وإن لم يتعدَّ ضررهم إلىٰ أهل الأمصار؛ فكيف بهؤلاء [الذين يُضاد مسلكهم للدين من حيث هو دين، لا لطاعة إمام أو أمير معين من ولاة الإسلام؟].

نعم، يجب أن يُسلَك في قتالهم[3] المسلك الشرعي من دعائهم إلىٰ التزام

---

(١) «م»: «الشيزبرون»! بدلاً من «الشهيد نيروز».

(٢) «م»: «فإن هذا السلم».

(٣) «م»: «في قتاله».

شرائعه[1] إن لم تكن الدعوة إلىٰ الشرائع قد بلغتهم، كما أن[2] الكافر الحربي يُدعىٰ أولًا إلىٰ الشهادتين إن لم تكن الدعوة قد بلغته.

فإن اتفق من يقاتلهم علىٰ الوجه الكامل؛ فهو الغاية من رضوان الله، وإعزاز كلمته، وإقامة دينه، وطاعة رسوله.

وإن كان المقاتل لهم من فيه فجور[3]، [أ]و فسادُ نية؛ بأن يكون يقاتل علىٰ الرئاسة، أو يعتدي عليهم في بعض الأمور، وكانت مفسدة ترك قتالهم أعظم علىٰ الدين من مفسدة قتالهم علىٰ هذا الوجه؛ كان الواجب أيضًا قتالهم [علىٰ هذا الوجه] دفعًا لأعظم الفسادين[4] بالتزام أدناهما، [وتحصيلًا لأعظم الصلاحين بتفويت أدناهما]؛ فإن هذا من أصول الإسلام التي يجب مراعاتها.

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة الغزو من كل إمامٍ برًّا كان أو فاجرًا؛ فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاق لهم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ؛ لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار، أو مع عسكرٍ كثيري الفجور؛ فإنه لا بد من أحد أمرين:

إما ترك الغزو معهم؛ فيلزمُ من ذلك استيلاء الأفجَرين[5] الذين هم أعظم ضررًا في الدين والدنيا.

وإما الغزو مع الأمير الفاجر؛ فيحصل من ذلك دفع الأفجرين، وإقامة أكثر

---

(١) «م»: «شرائع الإسلام».

(٢) «م»: «كما كان».

(٣) «م»: «وإن كان فيهم من فيه فجور».

(٤) «م»: «لأعظم المفسدتين».

(٥) «م»: «استيلاء الآخرين».

شرائع الإسلام، وإن لم تكن إقامة جميعها[1]، وهذا هو الواجب في هذه الصورة، وكل ما أشبهها، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين [للكفار، وللخوارج، والخُرَّمِية، والقرامِطة، وغيرهم من الطوائف] لم يقع إلا علىٰ هذا الوجه.

و[قد] ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلىٰ يوم القيامة: الأجر والمغنم»[2]، فهذا الحديث الصحيح يدل علىٰ معنىٰ ما رواه أبو داود في «سننه»[3] في قوله ﷺ: «الغزو ماضٍ منذ بعثني الله إلىٰ أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر، ولا عدل عادل».

و[كذلك] ما استفاض عنه ﷺ من قوله: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم إلىٰ يوم القيامة»[4]، إلىٰ غير ذلك من النصوص التي اتفق أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف علىٰ العمل بها في جهاد من يستحق الجهاد مع الأمراء أبرارهم وفجارهم، بخلاف الخوارج والرافضة الخارجين عن السنة والجماعة.

هذا مع إخباره ﷺ [بأن «خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم تصير مُلكًا»[5]، ومع إخباره] بأنه «سيلي أمراء ظلمة خونة فجرة فمن صدقهم بكذبهم، وأعانهم [علىٰ

---

(١) «م»: «وإن لم تمكن إقامة جميعها».

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٠، ٢٨٥٢، ٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣) من حديث عروة بن الجعد رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) برقم (٢٥٣٢). وفي سنده يزيد بن أبي نشبة؛ مجهول.

(٤) أخرجه البخاري (٧١، ٣٦٤١، ٧٤٦٠)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه مرفوعًا.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٩٢٨)، والترمذي (٢٢٢٦)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨١٥٥) من حديث سعيد بن جمهان عن سفينة رضي الله عنه مرفوعًا. وصححه الإمام أحمد.

ظلمهم] فليس مني، ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه، وسيرد علي الحوض»[1].

فإذا أحاط المرء علمًا بما أمر به النبي ﷺ من الجهاد الذي يقوم به الأمراء إلىٰ يوم القيامة، وبما نهىٰ عنه من إعانة الظلمة علىٰ ظلمهم؛ عَلِم أن الطريقة الوسطىٰ التي هي دين الإسلام المحض [هي] جهاد من يستحق الجهاد؛ كهؤلاء القوم المسؤول عنهم، [وغيرهم]، مع كل أمير وطائفة هم أولىٰ بالإسلام منهم، إذا لم يمكنه جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها علىٰ شيء من معاصي الله تعالىٰ، بل يطيعهم في طاعة الله تعالىٰ، ولا يطيعهم في معصية الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا هي الواجبة[2] علىٰ كل مكلفٍ، وهي متوسطة بين طريقة الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشِئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا، وإن لم يكونوا أبرارًا.

ونسأل الله [سبحانه] أن يوفقنا و[جميع] إخوتنا المسلمين لما يحبه ويرضاه من القول والعمل، وهو سبحانه أعلم[3].

[قاله أحمد ابن تيمية].

---

(١) أقرب الألفاظ لما ذكره الشيخ ما أخرجه أحمد (٥٧٠٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) «م»: «وهي الواجبة».

(٣) «م»: «والله أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم».

قائمة المراجع

أ- المراجع التراثية المطبوعة:

١. الاستغاثة في الرد علىٰ البكري: لتقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية (ت:٧٢٨)، دراسة وتحقيق عبد الله بن دجين السهيلي، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٣١هـ.

٢. الاستقامة: لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، أشرف علىٰ طباعته ونشره إدار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣. الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: لأبي حفص عمر بن علي البزار (ت: ٧٤٩هـ)، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت:٧٥١هـ)، تحقيق مشهور حسن سلمان، دار ابن الجوزي بالرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

٥. أعيان العصر وأعوان النصر: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، حققه علي أبو ريد وآخرون، دار الفكر المعاصر ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م.

٦. البداية والنهاية: لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٧. بغية المرتاد في الرد علىٰ الزنادقة والجهمية وأهل الإلحاد: لابن تيمية، تحقيق ودراسة الدكتور موسىٰ بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٨. تاريخ ابن الجزري المسمىٰ تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم ابن الجزري (ت: ٧٣٨ هـ)، تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بصيدا، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٩. تاريخ ابن الوردي: لزين الدين أبي حفص عمر بن مظفر ابن الوردي المعري الكندي، (ت: ٧٤٩هـ)، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، حققه وضبط نصه وعلق عليه الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١١. التدوين في أخبار قزوين: لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني (ت: ٦٢٣هـ)، تحقيق عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

١٢. التعريف بالمصطلح الشريف: لابن فضل الله العمري، مطبعة العاصمة بمصر سنة ١٣١٢هـ.

١٣. تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٤. تكملة الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون: جمعه ووضع فهارسه علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٢هـ.

١٥. جامع المسائل، المجموعة التاسعة: لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن حسن قائد، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٧هـ.

١٦. جامع المسائل، المجموعة الخامسة: لابن تيمية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ.

١٧. جامع المسائل، المجموعة الرابعة: لابن تيمية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٨١. جامع المسائل، المجموعة السابعة: لابن تيمية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٢هـ.

١٩. الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون: جمعه ووضع فهارسه محمد عزير شمس وعلي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

٢٠. جزء فيه أربعون حديثًا مخرَّجة عن كبار مشيخة الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية: لأمين الدين ابن الواني الدمشقي (ت:٧٣٥هـ)، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية ببيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢١. الحوادث الجامعة في المائة السابعة: المنسوب لابن الفوطي (ت:٧٢٣هـ)، تحقيق مهدي النجم، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٢. خطط الشام: لمحمد كرد علي (ت: ١٣٧٢هـ)، مكتبة النوري بدمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٣. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر العسقلاني.

٢٤. ذيل مرآة الزمان: لقطب الدين موسىٰ بن محمد اليونيني (ت: ٧٢٦ هـ)، دراسة وتحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي أبو ظبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٢٥. الرد الوافر علىٰ من زعم بأن من سمىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام كافر: لابن ناصر الدين الدمشقي (ت:٨٤٢هـ)، حققه زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٢٦. الرسالة القبرصية: لابن تيمية، اعتنىٰ بنشرها والتعليق عليها عبد المجيد جمعة، مكتبة الحافظ الذهبي بالجزائر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٢٧. الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الألوسي: جمع وتحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢٨. زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ: لابن قيم الجوزية، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنـؤوط وعبد القادر الأنؤوط، الطبعة السادسة عشرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٢٩. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: للأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الـدوادار، تحقيق دونالد. س. ريتشاردز، الشركة المتحدة للتوزيع، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٠. السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت: ٨٤٥ هـ) تحقيق محمد بن عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣١. الصفدية: لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، ١٤٠٦هـ.

٣٢. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: لبدر الدين محمود العيني (ت: ٨٥٥ هـ)، حققه الدكتور محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٣٣. العقود الدُّريَّة في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي (ت: ٧٤٤ هـ)، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٣٤. فتاوىٰ السبكي: لأبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت: ٧٥٦هـ)، دار المعارف.

٣٥. الفتاوىٰ الكبرىٰ: لابن تيمية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٣٦. فرائد السمطين من فضائل المرتضىٰ والبتول والسبطين: لصدر الدين ابن حمويه، تحقيق وتعليق محمد باقر المحمودي، دار الحبيب بقُمّ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٨هـ.

٣٧. الفروع: لشمس الدين محمد بن مفلح المقدسي (ت:٧٦٣هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣٨. قاعدة في المحبة: لابن تيمية، تحقيق فواز أحمد زمرلي، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم ببيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٣٩. كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع وهو الدرُّ الفاخر في سيرة الملك الناصر: لأبي بكر بن عبدالله بن أيبك الداوداري، تحقيق هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة.

٤٠. المجلد الرابع من مجموعة فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة، ١٣٢٩هـ.

٤١. مجمع الآداب في معجم الألقاب: لابن الفوطي (ت: ٧٢٣ هـ)، تحقيق محمد الكاظم، مؤسسة الطباعة والنشر؛ وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي بطهران، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ هـ.

٤٢. مجموع الفتاوىٰ: لابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية لطباعة ونشر الكتب السلفية.

٤٣. مختصر الفتاوىٰ المصرية: لبدر الدين محمد بن علي البعلي (ت:٧٧٧هـ)، أشرف علىٰ تصحيحه عبد المجيد سليم، دار الكتب العلمية ببيروت.

٤٤. المختصر في أخبار البشر: للملك المؤيد عماد الدين بن إسماعيل أبي الفدا (ت:٧٣٢ هـ)، الطبعة الأولىٰ، المطبعة الحسينية المصرية.

٤٥. مدارج السالكين: لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر.

٤٦. المذمة في استعمال أهل الذمة (ضمن مجموع): لأبي أمامة محمد بن علي النقاش (ت:٧٦٣هـ)، تحقيق سيد كسروي، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٤٧. مرآة العجائب: لمحمد بن قاسم النويري (ت: بعد ٧٧٥ هـ)، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٤٨. مسألة في الكنائس: لابن تيمية، تحقيق علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، مكتبة العبيكان بالرياض، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٤٩. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: لابن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩ هـ)، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

٥٠. معجم شيوخ الذهبي: تحقيق وتعليق روحية عبد الرحمن السيوفي، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٥١. المُقتَفِي علىٰ الروضتين في أخبار الدولتين: لعلم الدين القاسم بن محمد البرزالي (ت: ٧٣٩هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بصيدا، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٥٢. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية: لابن تيمية (ت: ٧٢٨ هـ)، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، من منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦ هـ.

٥٣. النفائس في أدلة هدم الكنائس: لأبي العباس نجم الدين أحمد بن محمد ابن الرفعة (ت:٧١٠هـ)، تحقيق سعد عماد الكعكي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٥٤. نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: ٧٣٣ هـ)، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٥٥. الوافي بالوفيات: للصفدي (ت: ٧٤٦ هـ)، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفىٰ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

ب- المراجع المخطوطة:

٥٦. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: لابن فضل الله العمري، نسخة مخطوطة لجزء من الكتاب، من محفوظات المكتبة الوطنية بباريس، برقم (٢٣٢٥، عربي).

٥٧. المجموعة الرشيدية: لرشيد الدولة الهمذاني، من محفوظات المكتبة الوطنية بباريس، برقم (٢٣٢٤، عربي).

جـ - المراجع المترجمة:

٥٨. تاريخ الشعوب الإسلامية: لكارل بروكلمان، نقلها إلىٰ العربية نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين ببيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

٥٩. تاريخ المغول: منذ حملة جنكيز خان حتىٰ قيام الدولة التيمورية: لعباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي بأبو ظبي، ٢٠٠٠م.

٦٠. جامع التواريخ، تاريخ غازان خان: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، دراسة وترجمة فؤاد عبدالمعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر بالقاهرة، ٢٠٠٠م.

٦١. العالم الإسلامي في العصر المغولي: لبرتولد شبولر، نقله إلىٰ العربية خالد أسعد عيسىٰ، دار حسان للطباعة والنشر بدمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٩٨٢م-١٤٠٢هـ.

٦٢. العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي: مقالات مجموعة لدوروتيا كرافولسكي، عربها زوجها رضوان السيد، دار المنتخب العربي ببيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٦٣. العلامة الخواجة نصير الدين الطوسي: حياته وآثاره: محمد تقي مدرس رضوىٰ، تعريب: علي هاشم الأسدي، مؤسسة الناشر التابعة للآستانة الرضوية بطهران، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ.

٦٤. المغول: التركيبة الدينية والسياسية: شيرين بياني، ترجمه عن الفارسية سيف علي، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ٢٠١٣م.

د - المراجع الأجنبية:

1. **Denise Aigle**، *The Mongol Invasions of Bilād al-Shām by Ghāzān Khān and Ibn Taymīyah's Three "Anti-Mongol" Fatwas*، Mamluk Studies Review، Vol. 11، No.2، 2007.



تاريخ لم يُقرأ

يُعَدُّ شيخ الإسلام ابن تيمية من تلك الشخصيات التي كان لها من قوةِ التأثير ما استطاعت به تجاوز قرون متطاولة، والوصول بتأثيرها إلى القرن الخامس عشر الهجري، حتى غدا ذلك التأثير ظاهرةً فكرية واجتماعية، يتنازع الناس في تحليلها، وفي اتخاذ المواقف منها.

وهو من أبرز أولئك الرجال الذين كان لهم من الحضور في عصرنا بتركته العلمية وبمواقفه الاجتماعية والسياسية ما لا يخفى.

ولأن تلك المواقف إنما تكونت في الظروف السياسية والاجتماعية لديار الإسلام في القرن الثامن الهجري، فإن من اشتغالات البحث العلمي المعاصر دراسة تلك الظروف وإبانة ما تضمنته من مواطن الاقتداء والاهتداء والاعتبار، وهذا ما تناوله هذا البحث.

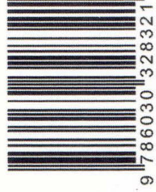
كما أن هذا البحث يسهم في الإبانة عن صورة ابن تيمية في عصره: مكتملةً غير مُجتَزَأة، ومرتبةً غير مبعثرة، وموثقةً غير مزورة.





مطابع الفسطاط الحديثة sales@al-fostat.com

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز البريدي: ١٢٢٧٤
سجل تجاري: ١٠١٠٢٥٨٨٣٨ هاتف: ٩٦٦١١٢٢٥٥٤٧٣+ فاكس: ٩٦٦١١٢٢٥٠١٦٧+
www.afaqpub.com info@afaqpub.com



ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٢٨٣٢-١